الغريق ٤٨

قصة المدمرة "إيلات"

موشه ليفي

الغريق ٤٨

قصة المدمرة "إيلات"

ترجمة

أ.د. أحمد كامل راوي   عمرو زكريا خليل

MOSHE LEVY
THE 48th SOUL - The Story of the Destroyer Eilat

موشه ليفي

الغريق ٤٨ – قصة المدمرة "إيلات"

ترجمة: أ.د. أحمد كامل راوي – عمرو زكريا خليل.

تصميم الغلاف: أحمد الخولي ت: ٠١٠٠٥٨٣٣٨٥٢

صورة المؤلف عدسة: ياعيل كاتفان.

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٤٩٣٣

ترقيم دولي:٧-٨٥٧٧-٩٠-٩٧٧-٩٨٧

طبع بمطابع الدار كوبي سنتر

مدينة ٦ أكتوبر – سيتي ستار ٣/٢٠

ت: ٠١٠٣٠٠٩٤٠٩٣ - ٠١١٠٢٩٩١٠١٥

يطلب من: zakaryaamr@yahoo.com

المحتوى

مقدمة الطبعة العربية............................. ٩

مقدمة الطبعة الأولى............................ ١٣

مقدمة الطبعة الثالثة............................ ١٧

رسالة إلى القاريء المصري ٢١

تقديم.................................... ٢٣

القسم الأول: الانتقال ٢٥

- الانتقال إلى المدمرة ٢٧
- التأقلم ٤٣
- شبه كارثة ٤٩
- أريه يخالف الأوامر ٥٧
- نمط الحياة الروتينية ٦١
- توتر الجندي المستجد ٧٥
- تفتيش جائزة المرفق ٨٥

- تمرينات، تمرينات........................٩١
- الإبحار الأول نحو الحدود المصرية..........١٠٣
- المعركة البحرية الأولى "معركة رمانة".....١١١
- التدخين ١٤٣
- اللقاء الأول مع طوفا ١٤٩
- الفئران، الفئران ١٥٣
- طائرات الميج في السماء ١٥٩
- السقوط في الماء........................١٧٥
- غناء أمام سواحل العدو ١٨٣

القسم الثاني: الغرق........................ ١٩٣

- اشتعال المدمرة ١٩٥
- مغادرة السفينة ٢٤٣
- الإنقاذ ٢٦١
- **الخاتمة**...............................٢٧٧

- على من تقع مسئولية الغرق.................٢٨١
- الخلاصة ٢٨٩
- **صور** ٢٩١

مقدمة الطبعة العربية

تحتفل القوات البحرية المصرية في الحادي والعشرين من أكتوبر من كل عام بعيدها السنوي. و لم تكن أحداث يوم ٢١ أكتوبر مجرد عملية بحرية ضد هدف إسرائيلي، بل تجاوزت ذلك لتصبح علامة فارقة وتحولًا جوهريًا فى الفكر الاستراتيجى البحري والمفاهيم القتالية البحرية، إذ إنه للمرة الأولى فى التاريخ البحرى العسكرى تتصدى وحدة بحرية صغيرة ممثلة فى لانش صواريخ لمدمرة معادية، وباتت هذه العملية العسكرية البحرية منذ ذلك اليوم درسًا تاريخيًا تدرسه الأكاديميات البحرية العسكرية.

ففى مساء يوم الجمعة ٢٠ أكتوبر ١٩٦٧ اكتشف رادار لنش السواحل «نسر» هدفًا فى اتجاه ٥١ درجة على مسافة ١٧ ميل بحرى من فنار بورسعيد، وفى الساعة ٥:٣٠ من صباح اليوم التالي تم رصد الهدف من جديد بوضوح بواسطة أجهزة رادار قاعدة بورسعيد البحرية على اتجاه ٩٥ درجة ومسافة ١٣ ميل بحر، كما رصدت نقطة المراقبة البصرية أعلى فنار بورسعيد الهدف. كان الهدف هو المدمرة الإسرائيلية "إيلات" طراز "Z"، إنجليزية الصنع حمولة ٢٥٧٥ طن، طولها الإجمالي ١١١ مترًا العرض ١١ مترًا، الغاطس ٥ أمتار، السرعة ٣١ عقدة، مدى الإبحار ٢٨٠٠ ميل بحري، ذات ٤ قواعد أعماق، ٤ مدافع ٤,٥ بوصة، ٦ مدافع ٤٠ مم، ٨ أنابيب طوربيد، عدد أفراد الطاقم ١٨٦ ضابط وجندي.

وعليه فقد تم رفع درجة الاستعداد فى القاعدة، وعندما أشارت عقارب الساعة إلى السابعة وعشر دقائق صباحًا، تم إبلاغ مركز العمليات البحري

بقيادة القوات البحرية بالإسكندرية بالموقف، وعلى الفور أصدر قائد القوات البحرية تعليماته بإخطار هيئة العمليات بالقيادة العامة للقوات المسلحة، وفى قاعدة بورسعيد البحرية كان قد تم رفع درجة استعداد سرب لانشات الصواريخ المكون من لانشين طراز كومار حمولة ٨٥ طن، طول ٢٧ مترًا، عرض ٦ أمتار، غاطس ١.٥ متر، السرعة ٤٠ عقدة، مدى الإبحار ٤٠٠ ميل بحرى، واللانش الواحد مجهز بصاروخين موجهين طراز ستايكس مدى ٣٤ ميل بحرى، وسرعة الصاروخ ٠.٩ ماخ، ووزن العبوة المتفجرة نصف طن.

وفى الساعة ١١:٢٥ صباحًا تم رصد الهدف وعليه فقد طلبت قيادة القوات البحرية من القيادة العامة وهيئة عمليات القوات المسلحة التصديق على قرارها بتدمير الهدف البحرى المعادي.

كان القرار خطيرًا وعلى درجة عالية من الحساسية، وستترتب عليه أبعاد سياسية وعسكرية، وعليه فقد تم رفع الأمر إلى الرئيس جمال عبد الناصر الذى صدَّق عليه من فوره في تمام الساعة ١٢:٢٠ ظهر ذلك اليوم المشهود.

وفى تمام الساعة ١:١٥ ظهرًا قام مركز العمليات البحرى برأس التين، بإرسال إشارة لاسلكية مفتوحة إلى قيادة قاعدة بورسعيد، كان الغرض من الرسالة خداعيًا؛ حيث كان نصها «لا تشتبك مع أية أهداف فى نطاق القاعدة»، وعلى الجانب الآخر تم إخطار قائد القاعدة البحرية تليفونيًا بحقيقة الأمر عن طريق هيئة العمليات بالقاهرة، وذلك حتى لا يحدث أى التباس فى الموقف. ثم كان أن تم رصد الهدف من جديد الساعة ٤:٤٠ عصرًا؛ حيث عاد

واخترق من جديد المياه الإقليمية المصرية[١]. وعلى الفور صدرت أوامر القتال إلى سرب لانشات الصواريخ بقاعدة بورسعيد، على أن تتم الضربة الأولى بواسطة لانش الصواريخ رقم ٥٠٤ بقيادة قائد السرب النقيب أحمد شاكر عبد الواحد القارح، تليها الضربة الثانية بواسطة لانش الصواريخ رقم ٥٠١ بقيادة النقيب لطفى جاد الله.

وفى تمام الساعة الخامسة وخمس دقائق عصرًا، أبحر سرب لانشات الصواريخ نحو الهدف، وفى الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة تمامًا وبعد ضبط الهدف على شاشة رادار لانش الصواريخ، تم إطلاق الصاروخ الأول من اللانش ٥٠٤، فأطاح الصاروخ بأجهزة الاتصال وهوائيات اللاسلكى بالمدمرة، ما جعلها عاجزة عن الاستغاثة وطلب النجدة، بعدها بأربع دقائق تم إطلاق الصاروخ الثاني فأصاب غرفة الماكينات بالمدمرة إصابة مباشرة؛ فتهوي "إيلات" غارقة في أعماق البحر الأبيض المتوسط. ومنذ ذلك التاريخ وتحتفل القوات البحرية المصرية بهذه العملية التي جاءت بعد شهور قليلة من هزيمة ١٩٦٧ كي تبدأ معركة رد الكرامة حتى تمام تحرير كامل الأراضي المصرية في ٢٥ أبريل ١٩٨٢ بعد حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ وتوقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩.

ولأهمية هذا الحدث في تاريخ القوات البحرية المصرية بشكل خاص والعسكرية المصرية بشكلٍ عام رأينا أن نعرض للقاريء المصري الموقف

---

١ – ذلك بخلاف الراوية الإسرائيلية التي تزعم عدم اختراق المدمرة للمياه الإقليمية المصرية ووجودها على مسافة ١٣ ميلًا بحريًا من الشاطيء.

الإسرائيلي من هذه العملية في رواية خاصة ونادرة لأحد الجنود الناجين من معركة إغراق المدمرة الإسرائيلية "إيلات".

ويتميز كتاب "الغريق ٤٨" بسرده لحقائق وأحداث عاشها المؤلف بنفسه بأسلوب أدبي، ليصور لنا الأعمال اليومية الروتينية على متن المدمرة البحرية أثناء فترة عملها، والجنود الذين خدموا عليها وعلاقتهم بعضهم البعض، وعلاقتهم بقادتهم، وأنواع التدريبات العسكرية التي تلقوها والمهام التي كُلِّفوا بها، بما في ذلك المعركة البحرية السابقة لغرقها بشهور قليلة أثناء اشتباكها مع زورقي طوربيد مصريين وإغراقها للزورقين في معركة "رُمَّانة" الشهيرة، وشهادة المؤلف على بسالة رجال زورقي البحرية المصرية حتى استشهادهم.

ثم يعرض المؤلف بشكل مفصَّل الدقائق الأخيرة في حياة المدمرة قبل غرقها في أعماق البحر، وما مرَّ به الناجون منها في عرض البحر لساعات طويلة في الليل الحالك، والمياه الباردة حتى وصول قوات الإنقاذ وانتشالهم من المياه.

ويتناول الكتاب أيضًا أوجه تقصير الأجهزة المخابراتية الإسرائيلية في التعامل مع الموقف ما أدى إلى غرق المدمرة. ويختتم المؤلف الكتاب بعرضه للدروس المستفادة من هذه العملية العسكرية، ورأي قائد القوات البحرية في الفترة من ١٩٨٥-١٩٨٩ "أبراهام بن شوشان" في هذه العملية وما ترتب على ذلك من نتائج.

مقدمة الطبعة الأولى

استمرت عملية كتابة هذا الكتاب أكثر من أربع سنوات، قمت خلالها بزيارة أسر الضحايا، وأجريت مقابلات مع قادة السفينة ومع الناجين منها، واطَّلعت على الوثائق وقرأت شهادات الشهود، واضعًا نصب عينيَّ طوال الوقت هدفًا واحدًا ألا وهو الالتزام قدر المستطاع بالأحداث الحقيقية. لقد عمل الوقت هنا عمل حجر الرحى الطاحنة ذات الأسنان الصغيرة، يطحن فيها الذاكرة الحية ببطء حتى حولها إلى أجزاء صغيرة من الخواطر، الأمر الذي سلبني الحق والمبرر في تحديد مصداقية شهادتي كناجٍ من المدمرة؛ لذلك استعنت بأصدقائي في الخدمة من بحارة وضباط على حد سواء كي أتمكن من النسج الصحيح لخيوط الذاكرة الحية وكي أعرض الأحداث في صورة واقعية قدر المستطاع.

***

يصعب القول إن الحقيقة الخالصة كانت النتيجة، وإن ذلك هو الوصف الحقيقي لقصة المدمرة "إيلات" لأن شهادتي وشهادات زملائي أيضًا اعتمدت على الذاكرة فقط دون الاستعانة بأي شيء آخر. لذلك ففي حال وجود أي تشويه للواقع التاريخي؛ فإني أعتذر عن حدوث أي ضرر يترتب على ذلك. بل من الضروري أن أؤكد إنه من منطلق الرغبة في رأب صدع ذاكرة الأفراد وتقديم صورة متنوعة للقصة فإني قد سمحت لأخطاء الكتَّاب السابقين بتوجيهي؛ فنجد الحقيقة والخيال معًا في بعض المواضع. وعلى الرغم من ذلك فقد حاولت، على قدر المستطاع، وصف الأحداث عبر الالتزام الشديد بما حدث. كما إن أسماء

الشخصيات المذكورة في الكتاب حقيقية قمت بتغيير بعضها، في بعض المواضع، لأسباب معلومة.

هناك شخصٌ واحدٌ فقط ارتبط ارتباطًا وثيقًا بأحداث الكتاب رفض إجراء مقابلة معي مبررًا ذلك في لغة نصح وإرشاد وصراخ: "الجميع يريد أن ينسى وأنت تحاول أن تُذَكِّر".

* * *

يبدو أن هناك حدودًا دقيقة تفصل بين النظرة إلى حدثٍ ما يستلزم النسيان وبين نفس الأشياء التي يجب تذكُّرها والتذكير بها مرارًا وتكرارًا كالأخطاء البشرية مثلًا التي نتعلم منها الدروس المستفادة والذكريات غير اللطيفة التي نميل إلى كبتها؛ لكن ليس الأشخاص العزيزون علينا أو الواقع الخاص الذي عملوا فيه؛ فهؤلاء سيبقون في ذاكرتنا دائمًا وسينيرون دروبنا في المستقبل.

أود أن أتقدم بخالص الشكر لكل من ساعدني على إصدار كتابي هذا لعائلات الضحايا التي استقبلتني بحبٍ شديد وشجَّعتني على مواصلة الكتابة (وعرضوا تقديم الدعم المالي في بعض الأوقات من أجل إصدار الكتاب)، ولكل الناجين من ضباط السفينة وقادتها الذين كرَّسوا لي من وقتهم؛ وكذلك لرجال جيش الدفاع الإسرائيلي بمختلف مناصبهم، ولقيادة القوات البحرية، ولـــشمعون فيشر الذي صاحب عملية الكتابة من بدايتها وكانت ملاحظاته مفيدة وفي موضعها، وللمساعد أول المحبَّب لنا جميعًا كلايمونت، (اليوم نقيب احتياط) الذي لم يرفض لي طلبًا أبدًا ولم يدَّخر جهدًا من أجل مساعدتي في عملي؛ ولقائد المدمرة مقدم (احتياط) شوشان، ولكل الآخرين الذين لم أذكرهم

سهوًا، وأخيرًا للبروفسور أدير كوهين الذي قام بتجهيز الطبعة الأولى من الكتاب للطباعة.

وبألمٍ شديد نتذكر أربعة ناجين من المدمرة فقدوا حياتهم في ظروف قاسية جدًا: الرقيب «جودل جورج» الذي سقط من فوق سطح المدمرة «يافا» ومات غرقًا في الذكرى السنوية الأولى لإغراق المدمرة «إيلات» ليلة ٢١ أكتوبر ١٩٦٨، ولم يُعثر على جثته إلى اليوم؛ والمساعد «مائير زلطا» الذي احترق حتى الموت هو وبعض أفراد أسرته عشية عيد الفصح، ربيع ١٩٦٩؛ والملازم أول «يعقوب باراك» الذي قتل في انفجار شاحنة ذخيرة في القاعدة البحرية في إيلات؛ والمساعد «حييم بكر» الذي مات في ريعان شبابه بعد إصابته بمرضٍ عضال. ليكن هذا الكتاب شمعة مضيئة لذكراهم جميعًا ولجميع قتلى المدمرة.

موشه ليفي

سبتمبر ١٩٧٩

مقدمة الطبعة الثالثة

تكون طبيعة الحدث التاريخي الموثَّق مفيدة عندما يتميز بالحيوية والديناميكية حتى مع مرور الوقت، فحتى بعد مرور مئات السنين يظل الحدث حيًا متجددًا، يتنفس من جديد مكتسبًا معانٍ جديدة؛ أحيانًا تتحطم الأشياء التي لا يمكن المساس بها، أو يتم تهميش شخصيات رئيسية فيها لصالح شخصيات لم تكن مهمة أو معروفة من قبل.

الأهم من كل ذلك، هناك حاجة إلى تخصيص بعض الكلمات عن مثل هذا التجديد فـ«إليعازر بن يائير»[٢] على سبيل المثال يتم تناوله في الوقت الحالي بشكلٍ فاتر؛ لأن النقاش حول أعماله التي قام بها قبل ألفي سنة يدور وفقًا لمعايير اليوم. ومثله الجنرال «إدوارد لي» الذي كان بطل الأمة الأمريكية على مدار مائة وخمسين سنة ثم فقد رونقه فجأة وأدت رغبة المواطنين في تحطيم تمثاله إلى اندلاع أعمال شغب وإصابة الكثيرين في فيرجينيا. في ضوء ذلك لا يكون التجديد عملًا من المبررات أو وجهات النظر التي تبدلت؛ فالتجديد بخلاف ديناميكيات أخرى للحدث التاريخي هو شيء حقيقي متدفق كان موجودًا لم يسعَ أحد للتعرف عليه.

ومنذ صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى والأخبار والمستجدات عن هذا الحدث لم تتوقف عن التدفق إليَّ؛ فقد علمنا فجأة هوية الشخص الذي استقبل

---

[٢] من نسل حزقيا الجليلي، من زعماء العصيان ضد الملك هورودوس وابن يهوذا الجليلي من مؤسسي الفلسفة الرابعة التي اعتبرت أن الإله هو الحاكم الأوحد، وأن الحاكم الأجنبي ليهوذا غير مقبول.

إشارة الاستغاثة الأولى التي أرسلناها في تلك الليلة المصيرية. كما علمنا بإصابة بعض من قاموا بإنقاذنا وهم في ذروة عملهم. وعلمنا بالفتاة التي وُلِدَت لحظة الغرق وسميت «إيلات». أو على العكس، كيف وصلت جثامين ستة من قتلى المدمرة، بفارق دقائق، إلى ساحل بورفؤاد المصري بعد «رحلة» استغرقت عشرة أيام بين الأمواج؛ وبالأعمال البطولية وحُسْن تصرف البحَّارة الذين لم نعرف عنهم شيئًا في ذلك الوقت مثل الملازم أول «ناتان ماتوقي» الذي ورد ذكرة في الكتاب بأنه هو الذي قام بتنظيم عملية الغناء في المياه وأبطل منظومة قنابل الأعماق في مؤخرة السفينة في اللحظات الأخيرة تقريبًا. إن مجرد التفكير في انفجار ٢٤ قنبلة أعماق دَفْعَة واحدة ونحن في المياه لأمر يقشعر له بدني حتى يوم.

وقبل سنوات طويلة تلقيت مكالمة مثيرة للدهشة من ضابطٍ كبير في سلاح البحرية عمل في الكلية البحرية في «ويست بوينت» بالولايات المتحدة الأمريكية تحمل خبرًا مزلزلًا: "إن قائد الزورق الذي أغرقكم موجود معي في الدورة التدريبية، فهل ترغب في توجيه سؤال إليه؟"

وكذلك عندما ظننت أني أعرف كل شيء علمت – بعد مرور خمسين سنة تقريبًا من وقوع الحادث – بقصة العريف «براخا (ليخطنبرج) أطينجر» المثيرة للإلهام التي روت لي حكايتها على مدار ساعتين كاملتين: كانت براخا في ذلك المساء المصيري، وعلى غير المنتظر، بمفردها في القاعدة الجوية بالعريش، بدون قائد مناوب أو ضابط عمليات. تلقت خبر الاعتداء بعد ساعة من وقوعه فبدأت على الفور تنسِّق عمليات الإنقاذ، وكانت في نفس الوقت على اتصال بالجهات ذات الصلة. كما بادرت ببناء مستشفى ميداني ارتجالي في «هَنْجَر» القاعدة

(الذي تم نقله بأمر قادتها إلى شاطيء «رُمَّانة»؛ حيث نُقل إليه الجرحى والناجون أولا). قامت «براخا» بتنظيم عملية الإخلاء والنقل البري لأكثر من مائة ناجٍ، وعندما وصلنا إلى القاعدة في ساعات الصباح الأولى، بعد متاعب تلك الليلة، سمحت لنا بإجراء المكالمات الهاتفية المأساوية مع بيوتنا، كلٌ في دوره. فعلت كل ذلك في تلك الليلة بمفردها في معظم الوقت، وبدون مساعدة أحد (باستثناء جنود القسم الفني الذين كانوا في مناوبة في القاعدة فعملوا مع المروحيات التي أحضرت المصابين وقاموا بتزويدها بالوقود). وهذه فرصة لأتوجه إليها بالشكر باسم جميع الناجين.

وأتوجه أيضًا بالشكر العميق لــ«ماتي عالمة» المحررة الأدبية التي لم تتخلَ عن الإيمان بالكتاب وبادرت بإصدار الطبعة الحالية. وأشكر كذلك زوجتي «راحيل» التي رافقتني في جميع المحاضرات التي ألقيتها في أنحاء البلاد؛ فهي تحرص دائمًا على التواجد معي في القاعة من منطلق الشعور بالمسئولية، من أجل إنجاح اللقاء، والاستماع مرارًا وتكرارًا لتقول بعد كل محاضرة وبكل جدية: "كانت محاضرة مثيرة للاهتمام سمعت فيها أشياء جديدة".

وبهذه المناسبة أيضًا أعتذر لأبنائي: روعي وموران وشاني عن تحول هذا الحدث الرئيس في حياتي – ربما في غير مصلحتهم – إلى نقاشٍ متكررٍ وممل في كثير من اللقاءات العائلية، في قصة فقدت عنصر التشويق، فلهم ولزوجتي أرسل خالص المحبة والتقدير.

موشه ليفي

سبتمبر ٢٠١٧

رسالة إلى القاريء المصري

في شهر أكتوبر من عام ١٩٦٧ أنزل الجيش المصري كارثة شديدة بي وبأصدقائي. وبعدها بست سنوات وفي الشهر نفسه من عام ١٩٧٣ كان الجيش المصري سببًا في كارثة أخرى على دولتي كلها سقط فيها آلاف الضحايا والمعاقين، وتركت شعبًا ممزقًا يترف دمًا؛ فانشغلنا كثيرًا في تضميد جراحنا، و لم نفكر في جراحكم أنتم أمةً وأفرادا.

إن الحرب لشيء بشع ومقيت تُبادرُ بها أحيانًا وتُفرض عليك أحيانًا أخرى. لكن سواء كنت على الجانب المبادر بالحرب أو على الجانب الذي فُرضت عليه؛ عليك أن تكون الأفضل لتنتصر. وهناك مقولة شهيرة للشيخ محمد بن راشد حاكم إمارة دبي يقول فيها: "لا يهمني إن كنت أسدًا أو غزالا، ما يهمني أنه يجب أن تبدأ بالركض منذ أن تستيقظ". وهذا ما نفعله جميعًا منذ ثلاثين سنة تقريبًا، لقد ركضنًا سريعًا لدرجة أننا لم نرَ دروب الدم التي خلَّفناها وراءنا، و لم نتوقف كي ننظر في عيني طفل يتيم، أو نستمع إلى عويل الأرامل.

إن الحروب صنيع زعماء قد يخوضونها لأهدافٍ يفرضها عليهم الزمان والمكان، وأحيانًا بسبب لحظة ضعف، وأحيانًا أخرى من منطلق قراءة خاطئة للمشهد. لكن فقط الحدَّاد الذي صنع السيف هو وحده القادر على تحطيمه؛ فهو يحتاج إلى إرادة قوية وشجاعة كي يدمِّر ما صنعته يداه بعد كل ما بذل فيه من جهد وقوة ومال.

في عام ١٩٧٧ كان في منطقتنا حدادن عظيمان هما: الرئيس أنور السادات ورئيس الوزراء مناحم بيجن طيب الله ثراهما، اللذان كانا يملكان الشجاعة والإرادة لتحطيم هذا السيف. ومنذ ذلك الحين وينعم شعبانا بسنواتٍ طويلة من السكينة والهدوء.

أنا لا أرجو منكم ثناءً على هذا الكتاب، ولا أهدف إلى المكسب المادي بالطبع؛ فقبل ٥٣ سنة ضغط أخٌ لكم على زرٍ فجعل زملائي يصطلون في نار الجحيم؛ فأصبح هذا اليوم عيدًا للقوات البحرية المصرية. لكن على الجانب الآخر خلقت ضغطة الزر هذه أناسًا لا يملكون يومًا واحدًا في السنة؛ فلايزال صوت هذا الزر يدوِّي في آذانهم بشكلٍ يومي منذ ٥٣ سنة.

لو قررت يا جاري العزيز قراءة كتابي هذا فلك مني جزيل الشكر، وأتمنى أن تضع بقايا السيف المحطم الذي تركه لنا الأولون في خزينة حديدية، وأن تبذل قصارى جهدك لئلا يصنع آخرون غيره. وأقسم أن هذا هو ما أعمله منذ ٥٣ سنة وسأواصل عمله حتى آخر يوم في حياتي.

موشه ليفي

يناير ٢٠٢١

تقديم

يعرض موشه ليفي في الكتاب الذي بين أيدينا، وربما أكثر من أي عرضٍ آخر تناول سفينة القوات البحرية «إيلات»؛ للجانب الإنساني في حياة السفينة في أعظم أوقاتها وكذلك في أحلكها قبل غرقها تحديدًا.

تستمد الحياة اليومية الاعتيادية في السفينة، من وجهة نظر أحد أفراد الطاقم الذي حارب حرب وجود في داخل بيئته المزدحمة؛ قوة كبيرة في ظل حقيقة محدودية ساحة الأحداث على سفينة أبعادها ١١٠ مترًا طولًا، و١١ مترًا عرضًا تقريبًا. فأنت تنام وتأكل وتعمل وتقاتل وتُصاب وتُقتل في نطاق هذه الأبعاد، في الوقت الذي تكون مطالبًا فيه في كل لحظة من حياتك بإثبات ذاتك؛ فضلًا عن كونك لن تنعم أبدًا بأي لحظة هدوء أوخصوصية مع ذاتك. إنه «الجحيم» على ما يبدو في حياة السفينة بالنسبة لفرد الطاقم؛ فإما أن تتغلب وتسيطر عليه في ذلك الحين، وبمجهود متواصل ومستمر سيكون هناك معنى لحياتك على السفينة؛ أو أن تستسلم للضغوط الاجتماعية ولبيئتك المحيطة؛ وقتها لن تجد مكانك بين هذه المجموعة من الرجال. فطاقم السفينة الذي يقوم بتشغيل آلة الحرب هذه هو مَن يمنحها حياتها وقوتها حتى اللحظة الأخيرة عندما ترتفع مقدمتها نحو السماء، وبعد أنين احتضار مستمر تنزلق إلى الأسفل نحو أعماق البحر. وحتى أثناء هذا الموت الأخير تطلب السفينة قربانها فتأخذ معها بعض أفراد طاقمها إلى الأعماق.

رغم كل ذلك فهناك تعزية كبيرة لفرد الطاقم الذي يخدم على القطعة البحرية؛ فالصداقات الوطيدة وكرامة الإنسان تولد وتزداد متانة في تلك

الظروف أكثر مما يمكن رؤيته في أي ظروف أخرى. فالشخص الذي تجرفه أمواج حياة السفينة مرة وينجح في التكيف معها والتحكم فيها سيخوض تجارب إنسانية ستظل محفورة في أعماق وجدانه حتى مماته. وتعدُّ هذه التجارب أكبر تعزية يمكن أن يحصل عليها أحد أفراد الطاقم.

لقد كانت الدروس المستفادة من غرق القطعة البحرية «إيلات» بكل قسوتها سواء في الحرب أو في مجابهة قوى الطبيعة؛ نقطة تحول لدى القوات البحرية وجيش الدفاع الإسرائيلي بالنسبة لعملية القتال في البحر. فنظرًا لظروف دولة إسرائيل البيئية الفريدة من نوعها؛ يتوجب على التجهيزات العسكرية والتدريبات والنظريات القتالية لسلاح البحرية أن تكون حديثة ومفيدة ومتطورة للغاية.

لقد استوعبنا دروس الماضي وليس لديَّ أدنى شك في حدوث ذلك في المستقبل؛ فإذا قمنا بتطبيق الدرس المستفاد من القطعة البحرية «إيلات» ونضال طاقمها القتالي العظيم فسيكون في ذلك نوع من التعزية والمواساة لأسر الضحايا ولكل من هو مرتبط بالسفينة وبطاقمها.

لقد قام موشه ليفي بعمل عظيم من خلال تخليده لأهم جانب بالنسبة للقطعة البحرية «إيلات» وهو «الجانب الإنساني» فله كل التقدير على ذلك.

لواء (احتياط) بنيامين تِلِ – قائد سلاح البحرية

سبتمبر ١٩٧٢– سبتمبر ١٩٧٦

القسم الأول

الانتقال

الانتقال إلى المدمرة

كان يوم الارتحال في نظري دائمًا عبارة عن مجموعة من الصور والمواقف المرتبكة وغير المنظَّمة دون وجود أي رابط نفسي أو فكري بينها، كما لو أن أحدًا قد حاول دون جدوى تعويم سفينة ورقية فوق فروع أشجار طفت من الأعماق ... وكلما حاولت اكتشاف شيئًا أكثر منطقية في الصورة، وإيجاد الترتيب الصحيح لأجزائها كلما زادت الفجوات التي تمنع استكمالها.

إن تشابك الأحداث الذي يتكشف أمام عيني مكون أولًا من حقيبة الأغراض الموضوعة بجانبي على الرصيف. تأتي بعدها نظرتي إلى الكتلة السوداء البشعة البارزة من المياه، والرافعة، والجنود المسرعين نحو الميناء ومنه، وصخب المطارق، وإصراري الشديد مرة أخرى على الانتقال رغم كل ذلك إلى السفينة حتى بعد هذا الانطباع الأول.

كان ذلك في الحقيقة عشقًا من النظرة الأولى، عشقٌ لم أشعر به من قبل تجاه أي فتاة في العالم، وكلما اقتربت منها أكثر – إلى المدمرة – زاد فضولي. عرفت أن تلك "النشوة" مختلفة وليست إلى زوال. أردت التنهد تنهيدة ارتياح من فرط السعادة، ذلك لأني قد وصلت إلى "نصيبي"، فمن الآن سيصبح لخدمتي العسكرية مذاقٌ. أردت نهب الثلاثين مترًا التي ظهرت أمامي ركضًا ... لكني تبدلت فجأة، فقد كنت أحلق في عالم آخر تقريبًا، وكدت أنقطع عن الروتين الذي أحاط بي إلى اليوم، ثم تحرك شيء ما في داخلي وأرَّقني؛ فقد بدأ الصراع في السيطرة مؤرقًا إياي بشدة. فهل كانت الخطوة التي اتخذتها خطوة ذكية؟

أليس من الحماقة ترك الجنة في حيفا والانتقال إلى جهنم المشهورة بسوء سمعتها في السلاح؛ إلى «المدمرة»؟

قطرات غزيرة من العرق غطت جبيني فتوقفت عن السير لوهلة ووضعت الحقيبة على الأرض بجواري. كنت أخشى تلك اللحظة؛ أسوأ لحظة: لحظة الأزمة. أدركت أن كل شيء سيفقد مذاقه على الفور وسيتبدد ويضيع. أدركت أنها لحظة الحقيقة ولا يجب الانهزام فيها. انتابني خوف .. خفت من نفسي .. ومن الناس الذين أوشك على مقابلتهم .. ومن الحياة في البحر". "لا يجب" قلت في ذهني سارحًا بنظري في البحر الكبير، وأنا أتذكر شوقي وقراري المستقل وموافقتي الحرَّة على هذا اللقاء. أدركت وقتها أني لن أستسلم. أدركت أنه خوفٌ مؤقت.. ندمٌ مؤقت .. خوفٌ من المجهول ... تساقطت قطرات العرق من فوق جبيني مقتحمة عينيَّ لتشوش رؤيتي؛ فتجاهلت تحذيرها. وكانت الكلمة الأخيرة التي سيطرت على وعيي بشكل كامل: "تجلَّد، تجلَّد .."

مسحت وجهي بحركة واحدة من يدي كمن يحاول أن يطرد كابوسًا ويودع الماضي، أردت أن أسير على السفينة وأنا نقيٌ طاهر، شخصٌ جديد بدون أي تناقضات. حملتُ حقيبتي ببطء وواصلت الصعود. توجهت الأنظار نحوي فور صعودي سلَّم السفينة. كان البحارة قد علموا بقدومي "أحد الحمقى الذين قرروا التخلي عن حياة الراحة في حيفا والانتقال إلى سفينة «إيلات» الحربية". بدأت الملاحظات اللاذعة تنطلق مع دخولي حجرة الجنود المشتركة في فصيلتي:

"ها هو الأحمق" ألقاها أحدهم.

"مريضٌ نفسي آخر"، اتفق معه آخر.

"لنرتب له حفل استقبال يا أصدقاء!" اقترح ثالث.

انتابتني قشعريرة. وعن غير قصد تذكرت قصة الشاب الذي انقض عليه بعض البحارة فور دخوله السفينة، في ذات اللحظة تمامًا، وأخذوا منه حقيبته وألقوا به في البحر بملابسه. ومن حقيبة كانوا قد أعدوها رموه بالبيض والطماطم الفاسدة والبطاطس العفنة وبقية الخضروات. وعندما تخلصوا من كل بضاعتهم ألقوا إليه بحبلٍ طويل ساعده على الصعود إلى سطح السفينة. وأنهوا "حفل الاستقبال" بالتحلية فقاموا بمسح وجهه بالجبن الأبيض.

جرى الحفل على خلفية أصوات ضحك شديد، وصرخات المعركة، وشتائم بقية البحارة. بادر إلى ذهني ما إذا كان عليَّ أنا أيضًا تجربة الغمر في المياه واختبار القاذورات. لم أكن أعلم "القوانين"، لكني أدركت أن وضعي مختلف بعض الشيء فأنا مستجدٌ على السفينة حقًا؛ لكني لست مستجدًا في الجيش — وهذا فرقٌ جوهري".

"سافِلٌ" قال همجي منهم. أما الآخرون فلم أشاهدهم. سمعت فقط أصوات ضحكهم وسخريتهم، كما لو كانت تأتي من بعيد. عرفت أن ذلك سيحدث لي أيضًا. لقد كنت الحالة الأولى من نوعها؛ فكل جندي تقريبًا على المدمرة كان قد طلب ترك السفينة، مفضلين الذهاب إلى حيفا، إلى "القاعدة الهادئة" كما كان يُطلق عليها حينها، ورُفضت جميع طلباتهم.

كما لم يحدث أن تخلى أحد الجنود عن تلك الفرصة الذهبية للخدمة في تلك القاعدة ثم طلب الانتقال إلى أحد أسوأ الأماكن في سلاح البحرية. كان غضبهم

واضحًا ومفهومًا؛ لكنني أحسست أنه إذا لم أجتز بنجاح عملية الاصطلاء بالنار هذه فإني سوف أتعرض للأذى طوال الوقت. فتوجهت إلى الشاتم الذي بدا أنه هو الزعيم فنظرت إليه نظرة قوية. لم تكن نظرة استفزاز لكنها نظرة تردعه هو والآخرين عن أي تفكير سيء. فجمدت ابتسامته الساخرة، وحينها هدأت ضحكات الباقين، ثم ساد الهدوء. عرفت أني نجحت، واجتزت أصعب شيء: السخرية العلنية. الآن ستصبح الأمور أسهل بالنسبة لي.

نظر إليَّ فجأة وجهٌ ملطخٌ بالهباب لبحار أشقر، يبتسم بتشنج من على فراشه بالقرب من مدخل الحجرة. لقد علم هو أيضًا من أين جئت لكن أظن أنه كان الوحيد الذي لم يشترك في حفل الضحك والإهانات. كانت عيناه زرقاوين وعميقتين اخترقت نظراتهما روحي. غمز لي في نزوانية غمزة خبيثة فيها شيء ما، شيء فريد ومختلف كما لو كان يود التودد إليَّ. كنت أحتاج بشدة في هذه الحالة المعنوية التي كنت فيها ذلك الوقت؛ إلى تعبير ودود لأي شخص. وكانت تلك الغمزة أيضًا تكفيني. وعلمت أنه سوف يصبح فيما بعد صديقًا حقيقيًا لي، فبادلته ابتسامة عريضة.

شرعت في إفراغ حقيبتي وفي ترتيب أغراضي فوق فراشي. كنت لا أزال أشعر بالنظرات التي تخترق ظهري كسهام مسمومة. وظننت أن عليَّ الاندماج سريعًا في الحياة الاجتماعية، وأن أصبح فردًا منهم. لو أني كنت فقط في حالة مزاجية مناسبة ربما استطعت البدء في ذلك الآن.

عملت ببطء ظنًا مني أنه إذا قمت بترتيب أغراضي على عجل فإن ذلك سوف يظهر لحظات ضعفي. كنت لا أزال أخشى من "حفل الاستقبال" الذي

لم يحدث. هل ينتظروني جميعًا في الخارج؟ وأي استقبال يُعدُّون لي؟ كنت قبل مجيئي قد درست كافة الاحتمالات التي يستقبلون بها الجندي المستجد. فقد سمعت عن ذلك الفتى الذي "جعلوه يُوَقِّع" على المدخنة فور وصوله، وفي كل مرة يتصاعد الدخان منها يصرخون فيه ويطلبون منه تنظيفها زاعمين "عن حق" أنه المسئول عنها ... تذكرت أيضًا .. تذكرت جيدًا قصة البحار الجديد الذي اتهموه فور وصوله المدمرة بخيانة قانون البحارة المقدس وأنه هرب من السفينة قبل أن يصل إليها. وجلس مسعف السفينة، الذي تنكر في صورة ضابط، على أنه القاضي وبجانبه "شرطيين" آخرين. كما عينوا له "محام"؛ لكن جهود "المتهم" الذي زعم بصوت مستكين أنه قد جاء عندما كان عليه المجيء، و"الدفاع" الذي طالب المحكمة بالرحمة؛ باءت جميعها بالفشل وحُكِم على "المتهم" بالإعدام، فحبسوه ثلاثة أيام في مخزن ضيق نتن، ثم أخبروه بعدها بالحقيقة مع إبداء ملاحظة ودودة بأن هذا "المقلب" أبسط من المقالب الأخرى، مع إشارة واضحة إلى أنه من الأفضل له أن يتقبل ذلك بود وأن يصمت. غير أن ذلك الفتى لم يلتزم بذلك طويلًا وخلال مهمة بحرية في خارج البلاد .. بعدها بعدة أيام .. وبعد عودته من مساء ترفيهي في ميناء «بيرايوس»[٣] أخبر المسعف أنه يخشى أن يكون قد أصيب بمرض جنسي. طلب منه المسعف رؤية الموضع، فخلع الجندي ملابسه.

---

[٣] مدينة يونانية في منطقة أتيكا الإدارية تقع على بعد ٩ كيلومتر جنوبي العاصمة أثينا. تاريخياً كانت ميناء مدينة أثينا القديمة وهي ما زالت تلعب هذا الدور في الوقت الحالي حيث تعد بيرايوس مركز صناعي مهم ومرفأ للشحن والتفريغ.

وما لم يعلمه المسعف في تلك اللحظة أن الفتى كان قد منع نفسه من التبول طيلة اليوم، ولحظة الانتقام التي كانت تملؤه قد أعطته القوة المطلوبة فما أن مال المسعف لفحص "التقيحات في عضوه التناسلي" حتى تخلص الجندي من كل الضغط الشديد الذي تحمَّله طوال اليوم وهو يقول للمسعف أنه من الأفضل أن يقبل هذا الانتقام بود وأن يصمت.

لقد كانت المدمرة بالنسبة للذين لم يذوقوا طعم البحر المكان الذي تستطيع النخبة فقط الخدمة فيه. عملٌ شاق .. انضباطٌ شديد .. صرامة البحارة أنفسهم .. التكدس في الحجرات .. والإبحار المتكرر. كل ذلك قد منح القطعة البحرية «إيلات» اسمًا مفزعًا. وكان كل جندي يحاول الابتعاد عنها قبل انضمامه إلى سلاح البحرية. لكن في الحقيقة كل شيء بدا مختلفًا عن قرب: الواقع الفريد .. روح الطاقم .. معاملة سفينة القيادة .. والتجارب اليومية التي كانت من نصيب الجنود، كلها جعلت الحياة فيها مثيرة ومرضية. وهناك شك كبير في أن تكون طلبات النقل الكثيرة التي تلقتها القيادة كانت نتيجة الضغط الكبير الذي عاشه الجنود. ربما الشهرة التي حصلت عليها القاعدة البحرية في الكرمل – القاعدة التي أتيت منها – هي التي جذبت الكثيرين منهم للقيام بأعمال مختلفة من أجل الانتقال إليها. فالقصص التي تم تدوالها عن الحياة في القاعدة مع الجنديات قد ألهبت الخيال ونسجت أساطير عن أيام السبت التي تتحول فيها القاعدة إلى «ماخور» عسكري. في الحقيقة، كان الروتين هناك يثير الغضب .. القليل من الانضباط .. الضجر .. اليوم يلي الآخر واليوم يشبه اليوم الذي سبقه. كانت هناك بالفعل غراميات بين الجنود والجنديات لكنها لم تكن تشبه القصص الجنسية التي انتشرت بين الكثيرين نهائيًا. فالحسناوات لم تسرن

هناك بأعداد كبيرة، كما أصبحت كل جندية، حتى البشعة للغاية، ملكة جمال في ظل عدم وجود بديل جيد آخر.

وفي المقابل انتشرت الشائعات والحكايات عن حياة السفينة القاسية .. وعن المهام البحرية المرهقة للأعصاب .. وعن "الإجازات المساءية" القليلة .. وعن الانضباط الشديد. لذلك كان يفضل هؤلاء الموجودون في القاعدة البحرية الروتين والضجر على الحياة الشاقة. لهذا السبب اندهش الجميع من رغبتي في الانتقال والخدمة على المدمرة. وكنت قد أجبت عن سؤال الرقيب أول في القاعدة البحرية برد لم يشبع رغبته: "أنا أبحث عن المغامرة". (وفيما بعد، عندما وصل خبر غير صحيح عن وفاتي في عملية إغراق السفينة قال الرقيب أول في سخرية مفزعة: "بحث عن المغامرة وحصل عليها") ...

يوضح الموقف التالي إلى أي مدى كان يخشى الجنود الانتقال المفاجيء إلى المدمرة: ذات ليلة ضُبط أحد جنود القاعدة وهو نائم في مناوبته. فحوكم على الفور في صباح اليوم التالي وكانت العقوبة التي حصل عليها شاذة بعض الشيء: تمضية أسبوعين على متن المدمرة "إيلات"؛ فغضب الجميع من "قسوة" القائد، لكن هذا الحكم ردع الآخرين وانخفض عدد غير المنضبطين وقتها. لهذا السبب يمكننا تفهُّم سخرية هؤلاء الذين بقوا هناك في الأعلى – في القاعدة البحرية –، وكذلك غضب بحارة السفينة الذين استقبلوني. وكنت قد علمت عند تركي القاعدة أني سأكون في السفينة محل سخرية وكراهية، وأني سأضطر إلى دفع ثمن ذلك إن آجلًا أو عاجلًا، وأن الموقف الذي سيتم التعبير فيه عن الكراهية الشديدة تجاهي قد يحدث في أي وقت. وبالفعل لم يتأخر.

هببت ذات صباح، بعد أيام معدودة من وصولي، لأحصل على العمل الذي سأكلف به مبكرًا عن المعتاد. فدفع إليَّ رقيب الفصيلة «فريشر ناتان» علبة دهان وفرشاة وكلفني بالانتهاء من دهان سطح السفينة الذي عليه الأعلام حتى وقت الظهيرة. كنت أحب تلك اللحظات في الأعلى فالبحارة مايزالون منشغلين في تناول إفطارهم وأنا هنا بمفردي وكل البحر الممتد أمامي .. ملكًا لي .. لم أكن قد اندمجت بعد في الحياة الاجتماعية في السفينة، وكان أصدقائي الحاليون هم الأمواج وسفن الصيد الكثيرة في المنطقة. كنت قد بدأت في دهان شريط الألوان الثاني عندما سمعت أصواتًا بجانبي. رفعت رأسي ورأيت فوقي بحارًا من فصيلتي بصحبة فتى آخر لا أعرفه.

"ماذا تفعل هنا؟" سأل.

"كما ترى عيناك" أجبته وأنا أغمس الفرشاة في علبة الدهان.

"أتعاني من الأرق؟" كانت لهجته مثيرة للغضب.

"كلا". أجبت.

"ألم يعلموكك، هناك في الأعلى(٤)، الحديث يا حشرة؟" وبدت السخرية واضحة في صوته.

بدأ الغضب يغمرني، وكان التوتر الشديد قد تملَّكني في الأيام الأخيرة مما أثَّر على أعصابي. فنهضت ببطء.

---

٤ المقصود القاعدة البحرية في حيفا.

يجب أن أجتاز هذه المواجهة أيضًا باحترام، كان ذلك ضرورة الواقع الذي يميز كل مكان جديد مزدحم ومغلق، تكون الحياة فيه مع مجموعة من الرجال فقط.

"اسمع!" قلت مهددًا. "لستُ مُطالبًا بأن أقدم لك تقريرًا عن أعمالي، وأنا لا أكترث بك نهائيًا"

لم ينتظر ذريعة أخرى كي يترل على وجهي بصفعة مدوية؛ فكان ردي سريعًا حيث دفعت الفرشاة في علبة الدهان بسرعة فاجئتني أنا أيضًا، وسكبت كل محتوى العلبة على وجهه بقوة كبيرة. فانحنى وتراجع. وبدأ صديقه الذي وقف بجواره طوال الوقت في الابتعاد. جاء رقيب الفصيلة مسرعًا، وعلى الفور بدأ جنود آخرون في التجمع من كل اتجاه، وكأنهم كانوا يراقبون طوال الوقت ما يحدث من مخبأهم، وتلقوا الآن إشارة الانضمام. استطاع «فريشر» الإمساك بيديه قبل أن يحاول ذلك الشخص مرة أخرى. وقفت وأنا ألهث والدهان يسيل من الفرشاة على السطح. غير أن تعبيرات وجه «فريشر» بعثت الهدوء في قلبي فمن الواضح أنه فد أدرك من بادر بهذا الحادث.

"ملعون، ملعون!" قال لاعنًا بصوت مرتعد، فقد بدأ الدهان المخلوط بمادة حارقة يلهب وجهه. دمعت عيناه ثم أُغلقتا تمامًا، وحاول تنظيف وجهه من السائل الغليظ دون جدوى.

"سوف ترى!" قال متوعدًا. أدركت أن الجميع حولي يصغي بشدة لذلك رددت في هدوء: "يمكنك المحاولة الآن".

كان مكان إقامتنا المشترك يقع أعلى حجرة الماكينات، لذلك كانت تضايقنا دائمًا الحرارة الشديدة التي ملأته. وكان التكدس الكبير فيه يضايق أكثر. المكان ينقسم إلى ثلاثة أجزاء طولًا، وفي كل جزء عدة أقسام تتدلى منها أسِرَّة شبيهة بالأرجوحات المعلَّقة فيها في ثلاث طوابق. لقد تم استغلال كل مليمتر؛ ففي الصف السفلي تم وضع الأسِرَّة فوق صناديق خشبية لها استخدام مزدوج حيث تستخدم كمنضدة أثناء الوجبات، وبين الوجبات تستخدم كـــ"خزانات" للأغراض الشخصية. وكان الفراش الموضوع فوق "الخزانة" يتأرجح بشكل أقل من الذي فوقه، أما الآخرى فقد كنت تشعر فيها باهتزازات السفينة؛ فهي معلقة بحبال غليظة وحلقات. ومن ناحية أخرى كان يستمتع الذين ينامون بالأعلى بميزة مهمة أخرى: تدفُّق النسيم البارد عبر فتحات يمكن توجيهها من أنبوب هواء يمر فوقهم. أما أنا، حيث كان فراشي في المستوى الأسفل، فقد كنت أعاني في الليل من شدة الحر ومن التعرق والاختناق وهو ما كان يؤرق نومي. استيقظت أكثر من مرة مبللًا يغطيني العرق؛ فكنت أسرع إلى الخروج إلى سطح السفينة لاستنشاق الهواء البارد. ذات مرة وفي إحدى الليالي الثقيلة تحديدًا، وفي ذروة مهمة بحرية تدريبية قررت حمل البطاطين والعثور على ركن أنام فيه على سطح السفينة. وبالفعل أدت الرياح اللطيفة التي هبت، وإرهاقي الشديد مهمتهما وسرعان ما استغرقت في نوم عميق. واستيقظت بعد عدة ساعات على وقع اهتزاز مفاجيء بفعل موجة عالية لكني لم أستطع الحركة فقد تجمدت أعضائي تقريبًا. قمت بتدليك مفاصل يدي ببطء لأعيد تدفق الدم فيها، ثم عدت إلى فراشي وأنا شبه متجمد موبخًا نفسي بصوت منخفض لأني لم أحسب العواقب من البداية. أما هذه الليلة فقد صممت على النوم فغدًا سيوقظوننا

مبكرًا كي نقف في نقاط الربط[٥]. سيكون هذا أول إبحار لي وتملكني شعور ما، وبدأت أفكر في الحادث الذي وقع لي هذا الصباح.

لم يتوجه إليَّ أحد في هذا الخصوص، فقد تجاهل «فريشر» ذلك تمامًا و لم يكن هناك أي رد فعل حتى من الفتى الذي تشاجرت معه (عرفت بعدها أن اسمه موندي). ظهرت آثار إصابات واضحة من آثار الدهان على وجهه استمرت عدة أيام فتمنيت أن يكون ذلك رادعًا للآخرين. تقلبت على جانبيَّ محاولًا النوم دون جدوى. كان كل جسمي مبللًا، وكذلك الفراش المغطى بمادة بلاستيكية ليس فيها مسام، ولا تمتص العرق المتدفق فوقها، بحسب وضعي. وبعد محاولات يائسة أخرى للنوم قررت الصعود إلى سطح السفينة. كان المنظر الذي ظهر أمام عيني رائعًا: جبل الكرمل، ميناء حيفا بكل سفنه، وانعكاس البيوت المتلألئ في المياه. وأصبح الميناء الذي يعج بالصخب والضوضاء طوال اليوم، يرتاح الآن في هدوء. واختفى النشاط الذي يدب فيه وحل محله الهدوء الشديد. وظهر هنا أو هناك حراسٌ مسلحون يسيرون جيئةً وذهابًا، وموسيقى هادئة تتصاعد من إحدى السفن، لتكمل صورة الجو الهادئ.

جلست على صندوق خشبي وأنا أنظر متأثرًا. قررت أنه يجب أن أصعد إلى سطح السفينة كل ليلة قبل النوم، فمثل هذه المشاهد لا يجب تفويتها. تحرك شخص طويل تجاهي من ناحية مقدمة السفينة ووميض السيجارة يلمع في يده. اقترب مني وتوقف بجانبي. "هل يوجد مكان بجانبك؟" وبسبب الظلام كان يصعب عليَّ التعرف عليه لكن الصوت كان مألوفًا.

---

٥ النقاط التي تربط فيها السفينة بالرصيف.

"تفضل"، أجبت في تردد.

جلس وبدأ يمعن النظر مثلي في أضواء المدينة. وعندما حاولت تذكر من أين أعرف هذا الصوت، قال: "ضربته بالفرشاة بقوة". "لكنه كان يستحق". مِلت برأسي نحوه في اندهاش. الآن عرفته. إنه ذلك الفتى الأشقر صاحب الفراش المعلّق بجوار المدخل.

"اسمي أريِّه"، قال مُعرِّفًا نفسه.

"موشه"، أجبته، وصافحته بحرارة. "سعدت كثيرًا بالتعرف عليك". وكنت أقصد كل كلمة.

جلسنا ساعة طويلة في صمت، مستمتعين بالنظر إلى هذا المشهد الليلي الممتد أمام أبصارنا. لم يجد أي منَّا أنه من الضروري قول شيء. بدأ شعوري السابق بأننا سوف نصبح أصدقاء يتحقق. يا إلهي! لقد كنت في أشد الحاجة إلى شخص قريب. في النهاية كان هو الذي كسر الصمت: "أخبرني!" واستمر في النظر إلى أضواء الميناء "لماذا طلبت الانتقال إلى هنا؟" لقد سُئلت هذا السؤال كثيرًا في الأيام الأخيرة. إنهم لم يستطيعوا فهم مبرراتي كما هي لذلك اضطررت إلى اختلاق قصة عن حبي لجندة في القاعدة، وعن حياتنا الصعبة وعدم استطاعتنا العمل سويًا كما ينبغي، إلى جانب ضغط المنظومة العسكرية الاجتماعية، ونصيحة قادتي باستبدال القاعدة (البحرية). هكذا فقط استطعت جعلهم يتفهمون الأمر، وفي بعض الأحيان مشاطرة الأحزان. أما الآن فلم أشعر بحاجة إلى تكرار نفس القصة. "ربما سيصعب عليك فهمي بعض الشيء. لكني سئمت من الحياة الروتينية والضجر في الأعلى فأنا أكره هذا النمط من الحياة، فقد كنت

أبحث عن بعض الإثارة لهذا السبب أنا هنا الآن، لهذا السبب فقط!" تطاير وميض أحمر من كف يده في شكل قوس كبير إلى داخل مياه البحر. "أنا تحديدًا، أفهم جيدًا"، أجاب. "فأنا أيضًا أمقت الرتابة والروتين. وما لا أستوعبه هو: لماذا لا يستوعب الآخرون ذلك". كدت أشعر بتعبير ساخر على وجهه. بذلك انتهت مجموعة الأسئلة والتوضيحات حول دوافعي، ثم انتقلنا للحديث عن موضوعات شخصية أكثر. وعلى مدار ساعة تقريبًا تبادلنا المعلومات عن أنفسنا وعن العائلة والأصدقاء، والمدارس، والآراء عن القادة.

وُلِدَ أريه في نهاية عام ١٩٤٨ في مخيم للمهاجرين في قبرص. وبعد هجرتها إلى إسرائيل أقامت عائلته في «نتانيا» حيث استقرت هناك. وأريه مرتبط بالبحر منذ طفولته حيث تعلَّم السباحة من أخيه الأكبر الذي كان يعمل مُنقذًا. بدأ التدريس في سن صغيرة جدًا في قسم الملاحة البحرية في مدرسة زفولون في نتانيا. كما تطوع للعمل في كتائب الشباب البحرية، ومن هنا مُهد الطريق أمامه للالتحاق بسلاح البحرية وبالمدمرة. تعرف في حركة الشباب، عندما كان يبلغ من العمر الخامسة عشرة على صديقته عماليا التي أصبحت خطيبته فيما بعد وأخبرني بنيته الزواج منها فور تسريحه.

هناك معلومة أخرى مهمة أخبرني بها وهي أنه يخدم معه على السفينة أحد سكان بلدته واسمه يوسي جرشون، وهو في إجازة الآن وإنهما أصدقاء جدًا. لم أتعرف على يوسي هذا، لكني تمنيت لقائه.

أخيرًا تم وضع لبنة صغيرة في مشروع صداقة.

"نقاط الربط! نقاط الربط! نقاط الربط!" دقت الأجراس. انطلقت مكبرات الصوت، واهتز المحرك بشدة وعاد كل مسمار في السفينة إلى الحياة. نحن على وشك الإبحار لمدة أربعة أيام للتمرين. وفي نقطة الربط كنت قد عرفت مهمتي وأنا أقف في توتر بجوار بكرة الحبال وحالتي المعنوية مرتفعة ومستعد للعمل. وفي الوقت المناسب قمت بمد يدي سريعًا وأمسكت بالأنشوطة التي ألقيت إلي من الرصيف وأنا أسحب بسرعة ما تبقى من الكابل وفي حذر شديد من أن أسقطه في المياه وبدأت في اللف. وقفت بعد فترة قصيرة ألهث من المجهود أمام البكرة الممتلئة وأنا أنظر إليها في سعادة شديدة. نظرت حولي فإذا بالسفينة قد ابتعدت عن مكانها بجوار الرصيف ومقدمتها متجهة الآن صوب عرض البحر.

سُمع نداء آخر في مكبر الصوت: "نداء إلى رجال الطاقم: عشر دقائق على تمرين مواقع القتال!" "وابتداء من هذه اللحظة يجب ارتداء سترة النجاة!"

تفحصت سترتي. واطمأننت إلى الأربطة التي فيها. فبعد لحظات قليلة سوف أبدأ المناوبة، وهي أول مناوبة لي في البحر. لم أكن أرغب في ترك البكرة التي تلتف حولها كابلات السفينة بدقة؛ لكن الانضباط العسكري قد أدى مهمته. فبعد دقيقة أخرى سأكون في غرفة الرادار.

كان الجو العام في داخل الغرفة مختلفًا تمامًا عنه على سطح السفينة فالتكدس والاختناق يملآنها. وكان الكرسي المستدير الملتصق بأرضيتها هو الجزء الوحيد المخصص لإنسان. فالسقف والجدران وكل جزء تقريبًا مغطىً بأجهزة متنوعة. ساد الظلام التام الغرفة، كما يجب، وكانت أنوار مراقبة حمراء فقط هي التي تضيء كل ما يجري في الأجهزة بجوار شاشة الرادار. وبأيدٍ مدربة ضغطت على

الأزرار وبدأت حجرة الرادار تنبض بالنشاط. أمسكت جهاز الاتصال الداخلي (الانتركوم) وأخبرت غرفة مركز معلومات القتال:

"هنا الرادار لقد بدأ التسلسل". «روت» جاءت الموافقة.

"هل تحتاج إلى عون في التشغيل؟" كان ذلك صوت «تسفيقا» مسئول المناوبة.

"كلا"، أجبت مبتسمًا. لست في حاجة إلى ذلك...

انتهت المناوبة في بطء شديد. استدعي رجال الطاقم مرة أخرى لإجراء تمرين في مواقع القتال. وأصبحت شاشة الرادار التي امتلأت وهي قريبة من الميناء بنشاط كبير للسفن التجارية وقوارب الصيد؛ خالية من الأهداف. كنت أقدم التقارير إلى غرفة المعلومات القتالية بشكل متواصل ودقيق كي يتمكن الرقيب المناوب من خلالها التعرف على كافة البيانات حول ما يدور في نطاق أميال كثيرة من السفينة.

عندما أنهيت مناوبتي كانت الشمس في كبد السماء وكنت أقف على سطح السفينة أتفحص بنظري وأتأثر كثيرًا بالألوان الرائعة الناتجة عن تشابك المياه بالسماء. كانت طيور النورس تحلِّق فوقنا وهي تصيح مبتهجة. والفتية الأشداء يؤدون أعمالًا بحرية مختلفة. ومكبرات صوت السفينة لا تتوقف عن النداءات. كان كل شيء مفعم بالحياة. نظرت مطولًا إلى تلك الكتلة الفولاذية التي تتنفس فأدركت مرة ثانية لماذا أردت الذهاب إلى المدمِّرة بشدة.

التأقلم

كان الرقيب كَسْبِي رجلًا في سن النضوج، ومن ورائه سنوات طويلة قضاها في الخدمة في سلاح البحرية كرقيب فصيلتنا (فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال). وكانت لـــه إنجازات خاصة في كل ما هو متصل بالقيادة والتعامل مع الجنود. ولم ينجح أبدًا وجهه الأحمر، الذي كانت تبدو عليه دائمًا تعبيرات الصرامة، في إخفاء نظراته التي يملؤها القلق على بحارته. وقدخلقت صرامته وحرصه على وجود مسافة مناسبة بينه وبين مرؤوسيه من ناحية، وحرصه الدائم الذي لا يكل على تلبية احتياجاتهم من ناحية أخرى؛ علاقة بينه وبين رجال فصيلته يتمناها قادة كثيرون في كل جيوش العالم؛ علاقة إعجاب ممزوج بالهيبة. علمت دائمًا كجندي تحت إمرته، أنه إذا كان ينقصك شيء يفترض أن يوفره لك الجيش؛ فإنه سيقاتل بكل قوة من أجل حقك في الحصول عليه، ذلك مع مراعاة أن يكون التعامل بالمثل فإذا خالف أحد الطرفين قواعد التراهة سيشعر ذلك الطرف جيدًا بشدة عقابه له.

عندما استدعيت لأمثل أمامه يوم وصولي السفينة، وجدت أمامي شخصية صارمة تبعث على الرهبة؛ لكن أثناء حواري معه الذي استمر ١٥ دقيقة، دلَّت تعبيرات عيناه على أن شعاره عن الانضباط والقيادة يقوم على الإيمان العميق بعدالة الأسلوب.

وحدث ذلك أثناء التمرين على المواقع القتالية؛ حيث كنا قد أمضينا في البحر أربعة أيام تقريبًا وهو ما أثَّر على أعصاب الكثير من بحارة السفينة. كنت أقف في نقطة استطلاع بجوار قمرة القيادة أراقب قطاعي بالمنظار وأقدم تقريري

من حين لآخر: "كنت أراقب كجندي مستجد تمامًا، وعندما جاء كسبي للوقوف على آداء جنود فصيلته ولأني كنت لا أزال جنديًا "مستجدًا" في سلاح البحرية لم أستوعب جيدًا معنى الأمر الذي أعطاه ضابط المناوبة لماسك الدفة: "يمين ١٢,٩٠ استدارة للمحرك!" فوجدت نفسي ممدًا فجأة على الأرض في زواية حجرة الاستطلاع، والمنظار بجانبي وأنا أنظر إلى ضابط المناوبة الذي لاحظ ذلك وصرخ نحو كسبي في غضب مفاجيء غير مفهوم: "أيها الرقيب! سجل ضده على الفور شكوى إهمال في معدات عسكرية!"

اقترب كسبي مني في هدوء وساعدني على النهوض دون أن يلتفت إلى الضابط المناوب وقال دون أن تتحرك أي عضلة في وجهه: "لن تُسجَّل أي شكوى". احمرَّ وجه الضابط وتطاير الشرر من عينيه فلم يكن يتوقع مثل هذا الرد ممن هو أقل منه رتبة: "ما معنى ذلك؟" سأل وهو يخفض صوته. استدار كسبي ونظر إليه نظرة جامدة. و لم يتغير اللطف الذي بدأ به من قبل حتى بعدما رد عليه قائلًا "معنى ذلك أن هذا الجندي المستجد على السفينة لم يستعد كما ينبغي لالتفاف السفينة، فهو لن يحاسب على فعل لم يكن يتوقع نتائجه مسبقًا. فضلًا عن أنه إذا أردت تقديم شكوى ضده فلتفعل ذلك بنفسك أما أنا فلم أرَ شيئًا يستحق تقديم شكوى" ...

سرعان ما أثَّر صوته النمطي وتعبيره الصارم؛ فبدا الضابط متراجعًا لكن كرامته ومكانته كانتا تأبيان ذلك: "سوف نناقش الأمر في مناسبة أخرى" قالها وعاد لمراقبة عملية الإبحار. وقفت مندهشًا وأنا أنظر إلى كسبي والضابط بالتناوب. لم أقلق على الرقيب وعلى الكلام معه في "مناسبة أخرى"؛ حيث ظننت أنه – بهذه الثقة الدائمة – سيعرف كيف يجتاز مثل هذه المواقف منتصرًا.

لم يلتفت إلى ملحوظة الضابط الأخيرة واستمر في التجول بين النقاط كما لو أن شيئًا لم يحدث. في تلك الأثناء أعلنت مكبرات الصوت عن انتهاء تمرين المواقع القتالية، وانطلق رجال الطاقم غير المناوبين إلى أماكنهم. كان ذلك وقت ظهيرة لطيف فخلع بعض الرجال قمصانهم وبدأوا الثرثرة على سطح السفينة شبه عراة. نظرت في ساعتي سيكون الغداء جاهزًا بعد ساعة تقريبًا. قررت أن أفعل مثل الجميع فصعدت إلى سطح مقدمة السفينة فرأيت فريشر هناك مع بعض الفتية يجلسون سويًا في وقت الراحة.

"موسى!" نادى فريشر عندما رآني. تعال اجلس معنا، نِل قسطًا من الشمس!"

عمل هذا الأسلوب الودود كنوع من الدواء المسكن للتوتر الذي ألَمَّ بي منذ حادثة المنظار؛ فلبيت الدعوة بسرور. "يمكنه البقاء في الظل"، قال تسفيقا في ضحكة عريضة "هناك أيضًا سيكون أكثر اسمرارًا منا". أصبح من الواضح جدًا أن تعامل بحارة المدمرة معي قد بدأ يتغير.

"أنا مستعد لتبادل الألوان في مقابل مبلغ معقول من المال"، أجبت وأنا أخلع قميصي. وإلى جانب فريشر» وتسفيقا كان هناك أيضًا من فصيلتي أبراهام قنطروفيتس واثنان آخران لم أرهما من قبل. وعندما وصلت كانوا في ذروة حديث عن حرب الأيام الستة التي كانت موضوع الساعة وقتها. لم أرغب في المشاركة في هذا الحوار فقد كنت أبحث عن الشمس والراحة. وكانت علامات الإبحار قد ظهرت عليَّ جيدًا؛ فكل عظمة من عظامي كانت تؤلمني من شدة التعب نتيجة التمرينات والمناوبات المتكررة والطويلة التي فيها الكثير من

نداءات التمرين على المواقع القتالية. أدرك فريشر أني غير مهتم بالحديث فتوجه إليَّ سائلًا: "أين تسكن يا موشه؟" والذكاء الشديد وطيبة القلب يظهران في عينيه البنيتين. لم يكن ينظر إليَّ عندما سأل ذلك، وأحيانًا نظر إليَّ مباشرة. كنت أخشى أن يأخذنا هذا السؤال إلى الوضع الذي أجد فيه نفسي أشرح مرة أخرى أسباب تركي القاعدة البحرية. كنت مستعدًا أن أجيب فريشر عن أسئلته، لكن الإطار الاجتماعي الذي كنا فيه في ذلك الوقت لم يكن ملائمًا. لذلك أجبته بصوت جاف: "طيرة الكرمل". بدا واضحًا جدًا أني كنت باردًا جدًا في ردي. و لم يكن هذا مبَرَّرًا بالنسبة له؛ فقلت مصححًا نفسي:

"هل تعرف أين تقع؟" وكان مطَّلعًا أكثر مما كنت أتصور.

"إن كان الأمر لا يضايقك" قال في جدية "إننا أمام بيتك تقريبًا".

"هل أنت جاد!" قفزت من مكاني.

"ربما أحضر في زيارة قصيرة".

ويبدو أن حركتي لفتت انتباه الآخرين فتوقفوا عن الحديث وهلة وتركزت النظرات عليَّ.

"هل تقيم في الطيرة؟" سأل قنطروفيتس. كان قنطروفيتس شابًا فتيًا قوي البنيان وأكاد أقسم أنه كان رياضيًا موهوبًا. وأول شيء لفت انتباهي فيه أكمام قميصه المطوية حتى كتفيه مبرزة عضلاته. كان أسمر اللون مبتسمًا، خفيف شعر الرأس. أعجبت به من النظرة الأولى. فحركت رأسي موافقًا.

"يا إلهي!" صاح أحد الذين لا أعرفهم.

"هل تسكن في الطيرة؟! تخدم على بعد أربعة كيلومترات من مترلك وتطلب الانتقال إلى هذا الجحيم؟! كيف يمكن استيعاب هذا؟!"

"أحمق مثلك لن يفهم أمورًا أبسط من ذلك". بدأ تسفيقا الذي كان يغفو حتى الآن شد جسمه وسأل في شبه غضب:

"ما الذي يجب أن تفهمه هنا؟ رجل ملَّ وضجرت نفسه من تكرار اليوم نفسه بشكل يومي، ضجر من مقابلة الوجوه الناعسة، العاطلة، أنا أيضًا كنت سأفعل ذلك إذا كنت مكانه".

"محقٌ بالتأكيد" تدخل قنطروفيتس وفي كلامه شيء من التلعثم.

"أنت لا تعرف الحياة هناك. فالوقت يمر هنا أسرع بكثير".

أمرٌ لا يصدق، فقد تحول مصدر تعرضي للكراهية إلى مصدرٍ للتعاطف. بدأت أتشجع. فهناك من يتفق مع ما فعلته. لكن هذا الفتى لا يستسلم:

"لكن بجوار البيت! على بعد خطوتين!" كاد يصرخ.

"هل تتحدث عن الوقت، يا رجل؟! هل هذا سبب؟!" ظهر في عينيه وميضٌ وبدا صوته هامسًا:

"كنت سأتدبر الأمر مع الوقت بشكل جيد جدًا. وأعتمد في ذلك على صديقتي التي كانت ستقصِّر لي السنتين المتبقيتين إلى شهرين".

"فعلًا. لقد كانت ستقصر عمرك"، استفزَّه فريشر. سوف ترى! فأنت ستموت في الثلاثين من عمرك أصلع الرأس"، ثم انفجر الجميع في الضحك. ويبدو أن الشاب قد جُرحت مشاعره.

"انظر" توجهت إليه. "كان ذلك سبب طلبي تقريبًا. لكنك لن تستطيع فهم ذلك إلا إذا خدمت هناك لفترة. تصور أن كل عمل صغير تقوم به يعلوك فيه عشرة مديرين، وكل جندي يتجول في القاعدة له مساعد شخصي وضابطين".

"يا له من فخر" صاح تسفيقا.

"وأنت بالتأكيد شعرت بالإهانة من ذلك. يصعب علي الآن فهمك يا صديقي، يصعب الفهم" ...

كانت عيناه باللونين الأزرق والأخضر وكانتا ترمشان في الوقت الذي كان يضحك فيه وكأنهما تنغلقان.

"أخبرني" أراد فريشر المعرفة.

"ألم يكن لديك سائق خاص برتبة نقيب؟"

اختلط ضحكهم الشديد مع إعلان مكبر الصوت: "الغداء. هنيئًا مريئًا!"

تصاعدت رائحة الدجاج المشوي من المطبخ، وكان من الصعب الصمود أمام هذا الإغواء.

شبه كارثة

شُيدت السفينة "إيلات" وفقًا للتقاليد العسكرية الخالصة: جسم نحيف (عرض ١١ متر بحد أقصى) يستفاد منه بأقصى درجة. سعتها أكثر من ١٧٠٠ طن. تحتوي على جميع المعدات والأجهزة التي جعلتها عبارة عن قاعدة عسكرية عائمة. مسلَّحة من المقدمة وحتى المؤخرة، ومن السطح السفلي وحتى قمرة القيادة. تحمل ستة مدافع مضادة للطائرات عيار ٤٠ مم لتحميها من هجمات طائرات العدو. أما المدافع الأربعة عيار ٤,٥ بوصة فلضمان أن المعركة معها لن تكون سهلة؛ حيث يصل وزن القذيفة الواحدة لهذه المدافع إلى ١٨ كجم! وإطلاق دفعة من هذه القذائف على الساحل تحوله إلى جحيم. فضلًا عن أن السفينة مزودة بأربع قاذفات قنابل أعماق لمحاربة الغواصات، وثماني أنابيب لإطلاق الطوربيدات لتكمل بناءها القتالي وتتحول إلى شبح فولاذي مرعب.

وعلى الرغم من عمرها؛ إلا أن المدمرة كانت قطعة بحرية سريعة فأقصى مجهود للمحركين التوربينين في غرفة المحركات بقوة ٢٠,٠٠٠ حصان لكل منهما؛ يصلان بها إلى سرعة تتعدى ٣١ عقدة. وخزَّاناها تسع حوالي ٥٨٠ طن من الوقود يكفيها لمسافة ٢,٨٠٠ ميل.

كانت المدمرة مُسِنَّة، شهدت على مدار سنواها الـــ ٢٥ الكثير من المشاق. فقد كانت واحدة من السفن القلائل التي بقيت من أسطول مكوَّن من مدمرات وزارعات ألغام وحاملات طائرات كانت تشكل القافلة البحرية ومن بينها السفينة الشهيرة "يوليسس" التي حملت الإمدادات في المحيط المتجمد الشمالي إلى روسيا المحاصرة في الحرب العالمية الثانية. ثم واصلت الخدمة في الأسطول

البريطاني لعدة سنوات تحت اسم "زيلوس"، وفي أكتوبر ١٩٥٦، بعد ثلاثة شهور من انضمامها لسلاح البحرية الإسرائيلي، قامت بأسر المدمرة المصرية "إبراهيم الأول"[٦] في معركة حربية.

بعدها بثلاث سنوات أبحرت «إيلات» مع تجهيزات خاصة ضمت أدوية وطعام إلى قبرص لمساعدة متضرري الزلزال هناك. كما شاركت في مهام إنقاذ كثيرة أشهرها الإبحار لانقاذ مصاب من سفينة «الثلاثة»[٧] التي ابتلعتها الأمواج في نهاية عام ١٩٦٧. وشاركت أيضًا في مناسبات سعيدة مثل: المشاركة في تصوير فيلم "أكسودوس" (الخروج) في قبرص عام ١٩٦١، وزارت العديد من الموانيء الأجنبية المختلفة في أوروبا.

أمضت المدمرة سنوات طويلة وحان وقت تقاعدها. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت ماتزال قوية ومفيدة وكأنها في يومها الأول في الخدمة، فجنودها

---

[٦] مدمرة من طراز هانت البريطاني اشتركت في الحرب العالمية الثانية عندما كانت تملكها بريطانيا، واشتركت في حماية السفن أثناء الهجوم على جزيرة صقلية سنة ١٩٤٣، كما اشتركت في الحملات على شواطئ النرويج سنة ١٩٤٤ ثم أعيرت إلى الحكومة الصينية وبعدما عادت إلى بريطانيا في قاعدة هونغ كونغ، اشترتها مصر قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. أُسرت في حرب ١٩٥٦ بعد حصارها وتم أسر طاقمها المكون من ٩٨ ضابط وعسكري واستشهاد جندي واحد. سحبتها البحرية الإسرائيلية قبل أن تغرق وتم اصلاحها وسميت المدمره حيفا.

[٧] أبحرت السفينة من جزيرة كيمولوس اليونانية في ٢٢ يناير ١٩٦٧ متوجهة إلى مارسليليا. وفي ٢٤ يناير تم استقبال رسالة استغاثة من السفينة. غرقت السفنية ومات فيها ٢١ شخصًا.

يفعلون كل شيء من أجل إطالة عمرها؛ فكان يتم غسلها بشكل يومي – طولًا وعرضًا – بالماء والصابون لحمايتها من ملوحة البحر. وتُشحَّم أجزاؤها أسبوعيًا كنوع من التمائم ضد التهالك. وتدهن من جديد مرة كل ستة أشهر. لكن ذلك لم يمنع بحاريها من أن يقوموا بدهان كل جزء فيها يتعرض لتآكل الصدأ مرة أخرى.

وفي قمرة القائد كانت تقف شامخة كؤوس فضية كثيرة تشهد على كونها بطلة "جوائز مرفق سلاح البحرية وجيش الدفاع الإسرائيلي". ولم يكن الجند قبل كل مسابقة من هذا النوع في حاجة إلى القيام بأعمال خاصة؛ فإيلات كانت تستحق الجائزة طوال أيام السنة. فالنظافة فيها كانت مثالية وتعطي انطباعًا كما لو أنها لم تترك الميناء لفترة طويلة. وحتى في ذلك الوقت كان رجالها مشغولين بالاستعداد لتفتيش جائزة المرفق التالية.

كان الرصيف الذي ترسو عليه يضج بالنشاط فور عودتها من إبحار في مهمة تدريبية. وكان صخب معداتها يغطيها لدرجة أن حوار بين اثنين كان يتم عبر الصراخ.

كنت أنا وأريه في الطابق الأوسط نحاول ربط مقعد خشبي في مشبك حديدي من أجل إعادة دهانه. "أمسِكها من أعلى" صرخ أريه "وأنا سأحاول الربط". "حسنًا"، أجبته صارخًا.

صعد هو على مقعد بدون مسند وبدأ الربط. وفي الطابق السفلي كان حزقيا بيجر يكحت بمَبْرَد كهربي طبقات الصدأ فوق أرضية السطح. وبسبب الضجيج الشديد الناتج عن المبرد الكهربي وضع بيجر كاتم صوت على أذنيه

يشبه السماعات، منع الصوت من حوله تقريبًا. ومنع قناع كبير شفاف غطى وجهه الغبار الشديد الناتج عن عملية الكحت من دخول رئتيه.

هكذا انعزل بيجر عن محيطه الصاخب وحُدِّدَت رؤيته بالمنطقة الصدأة فقط من السطح الذي كان عليه كحته. في تلك اللحظة فقد بيجر الذي عمل بكل جد، القدرة على سماع من حوله ورؤيتهم.

كادت محاولة أخرى من أريه لربط المقعد بالمشبك أن تكلف بيجر حياته؛ ففي محاولة لتقريب الحبل الذي يربط المقعد إلى المشبك الحديدي انهار المقعد الذي كان يقف عليه فجأة. وأدى فقداني التوازن نتيجة الدفعة أثناء السقوط؛ إلى سقوط المقعد بزاوية حادة من ارتفاع ستة أمتار إلى الطابق الأسفل حيث يعمل بيجر.

صرخت بكل قوتي "بيجر!" لكن حتى الذين عملوا بجواره بدون كاتمات صوت لم يسمعوا صراخي. سقط المقعد على حافته – وفي معجزة فصلت ملليمترات معدودة فقط بينه وبين ورأس بيجر الذي كان محنيًا أمامه والمبرد في يده. شاهد بحار كان يمر بالمكان المقعد يطير واستطاع الركض والامساك به قبل أن يقع على جانبه. وحتى ضربة كهذه كانت ستصيبه لأن المقعد كان مصنوعًا من الخشب الثقيل. خلع بيجر، الذي يبدو أنه لاحظ ظل المقعد فقط، القناع ونظر إلى البحار الذي أنقذه وصرخ فيه: "ابتعد يا أحمق!" أبعد البحار المقعد وعاد بيجر إلى عمله مرة أخرى. ومن المؤكد أنه لم يدرك أن ملليمترات معدودة فصلت بينه وبين الموت قبل ثوانٍ معدودة.

تبادلت أنا وأريه نظرات الفزع بعد أن تابعنا ما حدث. فقد كادت أن تقع كارثة وكدنا أن نتورط فيها. نزلنا إلى الطابق السفلي والفزع يملؤنا. سارعنا إلى أخذ المقعد من البحار في امتنان كي نعيده مرة أخرى إلى الطابق الأوسط. وعندما وصلنا إلى الأعلى مرة أخرى ونحن نمسك بالمقعد بكل قوة استطعنا الكلام ثانية.

"يا للحظ!" ابتسم أريه وهو يلهث من الانفعال"، لم يدرك هذا الأحمق أنه كاد يقتل قبل دقيقتين". جهزت المقعد في وضع الجلوس وأشرت له بيدي" كيف يستطيع أن يعرف؟" سألت وأنا أصرخ. اعتقدت أنه من الأفضل أن أذهب إلى «بيجر» وأخبره بما حدث، لكن أريه رفض ذلك بإشارة من يده: "خطأ، إذا كنت تظن أنه سيتأثر". صرخ محاولًا التغلب على الضجيج. "أتعلم كيف ستكون ردة فعله؟ سيقول حسنًا وانتهى!" تمدَّد في مكانه وقام لينظر إلى المشبك. في تلك اللحظة كان الرقيب كسبي يمر ولاحظ "استكانتنا". توقف ونظر إلينا نظرة حادة: "ألم تبدئا الدهان بعد؟" صرخ غاضبًا. أردت أن أشرح له سبب جلوسنا وما حدث قبله، لكني لم أجد الكلمات لأبدأ.

"في نهاية العمل"، صرخ في غضب. "ستقوم بدهان كل سطح الأعلام من جديد. سأحضر للتفتيش على ذلك في تمام ١٨:٠٠، هل سمعت؟!"

ثم توجه إلى أريه: "لم أعرف مدى صداقتكما عندما طلبت أن تعمل معه. أنت محجوز أسبوع!" نظر إليه أريه في دهشة. فشدة العقاب لم تكن مبرَّرة. ثم تركنا قبل أن يستمع إلى أيٍ منَّا. نظرت إلى أريه في امتنان، لقد أراد أن نعمل معًا، فقام الآخر بالانتقام منه.

"ربما نشرح له ما حدث" اقترحت عليه "سوف يتفهم، أنا واثق".

بدأت تظهر على أريه علامات الغضب: "دعك من هذا!" قال في ضجر، "سيسجل شكوى ضدنا أيضًا، وسيزج بنا في السجن بسبب الإهمال القاتل".

أدركت أننا لن نستطيع إلغاء الأمر المحتوم فحاولت تشجيعه: "لا تستاء يا أريه!" قلت له. "سنمضي معظم الوقت معًا، فليس لدي ما أقوم به في العطلات القصيرة".

لكن حالة من الاكتئاب بدأت تسيطر عليه: "كنت أنوي مقابلة «عماليا» هذا المساء". قال، "وهذا اللعين أفسد كل البرنامج وأفسد الأسبوع كله، لكن" لمعت عيناه فجأة وتغيرت نظرتهما، "دعنا نواصل العمل، فاليوم سأقابل «عماليا» مهما حدث". لم أفهم في هذه المرحلة ما الذي ينوي فعله، لكني فضَّلت عدم طرح أسئلة. فقد آلمني عدم تقسيم العقاب بيننا. غضبت من كسبي لكني في نفس الوقت كنت أفهمه؛ فالمشهد مختلف من زاويته؛ حيث استجاب لطلب جندي بأن يرسل معه صديقه في عمل جماعي شاق، وعندما يقوم بالتفتيش عليه بعد فترة من الوقت، يجدهما جالسين على مقعد يتحدثان بكل ارتياح. فهمت ذلك لكن المشاعر تغلبت على المنطق. وبدون سبب واضح، وبدون أن أفهم لماذا، قررت الانتقام من كسبي شخصيًا.

قبيل الساعة ١٦:٠٠، في الوقت الذي كان يتجه فيه أفراد الطاقم إلى غرفهم للراحة أخذت بناء على طلب الرقيب كسبي علبة كبيرة من الدهان الأخضر وفرشاة وبدأت دهان السطح في حماس كبير. كانت الفرشاة جديدة وكان الدهان ينساب على حديد السطح بكل سهولة ويسر وبدون أي مجهود.

وفي خلال أقل من ساعة أنهيت عملي. ثم وجدت نقطة مراقبة استطعت منها ملاحظة الرقيب كسبي في الوقت المناسب. لقد وعد بالحضور في الساعة ١٨:٠٠ أي بعد أكثر من ساعة. وكنت مستعدًا لزيارته. تمددت في الركن ونظرت حولي. كان سطح الأعلام قد دُهن للمرة التي لا أعرف كم. فقد كان لونه أخضر ويلمع، ومنحه الدهان مرة أخرى شكلًا جديدًا.

كان هناك طريقان يؤديان إلى السطح ولم تكن غير درجات سلم باللون الرمادي لتميزها عن السطح نفسه، من أجل تسهيل ملاحظتها في ليالي الإبحار المظلمة. كانت عبوة من اللون الرمادي – بلون الدَرَج – جاهزة بجانبي مع فرشاة نظيفة. ولقد دُهِن هذا الدرج في إطار عملية دهان جسور الانتقال، دون أي علاقة بدهان سطح الأعلام. وقبل الوقت المحدد بخمس دقائق ظهر كسبي مرتديًا الزي الرسمي وهو يصعد من ناحية السلم. لم يبق أمامه سوى دقيقتان حتى يصل إليَّ. أخذت الفرشاة وغمستها في اللون الرمادي وبدأت دهان الدرج سريعًا. ولم أبخل في الدهان لكني حرصت على ألا يبدو حديثًا. كان ذلك وقت المساء وكان يصعب ملاحظة التفاصيل. وفي نهاية عملية الدهان جمعت كل الأدوات وذهبت إلى موقعي لأراقب كسبي دون أن يستطيع ملاحظتي.

صعد أربع درجات حتى اكتشف أن ملابسه النظيفة وحذاءه قد لُطِّخَت بالدهان في مواضع متعددة. "موشه ليفي!" دوَّى صراخه بين المدخنة والصاري وتملكه غضب شديد. استطعت أن أسمع بوضوح الهمس الذي تسرب من بين أسنانه: "كلبٌ حقير!" وفي تلك اللحظة قدمت من خلفه من اتجاه غير متوقع، وأنا أحمل بين يدي لوحتين مكتوب عليهما "احذر الدهان".

"يا رقيب كسبي!" ناديت. فاستدار نحوي. "فتحت فمي في دهشة مصطنعة"، "هل تلطخت؟" سألت وأنا أتصنع الأسف. "إني آسف"، "لم أعلم أنك ستحضر مبكرًا ففي هذه اللحظة كنت أنوي وضع اللوحات لكنك سبقتني".

نظر إلي تلك النظرة القاسية الهادئة المعروف بها وسأل متمالكًا نفسه بشدة: "من طلب منك دهان الدرج؟"

أجبته: "في كل مرة قمت فيها بدهان سطح الأعلام كنت أدهن الدرج أيضًا، ولم يخبرني أحد بشيء، ففهمت أنه جزء منه". بدأت أندم على هذا العمل الانتقامي من منظر وجهه. فتمتم بشيء آخر غير مفهوم وبدون أن يزور سطح الأعلام قال: "حسنًا، يمكنك الذهاب!" ثم عاد أدراجه متجهًا فيما يبدو إلى حجرته لتغيير ملابسه.

أريِّه يخالف الأوامر

في الحجرة رقم ١١ قابلت أريه يربط رابطة عنقه وكان الكثيرون من حوله مشغولين في ذات الوقت في تحسين مظهرهم استعدادًا للخروج للفسحة (After باللغة الدارجة الحالية). وكادت المرآة الصغيرة المعلقة على أحد حوائط الحجرة ألَّا تحتمل ضغط الوجوه الكثيرة التي تنعكس فيها من كل زاوية ممكنة. وكذلك كانت فرشاة الشعر في حالة "مناوبة" تنتقل من يدٍ إلى يد ومن رأس إلى رأس تفرد شعرًا مكويًا وتجعل الشعر المجعد أملسًا. دارت الأحاديث بصوت مرتفع، وكان المضمون متنوعًا. لم يظهر على الفتية أنهم قد أمضوا يوم عمل شاق. وعلى بعض الأسِرَّة رقد جنود في ملابس العمل، يقرأون كتب إثارة، أو يتصفحون مجلات "البلاي بوي" بشغف ظاهر. هؤلاء هم من سيعملون في فترة المساء. أما أنا فقد كنت حرًا طليقًا لكن نظرًا لعدم وجود مكان أذهب إليه أو مَن أخرج معه قررت استغلال وقت فراغي في النوم. ذهبت إلى أريه ودهشت لأنه كان في حالة مزاجية طيبة.

"موسى لاوي!" صاح مناديًا عندما رآني.

"ماذا تفعل هنا؟" سألته في دهشة. "ألست محتجزًا؟!"

"بلى"، أجابني دون تردد.

"إذا، ما هذا المظهر؟"

قرص خدي بيده اليمنى في حركة شيطانية وظهرت على وجهه ابتسامة خبيثة. "كيف تريد أن أظهر أمام صديقتي هذا المساء؟ بملابس العمل المبقَّعة؟" (كان يقصد بقع الدهان التي كانت تميز ملابس العمل عندنا).

"أنت مجنون!" قلت.

"ماذا ستفعل إذا استدعوك للوقوف أمام المساعد المناوب؟"

"لن ينادوني!" قال في ثقة وغمز لي بعينه غمزة طويلة تحمل معانٍ كثيرة. فهمت أنه تم تدبر الأمر مع المساعد. رغم ذلك كانت هناك مجازفة بسيطة، لكني لم أرغب في إفساد "الفسحة" عليه وتمنيت له قضاء وقت ممتع.

"وماذا عنك؟" سأل وهو يرتب خصلة شعره بيديه الكبيرتين.

"أظن أني سأخلد للنوم، فأنا متعب".

"أنا أحسدك قليلًا، فأنا أيضًا كنت أرغب في النوم بضع ساعات".

"متى تنوي العودة؟" سألته.

نظر إلي مبتهجًا: "تعلم أني لست من يحدد ذلك" ربَتُّ على كتفه وسرت نحو ركني دون التفوه بكلمة أخرى فقد كنت أستلطفه حقًا.

أطلق مكبر الصوت صافرة، فكل إعلان تسبقة صافرة. "على الأشخاص الذين سأنادي أسماءهم الحضور بجانب السلم الآن!" كان ذلك صوت النقيب مَشِيَّاح الضابط المناوب هذا المساء فيما يبدو. وحدث ما كنت أخشاه فقد نادى اسم أريه فقفزت من مكاني. لم أعرف بعد كيف أحاول المساعدة. ارتديت ملابسي سريعًا وتوجهت نحو السلم. ووضعت قبعة العمل على رأسي بشكل يخفي جزءًا من وجهي.

ذهب إلى هناك كل المحجوزين والمناوبون على اختلافهم. ولحسن الحظ كانت المجموعة كبيرة حوالي عشرين رجلًا. وقفت خلف جندي طويل القامة. وكانت قدم النقيب مَشِيَّاح اليمنى بها إعاقة بسيطة، فألقى نظرة فاترة نحونا وبدأ ينادي الأسماء بصوت فاتر إلى أن وصل إليَّ أيضًا: "أريه شفارتس!" ترددت لحظة. وخفت بشدة أن ينكشف الخداع. فربما قام بكل ذلك من أجل الوقوف على تغيب أريه؟ لكن يحتمل أيضًا أن تكون تلك مسألة روتينية بحتة وببعض المجازفة قد أُنقذ أريه من السجن لخمسة وستين يوما، فقررت المجازفة.

"أفندم". أجبت في هدوء وخفضت رأسي.

استدار الجندي الذي كان يقف أمامي قليلًا ونظر إلي في دهشة. فأشرت له بالسكوت. ابتسم وأدار وجهه ثانية نحو الأمام. لقد نجحت المناورة. وواصل مَشِيَّاح نداء الأسماء بدون توقف فتنفست الصعداء.

عدت إلى فراشي وأنا أتساءل كم مرة سأتعرض لهذا الموقف هذا المساء. سألت الله أن يعود أريه سريعًا. كان النقيب مَشِيَّاح ضابطًا من النوع المفاجيء. هزَّت يدٌ كبيرة كتفي في لطف. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وفي بطء رفعت جفنين ثقيلين فلمعت أسنان بيضاء في ظلمة الحجرة. كان من السهل تمييز رأس أشقر تغطي وجهه ابتسامة خالدة. عاد أريه مبكرًا مما كنت أتوقع.

"موشه!" همس. "هل حدث شيء مميَّز أثناء غيابي؟"

أصدر فراشي صريرًا عند نهوضي:

"أخبرني أولًا هل كان الأمر يستحق المجازفة من أجلك، أيها القرد الضخم". قلت.

اختفى بياض أسنانه فجأة ومال برأسه نحوي قليلًا وكاد أن يلمس وجهي. كان صوته مليئًا بالتوتر:

"ماذا حدث؟" أخبرته باختصار عن التفتيش.

"إذا أنجبت طفلًا من كل هذا الأمر فلتسمِّه مَشِيَّاح شفارتس".

"موسى لاوي!" قال وهو يحاول عبثًا تقليد النطق الشرقي". هذا سيكون أكثر دقة. لكن انتابني القلق الآن: "وماذا إذا كانت فتاة؟"

ظهر بياض أسنانه ثانية: "عندئذ ستكون لدينا مشكلة حقًا" ..

ثم اتجه إلى فراشه وهو يقول: "على أية حال كان الأمر يستحق أن تجازف. شكرًا وتصبح على خير".

وكنت قد استغرقت في نوم عميق قبل أن يصعد أريه إلى فراشه.

نمط الحياة الروتينية

أحببت الاستيقاظ على السفينة، فهو مختلف كثيرًا عنه في "قاعدة الهدوء" في الكرمل. فهو راقٍ لدرجة أني شعرت في تلك اللحظات المعدودة أني في عالم مترف، وأني إذا استيقظت وقمت فسيكون ذلك فقط من منطلق رغبتي واستعدادي لفعل ذلك، وأن ترك الفراش أو البقاء فيه هو مسألة تخضع لقراري المستقل. ذلك بخلاف الوضع هناك، في الأعلى (في القاعدة البحرية)، عندما كان يأتي الرقيب المناوب إلى الحجرة ويركل الباب بقدمه ويصيح: "قوموا يا كسالى!". أما في السفينة فكان الاستيقاظ يتم في همس الهدوء الذي يسمع مع تشغيل مكبرات الصوت. وفي هذه المرحلة عامة يفتح الأكثر استيقاظًا عيونهم. بعدها يأتي الضغط على زر مكبر الصوت، ومن بعده همس صامت في شبه عزف موسيقي للمساعد المناوب: "استيـــــــقـــــــــاظ، صبــــــــــاح الخيــــــــر، صــــــــباح الــــــــــخير، قوموا يا رجال الطاقم ورتبوا أسرَّتكم، صبـــاح الــــــــخير، صباح الخيــــــــــر". يُسمع في تلك اللحظة صوت صرير الأغطية البلاستيكية من كل أطراف الحجرة حيث ينفضه معظم البحارة وهم يتثاءبون متمطِّعين.

ومرة أخرى لأصحاب النوم الثقيل: "استيقـــــــــاظ .. استيقـــــــــــاظ" .. وعادة ما كنت أنجح في استباق مكبرات الصوت بلحظات. لقد كنت أحب الاستماع إلى هذا اللحن العذب الذي كان يعكس المعاملة الإنسانية الدافئة والفريدة التي يتلقاها رجال المدمرة أكثر من أي شيء آخر. وبما أن الاستيقاظ كان يبدو في صورة طلب، فقد كان رجال الطاقم

يستيقظون في سرور تام مغادرين أسرتهم من النداء الأول. أما النداء الثاني للصباح الجديد فكان يبدو وكأنه في ذروة اليوم وكان لا حاجة له تقريبًا؛ فقد عرف الجميع تقريبًا النظام اليومي: صافرة. "عشر دقائق عند نقاط النظافة!" وفي تلك اللحظة تكون جميع الأسرَّة خالية ويبدأ عمل الصنابير وأحواض الاغتسال.

في حجرة الحلاقة قابلت قنطروفيتس. كان كثيف الشعر، ويحتاج إلى دقائق طويلة أكثر من الآخرين للحلاقة. لذلك اعتاد الاستيقاظ قبل كل رجال الطاقم. قابلته وهو يصفِّر كعادته. كان يتمتع بروحٍ رومانسية رقيقة للغاية. وكان تفكيره مثل "خزانة ملابسه وفراشه"، مرتبًا ومنظمًا لأبعد الحدود.

لقد عرف بالضبط ماذا سيفعل بعد تسريحه من الخدمة، وكذلك بعد عشر سنوات من الآن، وفي سن المعاش أيضًا ... كان يتحدث عن الحب والجمال في كل فرصة متاحة. كان حبه للموسيقى عظيمًا، ولم تمنعه عملية الحلاقة عن التصفير والغناء في الوقت الذي كان فيه الموس الحاد ملتصقًا بخده.

رمقني بزاوية عينيه: "صباح الخير مُوسَلاوي"، قال لي.

"صباح الخير" أجبته.

"أنت مبتهج هذا الصباح"

"كالعادة". أجاب وبدأ يصفر نغمة جديدة.

"أخبرني!" ترددت في إيقافه، لكنه سكت فجأة رافعًا حاجبيه إليَّ في تساؤل.

"ما تلك الجلبة التي سمعناها فوقنا بالليل؟"

"فئران" قال. "سنضطر قريبًا للقيام بتدخين".

"تدخين؟!"

"أجل". نظر مندهشًا. "ألا تعرف ذلك؟"

"كلا" اعترفت. "لم أسمع هذا المصطلح من قبل".

ابتسم متفهمًا وقال: "السفينة هي المكان المثالي للفئران، وعندما نتخلص منها تعود مرة أخرى بعد فترة قصيرة. وعندما تكثر الفئران في السفينة، يقومون بعملية التدخين؛ حيث يقوم طاقم خاص بسد كل فتحات السفينة بشكل تام. ويطلق على هذه العملية "xy" أي السد التام، ولها استخدامات أخرى كما هو الحال على سبيل المثال أثناء الغرق" .. ثم يضع الصابون على وجهه مرة أخرى (أظن أنها المرة الثالثة)؛ مما غيَّر صوته بعض الشيء وسُمِع صوتُه متقطعًا: "وفي هذا الوضع الذي تكون فيه السفينة مسدودة تمامًا يدخل طاقم خاص مرتديًا أقنعة غاز ويقوم برش دخان غاز سام في فتحات المدمرة وفي دقائق معدودة يموت كل حيوان اعتبر السفينة فندقًا له. ثم تغلق السفينة في نهاية العملية لثلاثة أيام لا يدخلها ولا يخرج منها أحد".

"وماذا يصنعون أثناء تلك الأيام الثلاثة؟" قلت في اهتمام.

"يخرجون في إجازة باستثناء الحراسة المناوبة. وعند العودة بعد أيام التدخين، يُكلَّف كل أفراد الطاقم بالعمل في جمع الفئران النافقة. وصدقني إننا نجدها في أكوام كبيرة .. بالأطنان".

ابتسم ونظر إلي في سعادة المعلم المتيقن بأن كلامه قد تم استيعابه جيدًا.

غير أن مسألة الإجازة قد شغلتني.

"متى تظن أنهم سيقومون بالتخدين المقبل؟"

فكر في الإجابة مطوَّلا ثم أجاب أخيرًا:

"بعد ستة أو ثمانية أسابيع". وكان كلامه حاسمًا. فنظرت جيدًا إلى عضلاته: "هل تمارس رياضة ما؟" سألت.

قام بمسح بقايا الصابون من على الموس وحرك رأسه عدة مرات في بطء. "أجل". كانت هذه إجابته الوحيدة.

"أي رياضة؟" أردت المعرفة.

"السباحة، المشي، الجري، الرحلات ... كل ما تريد".

"متى يتاح لك الوقت لكل ذلك؟"

"في الإجازات، بشكل عام".

دُهشت كيف يستطيع أن يفعل كل ذلك في إجازة قصيرة ليوم واحد. في تلك اللحظة دخل بحاران الحجرة أحدهما أريه، والثاني يرتدي زي الفسحة وهو يرافقه ثم نظر إليَّ نظرة جانبية، فتوجه إليه أريه: "موسى تعرف على واحد من خيرة شباب السفينة!" التفتُّ إليه. وكنت قد فكرت فيه كثيرًا مؤخرًا، في ابن مدينتي الذي يخدم معي ولم أتعرَّف عليه. وعلمت دون أدنى شك أنه من "نفس طرازي" بناء على الوصف الذي وصفوه لي، ومن حقيقة أنه صديق أريه. مددت له يدي. "تشرفنا".

صافحني في ليونة شبه نسائية وتمتم ببعض الكلمات المهذَّبة. ابتسمت له وردَّ الابتسامة. ابتسم بعدها لقنطروفيتس ثم عاد مع أريه إلى الحجرة. بدأت في تبليل فرشاة الحلاقة خاصتي، وكان قنطروفيتس قد وصل إلى المراحل النهائية من حلاقة ذقنه.

"متى ستذهب إلى البيت؟" سأل.

"في الإجازة القصيرة القادمة" أجبت.

وبعكس ذقن قنطروفيتس كانت ذقني شبه ناعمة و لم تستمر عملية الحلاقة أكثر من بضع دقائق فقط.

"هذا هو الفرق بيننا" قال في شبه مرارة.

اعتقدت أنه يقصد عملية حلاقة الذقن.

"لست في حاجة إلى أكثر من إجازة قصيرة كي تذهب إلى البيت".

"أين تسكن؟" سألت.

"في طبرية" أجاب.

بدأت أمسح وجهي "لماذا لا تجد إذن أي زورق مطاطي لتخدم عليه؟"

قام بجمع أدواته وشرع في الخروج. وعند المدخل توقف ونظر إليَّ كما لو كنت نصحته بالغرق:

"مستحيل" قال في حسرة.

"لن يتخلى عني الرقيب برقان بسهولة". ابتسمت.

كان الرقيب برقان هو المسئول عن تشغيل الرادار في قسم "الاسكتشاف والملاحة والاتصال" وعُرِف بعلاقته المتميزة بقنطروفيتس؛ حيث كان يصرخ فيه بلا سبب مُبرَّر، ويوبخه على لا شيء، ويهينه في كل مناسبة تقريبًا، ويتحول عندما يكون بالقرب من قنطروفيتس إلى كرة غضب.

في إحدى المهمات البحرية كنت مناوبًا في حجرة مركز معلومات القتال، وطلب القائد الموجود في قمرة القيادة في ذلك الوقت من الرقيب إبلاغه بوجهة

سفينة وسرعتها بحسب المعطيات المتوفرة. قام برقان بالعملية الحسابية لكن بزاوية انحراف ٩٠ درجة، وهو ما لاحظته قمرة القيادة على الفور. صرخ القائد في الانتركوم وقد استشاط غضبًا من خطأ مسئول مخضرم عن تشغيل الرادار:

"أنت تضللني! راجع نفسك على الفور يا مركز معلومات القتال قبل أن أرسلك لأداء اختبارات الترقية للمستوى ب[٨].

شحب وجه الرقيب برقان كثيرًا؛ فقد كان حساسًا تجاه أي انتقاد يوجه إليه؛ فانكب على الرسم وبدأ في الحساب من جديد. أصبحت حركاته عصبية وصبغ اللون الأحمر وجهه ثم أبلغ قمرة القيادة بالنتيجة المعدَّلة، وجاء التأكيد على الفور:

"الآن أفضل بكثير".

جاء الآن رده المثير للدهشة؛ حيث ألقى قلم الرصاص في غضب شديد، وهبَّ خارجًا من الحجرة المزدحمة وهو يطنطن: "قنطروفيتس يا أحمق ... يا حثالة" .. ولم يكن قنطروفيتس مناوبًا في ذلك الوقت.

عند عودتي إلى الحجرة كان الجميع منشغلًا في تناول الطعام. احتفظ لي أريه بمكان بينه وبين يوسف جرشون الذي كان لا يزال مرتديًا زي الفسحة، وكأن من الصعب عليه استيعاب مسألة عودته من الإجازة إلى المدمِّرة. تمكنت الآن من تبادل بعض الكلمات معه والوقوف على شخصيته عن كثب. وعلى الرغم من

---

[٨] كان يعمل مشغل الرادار المستجد في المستوى أ، وهو مستوى متدنٍ من الناحية الفنية، والمستوى ب أكثر تقدمًا، والمستوى ج الأكثر تقدمًا.

كوننا أبناء نفس المدينة وفي نفس السن ومن نفس البيئة تقريبًا، إلا أن خلفيتنا كانت مختلفة تمامًا، و لم نعثر على صديقٍ واحدٍ مشترك بيننا.

كان هو الابن الأكبر في العائلة. وُلِد في لبنان، وهاجر مع والديه إلى إسرائيل عند قيام الدولة. درس في المدرسة العلمانية في طيرة الكرمل (كان هناك مدرستان في ذلك الوقت: مدرسة دينية حكومية تعلمت أنا فيها، والثانية علمانية). ثم استكمل يوسي بعدها، آسفًا، الدراسة في مدرسة للتعليم الفني. كان جندي إشارة بحري، وكانت حساسيته مفرطة تجاه هذا العمل. امتدحه الضباط والبحارة أكثر من مرة لمهارته الشديدة في العمل. وكانت له ملامح خاصة، فعظام وجنتيه بارزة، وشعره كستنائي اللون يسرحه إلى الخلف، شبَّهوه بنبيل إنجليزي. كان محبوبًا بين جنود السفينة حلو الطباع ومتواضع، يكوِّن الصداقات بكل سهولة.

ولأنه عائد للتو من طيرة الكرمل أردت معرفة ماذا يجري هناك؟:

"لا جديد" أجاب.

لم يكثر في الكلام لكنه كان يبتسم تقريبًا مع كل عبارة تخرج من فمه.

و"كيف حال جامعة أبو يؤاف للبلياردو؟"[٩] قلت له.

"كالمعتاد، يحصلون هناك على دبلوم" ... ثم وضع القليل من الملح على السلطة في طبقه وقال:

---

[٩] أبو يؤاف بائع كباب معروف كانت لديه حجرات سرية لألعاب القمار المحظورة. وكان مصطلح "جامعة" شائعًا وقتها بين شباب حي طيرة الكرمل أطلقوه عليه للمحافظة على سرية المكان.

"لعبت هناك بالأمس، مصادفةً".

كان ذلك رائعًا في نظري فهو لا يبدو لي كمن يندمج مع الجو العام لتلك "الجامعة".

نجح يوسي في قراءة أفكاري "لست معتادًا على اللعب هناك" قال كالمعتذر. "لكن بعض الأصدقاء اصطحبوني إلى هناك بالأمس، بالقوة تقريبًا". سكب أريه لنا القهوة وهو يقول في حسم:

"لكنك ربحت هناك". نظرت إلى يوسي في تساؤل.

فخفض نظره واعترف: "عشرون جنيهًا".

انفجر أريه في الضحك: "بالطبع! أيمكن غير ذلك!"

ثم بدأ يشرح: "في كل مرة تقام فيها مسابقة مراهنات في السفينة يكون هناك رهان آخر إذا كان يوسي جرشون سيخسر هذه المرة. ويخسر الرهان كل من تنبأ بخسارته". ابتسم يوسي (وكانت تلك الابتسامة تلازمه في الحقيقة منذ بداية الحديث) وبدا سعيدًا بذلك.

"لكن" واصل أريه، "هذا الأحمق فتى نزيه. فنصف الطاقم مدين له بالمال بسبب المسابقات، وهو يتنازل لهم عن ديونهم، بل ويقرضهم من جيبه". غادر بعض الفتية الذين أنهوا إفطارهم أماكنهم، فأشار إليهم أريه: "هاهم" أصبح ضحكه الآن شديدًا، "لقد تذكر كل المدينين! تذكروا ديونهم وبدأوا في الفرار"....

نظر يوسي إلى أريه مبتهجًا ثم توجه إليَّ قائلًا: "الموضوع أني لا آخذ كل هذه المسابقات على محمل الجد لكن .. للتسلية فقط".

"تصوَّر". كاد أريه أن يختنق من الضحك،

"إذا أخذ الموضوع على محمل الجد لجعل القائد يخلع ملابسه" .. دوَّت أصداء الضحك الشديد لوقت طويل.

استقبلتنا رياح لطيفة على سطح الأعلام. وظهرت أمامنا سفينة كبيرة تقوم بمناورة للخروج من الميناء بمساعدة جراري سحب. استدارت السفينة بزاوية بسيطة ومقدمتها موجهة نحو مدخل الميناء ثم بدأت في الصفير. كان مشهدًا ساحرًا رؤية تلك الكتلة الكبيرة تستعين بجرارين صغيرين للابتعاد عن الرصيف، مثل العملاق الذي تكون قدماه أكبر من الارتفاع عن الأرض فيستعين بقزمين ليدفعاها بأكتافهما.

"موشه ليفي!" سُمع نداء.

كان ذلك الرقيب صَبَان الذي انتظر انضمامي إلى الفصيلة الواقفة في صفين خلفيين عند نقاط النظافة. أخذت مكاني بعد فينجولد، فرد اللاسلكي، وانتظرت الأوامر.

نادرًا ما يظهر الرقيب صَبَان في الصباح عند نقاط النظافة؛ وذلك عندما يكون هناك عمل خاص يجب القيام به أو مهمة تحتاج إلى إشراف دقيق، واختيار العمَال الأكفاء. كان صَبَان نائب الرقيب كسبي، لكنه كان مستقلًا في كل قراراته تقريبًا. كانت مشاعره مختلطة: فهو يشعر بالقوة من ناحية؛ ومن ناحية أخرى كان لديه إحساس بعدم قبول معظم رجال الفصيلة له. وسببت له هذه المشاعر الإحباط وأثارت لديه الرغبة في الانتقام. وفي كل حديث تقريبًا يدور بين الجنود كان صَبَان محل سخرية. أما بالنسبة لي فقد كان يرمز إلى

الجسر الذي يربط بين الجندي وقائده. ولقد جعلته رتبته الأعلى من الجندي البسيط والأقل من الضباط بكثير؛ مشتتًا ومعلقًا بين عالمين: عالم المعسكر القيادي في السفينة، وعالم الجنود. لم ينجح صَبَان في العثور على الطريق الوسط، طريق الدعم المجتمعي مع مراعاة المسافات. وكان ذلك فيما يبدو سبب عدم استقراره العاطفي واتخاذه وضعية الدفاع المستمر في مواجهة جنود الفصيلة. وكانت وضعية "أنا القائد هنا"! تضعه موضع انتقاد الجنود وكراهيتهم له؛ أما أنا فشاهدت تلك الصفات من زاوية مختلفة، فلم أستطع أبدًا الشعور تجاهه بما شعر به الآخرون. وكنت أجد نفسي في كل حديث عنه، أشرح طبيعة وظيفته وطبيعته الشخصية وأدافع عنه. الأمر الذي سرعان ما وجد له صدى في قلبه ومع ما يتماشى مع طبيعته الخاصة فقام بتعييني بعد ذلك رقيب الفصيلة، وهو ما أغضب رجاله وعمَّق الكراهية والاحتقار تجاهه.

"أيها السادة!" توجه إلينا وهو يمسك في يديه عصًا مزخرفة من الطرفين "إن تفتيش جائزة المرفق يقترب. وحتى اليوم — وهذا معروف لديكم بالطبع — لم نخيب أمال وحدتنا، وفزنا بالمركز الأول على مدار سنوات عدة. وأنا أطلب منكم أن تبذلوا مجهودًا خاصًا اليوم وغدًا كي نستمر في الحفاظ على هذا التقليد".

توقف لوهلة ونظر إلى نقطة معينة في البحر نظرة متأمل واستمر قائلًا: "أنا أريد من كل منكم بذل قصارى جهده في هذا العمل! وإن كنت أتجاهل حتى اليوم بعض التلكؤ أثناء العمل فإني هذه المرة — خاصة في اليومين القادمين — سألاحظ هذه الأمور جيدًا ومن موضع أكثر صلابة".

ثم توجه إلى فريشر: "شمعون، قم بتقسيم الرجال إلى مجموعات وحدِّد لكل مجموعة منطقة عمل تكون مسئولة عنها على مدار اليومين. يجب أن تكون المنطقة كلها لامعة وبراقة حتى ظهر الغد. هل هذا واضح؟"

هزَّ فريشر رأسه واستعد صَبَان للمغادرة. وقبل أن يشق طريقه هبوطًا على السلم بدأت الهمسات والبذاءات توجه إليه. قام فريشر بتقسيمنا إلى مجموعات. وكان رفيقي هذه المرة هو موندي، الشاب الذي اصطدمت به من قبل. كُلِّفنا بتشحيم وتلميع البوصلة ومِدفَعَي الـــ ٠٥ فوق قمرة القيادة، وساعات مختلفة يستخدمها ضباط المناوبة. ثم توجه إليَّ موندي :

"ما رأيك في هذا الفيلسوف؟" يقصد صَبَان.

"يؤدي وظيفته".

"أجل، لكنه يتحدث وكأنه إله".

كادت لكنته أن تقتلني. فقد حاول استخدام طريقة نطق وكلام شخص مثقف أرستقراطي، بينما تدل الكلمات التي خرجت من فمه وشكله ونظرة عينيه على مستواه الثقافي الحقيقي.

"ماذا تريد؟، أن يرجونا لنوافق على قبول هذه المهام؟"

استشاط غضبي عليه وشعر به على الفور.

"لا أريد أن يرجوني". انخفض صوته وأصبح هادئًا. ثم تحدث هامسًا محاولًا إقناعي بعد أن اختفت العجرفة.

"لكن ليتحدث بشكل إنساني. كيف يريد أن يبذل كل منا قصارى جهده؟ ماذا نكون بالنسبة له؟ عبيدًا؟"

لو كان شخصًا آخر لحاولت أن اشرح له أن ليس العبيد وحدهم هم الذين يبذلون قصارى جهدهم لكن الجنود الحريصين كذلك. لكن أي محاولة من هذا القبيل سوف تزيد من وتيرة الكلام بيننا وكنت سأضطر إلى الاستماع إلى محاضرات بلكنة أرستقراطي، وهو ما قد يفقدني صوابي؛ لذلك اختصرت الأمر كله: "دعك من كل هذا الهراء! لنبدأ العمل!".

لقد أدرك أنه لن يحظى بودي اليوم لذلك بدأ العمل في هدوء، دون النطق بكلمة طوال الصباح حتى استراحة الظهيرة. كنا حتى هذا الوقت قد قمنا بتلميع كل جزء في البوصلة وكل مسمار في ساعات العمل في قمرة القيادة. كان الإنجاز كبيرًا مع غياب الحديث الذي يمنع التركيز والإنجاز أثناء العمل.

وبعدما انتهينا، كانت كل الساعات والبوصلة تلمع في أشعة الشمس المنعكسة في المياه. وبقي أمامنا للغد مِدفعا الــ٥٠. وأثناء غسل وجهي ويديَّ من الشحم والأوساخ التي التصقت بهم اقترب فريشر مني ووضع يده على كتفي: "مسلاوي!"، ومرَّ نظره فوق كتفي ليستقر في موضع ما.

"نعم" ...

"أيضايقك لو واصلت العمل بعد الاستراحة مع فينجولد؟" وبدا كالمعتذر.

فهمت أن موندي قد طلب منه ذلك، وسعدت بقبول الاقتراح الذي كان يبدو لفريشر بأني قد أعتبره إهانة لي. فأنا أفضِّل فينجولد على موندي بلا شك كرفيق في العمل.

"بالطبع". أجبته.

"ولا تطلب مني ذلك معتذرًا. أولًا؛ طبيعة منصبك تسمح لك بفرض أي رفيق تراه. ثانيًا؛ أنت تعلم أن اقتراحًا من هذا النوع يوافق هواي".

نظر إلى مبتسمًا لوهلة: "أولًا" قال بنفس الترتيب "بالنسبة لك ليست لدي رغبة في فرض أي شيء عليك، ولا أشعر أيضًا بأي ضرورة لاستخدام سلطتي. ثانيًا؛ كنت أظن أنكما قد تصالحتما على مدار ساعات العمل معًا، وأنكما أصبحتما ودودين معًا. وهذا ما بدا لي على أية حال عندما كنت أراقبكما من حين لآخر، لكني أظن أن هذا لم يحدث، ولا أتعجب من ذلك، فالقليلون جدًا هم الذين نجحوا في التعايش معه".

"لم أعتقد للحظة واحدة أني مختلف عن الآخرين"، قلت.

"ربما تكون مختلفًا بالفعل، فأنت تحب السفينة، وجئت إليها برغبتك".

غمرني شعور بالرضا؛ فقد منحني فريشر إحساسًا بالثقة. وفي كل مقابلة بيننا كنت أنظر إليه وتعلو وجهي ابتسامة عريضة:

"أجل، أنا مازلت هنا برغبتي".

"حسنًا" أنهى الموضوع.

"بعد الظهيرة ستواصل مع فينجولد، والآن هيا نذهب لتناول الطعام، فالطبَّاخ قد أعد لنا اليوم وجبة خاصة بناء على تعليمات القائد، وأنا لا أريد أن تفوتني ولو رائحة بسيطة". ثم جاء صوت مكبرات الصوت مباركًا في اختصار، ومصاحبًا لنا بينما كنا نصعد السلم ببطء في طريقنا لتناول الوجبة.

توتر الجندي المستجد

"تذكرة لجندي، 'الطيرة' من فضلك" أعطيت السائق ورقة بجنيه وانتظرت الباقي. نظرت في داخل الحافلة التي اكتظَّت بالعمال العائدين من أعمالهم إلى بيوقم، وكانت رائحة العرق تملأ الجو. قمت بشق طريقي ووقفت بجوار الباب الخلفي. وعلى الرغم من الإحساس بالاختناق والجو المزدحم؛ إلا أني كنت أتنفس بعمق واستمتاع. وقررت بثقة كبيرة أني المسافر الوحيد الذي يفضل هواء الحافلة الذي استنشقه وأنا في طريقي إلى البيت؛ على هواء البحر الذي كنت أستنشقه بعمق ومتعة.

كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى البيت بعد أكثر من أسبوعين أمضيتهما على السفينة. وبالرغم من أني كنت أحصل قبلها على "إجازات قصيرة" إلا أني كنت أفضل الاستراحة فيها وتجديد قوتي، كما أن "إجازتي القصيرة" اليوم قد بدأت في ساعة مبكرة عن المعتاد كنوع من المكافأة على المجهود الخاص الذي بذلناه استعدادًا لتفتيش جائزة المرفق، كي أتمكن من قضاء بضع ساعات في أحضان العائلة.

بدا لي أن شكل الأشجار قد تغير وأن النباتات تتحرك نحوي بسرعة وكأن شهورًا طويلة قد مضت منذ أن شاهدتها آخر مرة. وركوب الحافلة في حد ذاته قد أمتعني وغمرني بالبهجة؛ فلم أتصور قبلها إلى أي مدى كنت قد اشتقت إلى البيت؛ فالحياة الجديدة التي عرفتها كادت تنسيني تمامًا حقيقة وجودي بالقرب من بيتي، وهو ما يتمناه جنود كثيرون.

وقبل ثوانٍ معدودة من توقف الحافلة في المحطة سحبت الجرس ونزلت. بدأت أخطو نحو البيت، ثم تذكرت فجأة كل أموري الشخصية التي لم أتحدث عنها من قبل، والتي نسيتها أثناء فقدان الحواس التام الذي أصابني منذ لحظة صعودي السفينة. فخطرت "طوفا" ببالي – الحب الأفلاطوني – حيث التواصل بالرسائل بيننا هو كل علاقتنا تقريبًا، مع ذلك فالرسالة التي كنت أتلقاها منها كانت تساوي عندي آلاف اللقاءات بفتيات الشوارع اللاتي يهواهن بحارة المدمرة. ولأني لم أرسل لها بعد رقم البريد العسكري لوحدتي الجديدة، فقد خمَّنت أنها قد أرسلت خطابها الأخير إلى عنواني الشخصي. إذن، فهناك رسالة ترحيب تنتظرني في البيت؛ فأسرعت خطاي.

كانت زيارتي مفاجئة لأسرتي. استقبلتني أختي ياعيل عند مدخل البيت وأخرج صياحها: "ها هو موشه قد حضر!" أمي وأخي يوسي من البيت فأسرعا نحوي. كنت أتفهم تأثُّرهم الشديد: ففي هذه المرة حضرت إلى البيت كجندي مقاتل، وهو أمر غير اعتيادي.

بدأت الأسئلة تنهمر علي كالمطر بمعدل أصابني بالدوار: كيف تم استقبالك؟ كيف الطعام؟ ماذا تصنع؟ كم عدد من تنام معهم في الغرفة؟ أخبرنا عن الإبحار! عن الحياة في البحر! وأسئلة أخرى كثيرة. واتضح لهم فورًا من الصورة التي رسمتها أن الحياة في البحر ليست سهلة لكن فيها سعادة كبيرة. استوعبت أمي الصعوبة فقط أما أختي فقد استوعبت السعادة، ومن هنا بدأ الجدال: "أخبرتك أنه لا يجب أن تنتقل إلى هناك" قالت أمي كما لو كنت قد عدت من هناك جريحًا "ماذا لم يعجبك هناك، في حيفا؟ حجرتك؟ الطعام المنظم؟ العمل اللطيف؟!" ...

"أجل، لكنه يبحر" صاحت أختي في ابتهاج.

"إنه يعيش حياة ماجنة".

"ما الذي يسعدك إلى هذه الدرجة في أنه يبحر؟ هل تظنين أنها سفينة ركاب؟ وإنه يأخذ حمامًا شمسيًا طوال النهار؟"

"انظري إلى لونه".

"في حيفا أيضًا لم يكن ينقصه اللون". شعرت أمي أنها تحارب طواحين الهواء. "أما هنا فالعواصف والاهتزازات والعمل الشاق وعدم النوم ويعلم الله أي عناء آخر يخفيه عنا" ...

"أمَّاه!" هدأتها "إني أحب هذه الحياة. العواصف والاهتزازات ليست عناءً بالنسبة لي؛ إنما تضيف الإثارة والتنوع للمغامرة كلها".

"أنت تتعامل مع الأمر كله على أنه مغامرة أما أنا فأتعامل معه بمنتهى الجدية". تنهدت أمي وأرسلت نظرة تأمل.

"أنا أريد أن تنهي خدمتك سريعًا، فأخوك سوف يلتحق بالخدمة قريبًا".

"نظرت إلى يوسي ساخرًا: "لقد نضجت، هه؟ وبعد قليل ستصبح رجلًا حقيقيًا". ابتسم يوسي و لم يرد على استفزازي له. وكأول جندي في العائلة كان مسموحًا لي بالتبجح.

"هل هناك بريد من أجلي؟" سألت.

"أجل". أجابت أمي وأسرعت إلى الخزانة.

"هناك خطابان من طوفا".

خطفت الخطابين من يدها ودخلت إلى غرفتي المشتركة أنا وأخي وفتحت الخطاب الأول. كانت طوفا تشتكي من انقطاع الاتصال من ناحيتي لكنها ظنَّت أن ذلك بسبب انتقالي. كما أنها متشوقة لسماع كيف أتدبر أموري في المكان الجديد وكيف هو الإبحار على المدمرة. وحكت لي عن نفسها في منصبها كقائدة جماعة من الجنديات المستجدات في الجيش، وفي إطار صغير رسمت من أجلي قبلات "تصبح على خير".

بدأت أفتح الخطاب الثاني عندما سمعت صوت ينادي:

"ها هو بحَّارنا".

حضر أبي بصحبة أخي الثاني دافيد الذي اقترب مني مصافحًا. اجتمعت الأسرة معًا، وحول كوب شاي وشطائر اشتقت إليها كثيرًا قصصت لهم بتفصيل أكثر ما مررت به منذ لحظة وصولي السفينة.

"لكن كيف تستطيعون إدخال الكثير من الأسرَّة في حجرة واحدة؟". قالت أمي في شدة.

شرحت لها أننا ننام في أراجيح شبكية في ثلاث طوابق، وسرعان ما ندمت على ذلك.

"أراجيح شبكية؟!"

كَسَا وجهها قناع من الحزن.

"هل تنام على أرجوحة شبكية؟ يا إلهي ... أنا مازلت لا أفهم ما الذي أضارك في فراشك هناك بالأعلى ... أراجيح شبكية ... يا إله العالمين!" ..

هكذا مرت كل "الإجازة القصيرة" في محاولات شرح وإقناع بأني سعيد في المدمرة وأن نمط الحياة عليها على هواي. وعند مغادرتي في ساعة متأخرة من الليل (تنتهي "الإجازة القصيرة" في منتصف الليل)، صاحبتني أمي حتى باب البيت وفي يدها دلو به ماء سكبته خلفي، وهي عادة قديمة معناها: كما تعود المياه دائمًا إلى البحر، فسيعود ابني إليَّ. وهي طريقة لم تكذب حتى اليوم.

وقت الغروب والجو صاف والمدمرة جميلة وشابة أكثر من أي وقت. كل شيء مدهون. كل شيء جديد. أحسست كما لو أني أجلس على سطح يخت فاخر وليس على قطعة بحرية ضيقة ومرعبة.

من المتوقع أن أشارك بعد وقت قصير في مراسم استقبال جندي جديد سينضم اليوم إلى فصيلتنا. بذلك يكون قد تحدَّد رسميًا قبولي كعضو طبيعي بين هذه المجموعة الصلبة من الرجال.

كنت مشغولًا بالأجزاء الصلبة للقمرة عندما اقترب مني وملامح الظلمة والمكائد على وجهه.

"سنستقبل اليوم في الفصيلة شابًا جديدًا"، قال بدون تلكؤ.

"من أين جاء؟"

"جاء مباشرة من مركز التدريب. مستجد في الجيش".

أدركت أن تسفيقا لم يكلف نفسه عناء الصعود من حجرة الرادار إلى القمرة من أجل ذلك فقط، لذلك انتظرت.

"نحن نجهز لاستقباله ومن المنتظر أن تشارك".

وضعت أدوات التنظيف على الفور ونظرت إليه، وزاد فضولي: "أي دور سألعبه؟" سألته.

جلس تسفيقا في الركن وأمرني: "اجلس، سأشرح لك". بعدها بفترة وجيزة أصبح لي دور في عملية الاستقبال. وتمامًا في الساعة ١٧:٣٠ تقريبًا نزلت إلى حجرتنا المشتركة. كان أصدقائي قد أعدوا في الزاوية "ركن الخلوة" الذي تم إعداده من بطاطين الجيش والملايات. وتم نقل الضوء الأحمر الذي نستخدمه في مدخل الحجرة في وقت الظلام على السفينة إلى ذلك الركن ليضفي عليه الجو المناسب. رحَّب الفتى الجديد – نحيف وخجول، وجهه وجه شاب – بـــ"الترتيبات الخاصة الشهرية لرجال المدمرة إيلات" ووقف ليدخل ركن الخلوة مع الفتاة التي جُلبت خصيصًا من أجل إشباع الرغبات الجنسية لرجال فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال، مرة شهريًا. لم تكن "الفتاة" سوى موشه جلسبرج، أحد مشغلي الرادارات.

كان تنكره ممتازًا، وفي داخل ركن الخلوة المظلم كان يصعب اكتشاف أنه رجلٌ. ظهر الانفعال على الشاب الجديد. فأول يوم له في المدمرة يسير على أكمل وجه. ولا توفر كل قاعدة عسكرية الفتيات لجنودها. دخل تسفيقا جويخبرج الحجرة. كان قائد العملية، وتوجه إلينا قائلًا: "حسنًا، ليدخل أولًا من لديه مناوبة في الساعة ١٦:٠٠". توجهت أنا وبولسقي وجرشون نحو الركن وواصل تسفيقا الحديث في لهجة عسكرية صارمة: "أطالب بعدم تكرار الأخطاء البربرية التي حدثت في المرة الأخيرة. أذكركم أن هذه الفتيات متطوعات وإذا لم تتصرفوا بشكل لائق، فلن نراهن مرة أخرى بكل بساطة" .. اختلست نظرة إلى الفتى، وكان اللون الأحمر قد علا وجنتيه والدهشة والخجل يملآنه. كان يفرقع

أصابعه بعصبية كبيرة، ويمرر يديه بشكل متكرر على شعره مع حرص شديد على عدم إفساد تسريحته. اقترب تسفيقا منه وربت على كتفه: "نسيت تمامًا أن أسألك" توجه إليه في جدية تامة "هل أنت مهتم بالأمر؟ هذا ليس إجباريًا، بإمكانك التخلي عن ذلك" ...

ابتسم الشاب لتسفيقا وهزَّ رأسه: "أجل، أجل ... كل شيء على ما يرام" حسنًا يا صديقي" تعامل معه تسيفقا كما يتعامل الأب مع ابنه "سنمنحك الحق المحفوظ لكل جندي جديد. ستكون الأول بعد جنود المناوبة".

وكما هو متفق عليه ظهر جلسبرج عند مدخل الحجرة وكله أنوثة ورقة. ولا أدري من أين أحضروا الشعر المستعار وأحمر الشفاه والعطور بأنواعها. نظر إليَّ بلطف ودعاني بحركة بسيطة إلى الدخول.

دخلت في الوقت المناسب. لم أعد أستطع الاحتمال وانفجرت في ضحك مكتوم. وانضمَّ إليَّ جلسبرج في الضحك وهو يحذرني من عدم الإيقاع بهم. مكثت فترة بسيطة وخرجت من ركن الخلوة بابتسامة تنم عن رضا تام. وهو ما حدث أيضًا مع "رجال المناوبة" وما أن انتهينا حتى جاء دور الجندي الجديد. اختلس نظرة إلى تسفيقًا الذي أشار له بإماءة رأس أن دوره قد حان.

وقف لحظة عند مدخل ركن الخلوة، ورتَّب شعره مرة أخرى، وتفحص منظره العام للمرة الأخيرة ثم دخل. كان التوتر في الحجرة في ذروته. ساد هدوء كامل للحظات سُمع بعدها صوت صراخ يصم الآذان، خرج من بعده الشاب وبنطلونه مخلوع وعضوه الذكري ظاهر. أسرع تسفيقا إليه: "ماذا حدث؟".

"إنها تعربد" اشتكى.

"ماذا صنعت؟"

لم يجب الفتى وربت تسفيقا على كتفه: "يجب أن تفهم" أوضح له في هدوء "عليك التصرف معها بطلف. ولا تظهر لها إنك ترغب في الحصول على شهوتك فحسب مثل البهائم، فهي مجرد فتاة متطوعة. داعبها أولًا واجعلها تتعرف عليك وبعدها افعل ما تشاء. هل يجب أن أعلمك؟"

توجه الشاب الذي كان قد ارتدى ملابسه إلى ركن الخلوة مرة أخرى. وظهر التوتر والقلق على وجهه هذه المرة. تردد قليلًا ثم دخل ثانية. ساد الهدوء مرة أخرى .. هدوء طويل متوتر. شاهدت أنا وبولسكي، ويوسي جرشون ما يحدث من فوق أرجوحة شبكية علوية متخفين تحت بطانية. وفجأة سُمع صوت صراخ آخر أقوى من الأول بكثير وانفتحت الخلوة وخرج منها الشاب وجلسبرج ملتصقين ببعضهما البعض، كان المشهد كما لو كان مأخوذ من كابوس جنسي؛ حيث جلسبرج يشد الشاب من عورته بقوة ويحاول الأخير التخلص من قبضته.

"لا أريد ممارسة الجنس" صرخ قبل أن ينفجر في البكاء.

"لا أريد ممارسة الجنس، لا أريد، أنا متنازل!".

لكن جلسبرج لم يستسلم واستمر في شده بقوة، والشاب يضربه بيده الأخرى بقوة محاولًا التخلص من تلك الفتاة الغريبة التي تعربد كالحيوان المتوحش.

"اتركيني! لا أريد، لا أريد" ...

اختلط صراخه بضحك شديد لكل الحاضرين في الحجرة، وكذلك تسفيقا الذي صعب عليه الآن الحفاظ على رباطة جأشه التي تميز بها. أو أنه لاحظنا في ذلك الوقت وتوقف. في تلك اللحظة كان جلسبرج قد خلصه من القبضة المرعبة، وكذلك من تنكره. نظر الشاب إلينا وإلى جلسبرج فأدرك على الفور الفخ الذي وقع فيه بكل سهولة فسكت عن الكلام وأصيب ببعض الفزع. اقترب منه جلسبرج وقال:

"هل تظنني أحمق مثلك؟" سأله في جدية تامة وبصوت رجالي، كالمعتاد.

عانى الشاب بعد ذلك لأسبوع كامل من آلام شديدة أثناء التبول، لكنه أصبح بعد ذلك بحارًا من الدرجة الأولى.

تفتيش جائزة المرفق

قابلت يوسي جرشون بجوار سلم السفينة وأنا في طريقي إلى كانتين الأسطول، فاصطحبته معي. كان هناك كثير من الجنود يتسكعون هناك محتشدين عند الكانتين بأعداد كبيرة. وفي ذلك الوقت كان الدخان والضجيج يملآن القاعة. وكانت صيحات "أهلًا فلان بما أنك واقف في الصف فلتشترِ لي "تاساس" — مشروب غازي — و"تايم" — نوع من السجائر — كان هذا أمرًا اعتياديًا، ويمكن القول إنه أصبح روتينًا يوميًا. فالذي يقف في الصف يشتري لزميله ما يحتاجه وفي المقابل يُحافظ له على مقعد للجلوس.

طلبت ساندوتشات ومشروب ليوسي ولنفسي. لم تعد هناك أماكن خالية للجلوس، لذا وقفنا وسط الجموع نأكل ونحن واقفين. وفعل مثلنا جنود كثيرون لم يجدوا مقعدًا خاليًا. "ما هي فرصتنا في رأيك؟ سألت يوسي بشكل ارتجالي، عن تفتيش جائزة المرفق المقرر أن يجري بعد ساعات قليلة. أرجع كتفيه إلى الوراء "أظن أننا سننجح". "أجل، إذا لم يتخطوا البوصلة والمدافع التي قمت أنا وفينجولد بتنظيفها". ضحك يوسي ضحكة بسيطة: "أجل .. ولينظروا بالمرة أيضًا إلى مصابيح الإشارة".

"هل عملت عليها جيدًا؟"

"عليها فقط؟ لقد أُنهكت تمامًا في هذين اليومين!"

انضم تسفيقا جويخبرج إلينا وهو لا يزال يلهث من الجهد الذي بذله كي يخرج من بين الجموع المحتشدة على مائدة المبيعات. كانت لديه معلومات عن التفتيش الذي يجري الآن في تلك اللحظات.

"هم الآن في مركز التدريب"، قال.

"سيتوجهون بعدها إلى القاعدة العسكرية ومنها إلينا".

"وبعد حوالي ساعة"، قال لي "سيذهبون إلى قاعدتك. كيف هي الأحوال هناك في الأعلى؟"

عرفت تقريبًا الإجابة التي يتوقعونها مني لذلك أجبت: "لا أدري ما الذي يحدث في القاعدة. لكن إذا فتشوا جيدًا في الغرف وتحت الأسرَّة وفي خزَانات مشغلي الرادارات سيعثرون على وسائل منع حمل هنا وهناك قد تم استخدامها، وصدريات نسائية تم نسيانها، وأعقاب سجائر ملطخة بأحمر الشفاه، وما إلى ذلك" ...

"ألهذا الحد الجنود هناك غير جادين؟" قال يوسي.

"من يدري؟!" تظاهرت بالسذاجة. "ربما استطاعوا النهوض من فراشهم ووضع كل شيء في المخبأ السري[١٠]".

تثاءب تسفيقا بقوة قائلًا:

"من أين لكم بمخبأ سري؟" قال في اهتمام.

"في أرضية إحدى الحجرات المصنوعة من الخشب، تم عمل فتحة كبيرة مربعة بطول نصف متر وعرض نصف متر، في أيام الإنجليز على ما يبدو. ولأن أرضية المكان كانت مرتفعة قليلًا فقد أصبح يشبه الحجرة الصغيرة فوضعنا فيه ملابسنا المدنية، وزجاجات لم نحضرها من الكانتين، وأوراق اللعب، ومختلف

[١٠] مخابيء سرية من فترة الانتداب البريطاني كان يخبأ فيها السلاح.

أنواع المجلات المحظورة. و كنَّا، في بعض الأحوال أثناء حدوث زيارات مفاجئة "وقد كنت أكذب" نخبيء فيها الفتيات اللاتي كنَّا نحضرهن من الخارج".

طأطأ يوسي رأسه مقطبًا حاجبيه في محاولة لاستيعاب الأمر.

"أقسم أن هؤلاء الفتية يعيشون حياة مرفهة!" قال بعد تفكير قصير: "فاسقون"، كان ذلك رأي تسفيقا.

"أسألك إذن، ماذا سيفعل شاب صالح مثلي في هذا الوكر من العصاة؟" "أجـــــل"، أطال تسفيقا الكلمة مؤكدًا على نطقها. "كان ذلك بالتأكيد السبب الوحيد لطلبك الانتقال!"

كدنا نصل إلى سلم السفينة عندما سمعنا صوت صفارة تأدية التحية العسكرية، فوقف كل جنود السفينة في وضع "انتباه"، كما ينبغي. وصل قائد السفينة وهو يخطو خطوات كبيرة ويرد التحية العسكرية في ناحية العلم. وفي كل مرة كان يدخل فيها السفينة أو يخرج يُسمع صوت صفارة آداء التحية العسكرية. كان يرتدي زي الفسحة النظيف والمكوي. وكان منظره مؤثرًا للغاية وعندما مر بجوار سلم السفينة أطلقت صفارة انتهاء وضع "الانتباه". "نحن محظوظون" قال روبيو الميكانيكي، بأن لديه مرحاض ملاصق لحجرته وليس خارج السفينة، وإلا كان علينا الوقوف في وضع "انتباه" في كل مرة يريد فيها استخدام المرحاض" ..

لفت ضحكنا المفاجيء انتباه القائد الذي لم يكن قد وصل إلى حجرته بعد؛ فالتفت إلى الوراء ونظر إلينا وأدرك أن النكتة كانت لها صلة به. خشينا للحظة

من رد فعله الغاضب؛ لكنه ابتسم فقط وحرَّك رأسه كمن يريد أن يقول "المعنويات أهم شيء، يا جماعة". ثم صعد السلالم ببطء متجهًا إلى حجرته.

لقد وصلوا وقت استراحة الظهيرة؛ مجموعة كبيرة من الأطباء وكبار الضباط من قيادة سلاح البحرية، وضباط مهمات من سلاح المهمات، ومراسلون عسكريون. استقبلهم قائد السفينة ونائبه الرقيب كلايمونت وقادة الفصائل بجوار سلم السفينة.

ذكَّرَت هذه الزيارة كل رجال الطاقم بتفتيش جائزة المرفق للعام السابق. كان هناك عجز في الأفراد، وكان الجدول زمني مزدحمًا للغاية ما أدى إلى عدم دهان كل الجانب الأيمن للسفينة أثناء التفتيش. وكانت هذه مشكلة كبيرة بالنسبة للرقيب السفينة كلايمونت. فعدم الفوز بالجائزة شيء وترك مدمرة نصفها صدىء شيء آخر تمامًا. كان هناك شعور لدى الطاقم أن التفتيش لن يمر بسلام وأنهم سوف يشهدون أيامًا صعبة من العمل المضني عندما تقرر اللجنة وجود إهمال شديد في صيانة السفينة يصل إلى حد الجرم.

هنا ظهر الرقيب كلايمونت كبارع في حسن التصرف؛ حيث استقبل رجال التفتيش وأدخلهم من الجانب الأيسر للسفينة ثم مر بهم عبر الأماكن المجهزة ثم تأخر بهم لفترة طويلة وهو يشرح لهم في حماس تشغيل الأقسام الموجودة على الجانب المجهَّز. وفي كل مرة يحاولون فيها ترك الجانب الأيمن كان يجذبهم بيديه ليشاهدوا نقاط أخرى لإخماد الحريق "فريدة، مع شيء جديد اخترعناه". وفي النهاية، عندما لم يتبق شيء مهم، اصطحبهم إلى حجرة طعام الضباط "لدي مفاجأة لكم" قال لهم وهو يشير إلى الموائد التي جهَّزها مسبقًا

وهي مكتظة بما لذَّ وطاب من لحم طير مع صوص الفطر وحتى بودنج الأناناس. فقرروا بالتأكيد أنهم شاهدوا ما يكفي وبدأو الأكل في نهم بتشجيع من الرقيب وضباط السفينة المبتسمين، وكانت المشروبات الكحولية تقدم بسخاء.

كانت النتيجة "فوز المدمرة إيلات بالمركز الأول" لكن يوجد هذه السنة مفتشون آخرون يحملون الدفاتر في أيديهم ويسجلون كل تقديراتهم. لكن السفينة كانت مستعدة هذه المرة، وعرفنا من تعبيرات وجه الرقيب كلايمونت أنه مؤمن بالفوز وواثق منه. تجوَّل الزائرون في كل أقسام السفينة ما يقارب الساعة. فحصوا كل ركن وكل نقطة فيها بدقة متناهية وفي النهاية بعدما غادروا، تبقَّي فقط المشككون من أفراد الطاقم المتخوفين من خيبة ظنهم هذه المرة. أما الأغلبية فكانت متحمسة كثيرًا بأن تقليد الفوز بالكأس لن يتوقف هذا العام.

تمرينات، تمرينات

خط أبيض من غثاء البحر ممتد بعكس اتجاه إبحار السفينة كما لو أن فقاعاته الكثيرة غاضبة من الكتلة الفولاذية الكبيرة التي تقض مضجعها، وكأنهم يحاولون إلقائها فوقه في غضب شديد. وفي داخل هذا الغثاء الأبيض شُق خط عميق ليشير إلى مكان تلامس رفاصات السفينة الضخمة. وعلى مسافة عشرة أمتار من المؤخرة كان يختفي هذا الخط بين كرات الغثاء المطبقة عليه. إلا أن بعض قطرات الماء قد نجحت في اجتياز خط المؤخرة وضرب السفينة في بهجة الانتصار.

في تلك اللحظة أمسكتُ بحبال مؤخرة السفينة محاولًا الحفاظ على توازني مع كل تمايلات السفينة ففي انتظارنا يوم مثير. كنت أفكر محاولًا تذكُّر البرنامج كما قاله الرقيب في مكبرات الصوت.

- ٨:٠٠ — ١١:٠٠ تمرين نقل شخص في البحر
- ١١:٠١ — ١٣:٠٠ تمرين إطلاق النار على شريط طائرة.
- ١٣:٠١ — ٢١:٠٠ الإبحار إلى منطقة «رمَّانة».

كنت أشم رائحة المغامرة والنشاط؛ فنقل أفراد وإطلاق نيران على شريط طائرة[١١] كانا شيئًا جديدًا بالنسبة لي، أما الإبحار في منطقة رمانة — بورسعيد، فكان جديدًا بالنسبة للطاقم كله. إن الغرض من وجودنا في هذه المنطقة هو منع أي نشاط للقوات الخاصة المصرية في منطقة القنطرة وإظهار السيادة الإسرائيلية

---

[١١] حيث تقوم الطائرة بجر شريط قماشي خلفها وتقوم المدمرة بالرماية بالمدفعية تجاهه.

على هذا الجزء من البحر المتوسط. انتابني شعور غريب عند التفكير في هذه الدورية البحرية – نوع من الخوف ممزوج بالفضول حول لقاء المجهول. سنكون على خط النيران، خط المواجهة. فالجو العام مازال في أيام ما بعد الحرب — على الرغم من وجود جو عام من الهدوء الوهمي والعودة إلى الحياة الروتينية — مشحونًا بالمتفجرات والتوتر الشديد.

أَنظر إلى الخط الذي تشقه السفينة في المياه، وأمتطي ذكرياتي بعيدًا في الماضي. كان ذلك بالنسبة لي إشارة إلى اندماجي في حياة السفينة، فلم أشهد من قبل لحظات أستطيع فيها التفكير والتأمل؛ فكل شيء كان مرتبكًا وغير منظم حتى ذلك الحين، وكأنهم كانوا يحاولون حشو رأسي بكل علوم البحار وأسرار المدمرة في يوم واحد. غير أن ثقتي قد عادت إلي اليوم ولم يصبح عملي في السفينة بمثابة مهمة مستحيلة.

أعود إلى المدرسة الزراعية في «كفر جاليم»[١٢]؛ حيث كنا نهرب أنا و«طوفا» من درس الدراما ونسير تجاه البحر. كنت أملك وقتها شوقًا كبيرًا للبحر، وقضاء بضع ساعات في صحبة الأمواج كان بالنسبة لي كأني حظيت بالدنيا وما فيها. نعبر فوق شريط القطار، ونقطع كل الطريق في صمت. كان ذلك اللقاء الثالث أو الرابع لنا. وكان الظلام شبه تام، فقط بعض الأضواء الليلية من ملعب كرة السلة هي التي كانت تضيء طريقنا إلى الشاطيء قليلًا.

نظرت إليها فغمرتني موجة من المودة والإعجاب: فهي طويلة العنق، وشعرها البني المموج المربوط للخلف، وعظام وجنتيها البارزة، وأنفها المدبَّب، وعيناها

[١٢] مدرسة داخلية وقرية للشباب في شمال إسرائيل. تقع بالقرب من طيرة الكرمل.

المبتسمتان في حزن، كل ذلك يضفي عليها صورة نبيلة من نبلاء القرن الثامن عشر. أحسَّت بنظراتي فانفرجت شفتاها في ابتسامة غامضة. وصلنا إلى الشاطيء وبحثنا عن صخرة مناسبة نجلس عليها. كان الوقت مازال مبكرًا، ومنحنا موعد بداية الدرس ساعتين.

"غريبٌ" قلت عندما جلسنا. "كم أخشى من إرسال يدي إليك". ابتسمت مرة أخرى وكان النصر فقط هو حليف ابتسامتها هذه المرة.

"حتى إذا كنت لا تخشى، لن يكون في مقدورك" ..

"هل ما زال مبكرًا؟" سألتُ في حذر.

"كلا" أجابت مبتسمة، وهي ترسم أشكالًا على الرمال، "لا أرى أن علاقتنا قائمة على هذا. فحتى الآن ونحن نستمتع بصحبتنا وأي تقارب جسدي سيفسد ذلك".

موجة قوية مفاجئة لطمت سطح السفينة بشدة؛ فأفقت من تفكيري وأمسكت الكابلات بقوة. وفي السماء بالأعلى كانت تحلق بعض طيور النورس التي كانت تغطس في الماء من حين لآخر ثم ترتفع مرة أخرى وهي تصيح مبتهجة. أعود مرة أخرى للذكريات وأستعرض صداقتنا حتى الآن. فنظرتها لعلاقتنا كانت توجه شكل التواصل بيننا بشكل قاطع وصارم. فعلى مدار السنوات التالية لم نشعر بحاجة إلى تقارب جسدي، فصداقتنا قد بنيت في الأساس على الحوار والنزهات والمراسلات. وفي كل لقاء كانت تصيبني لحظة ضعف كنت أحاول فيها إرسال يدٍ أو إصبعٍ في تردد شديد ... لكني كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة، ولم أنجح أبدًا في فهم هذا الخوف. ربما كان ذلك

بسبب رد فعلها البارد على محاولاتي، ربما كان ذلك الشعور العميق تجاهها هو الذي منعني من "تدنيسها" بلمسي إياها، وربما كان ذلك الشكل الخاص لعلاقة الصداقة والاحترام المتبادل بيننا. قطع الصوت المعدني الذي انطلق من مكبر الصوت ذكرياتي وأعادني إلى السفينة، وكان الإعلان مهمًا وقصيرًا: "بداية التمرين على نقل الأفراد في البحر".

تركت حبال مؤخرة السفينة في أسف وبدأت أخطو نحو موقعي. وظهر بحارة كثيرون وهم في طريقهم إلى مواقعهم وهم يرتدون سترات النجاة أثناء المشي. وعلى بعد حوالي مائة متر كان من الممكن مشاهدة المدمرة الشقيقة «يافا» التي ستشارك في التدرب. كانت تبحر ببطء بغرض الوقوف أمامنا وموائمة سرعة إبحارها مع سرعة إبحارنا.

لتمرين نقل أفراد أو معدات في البحر عدة أهداف. ومهمة التدريب الرئيسة هي نقل المعدات من سفينة إلى سفينة، من سفينة إمدادات إلى سفينة حربية بشكل عام. ففي الوقت الذي تمضي فيه السفينة وقتًا طويلًا في البحر، للتدريب أو المناورة أو أثناء المعركة تكون هناك حاجة إلى نقل الإمدادات من الطعام الطازج وقطع الغيار، والذخيرة والوقود وحتى الرجال كتعزيزات؛ حينها يتم استخدام قواعد نقل الأفراد أو الإمدادات في البحر.

هناك ميزات كثيرة للقيام بعملية نقل الإمدادات أو الأفراد أثناء الإبحار — بخلاف القيام بها أثناء الرسو. فمن أجل الحفاظ على سلامة القطع البحرية والرجال والإمدادات يكون من الأسهل القيام بذلك أثناء الإبحار؛ فأثناء الإبحار يسهل الحفاظ على مسار السفينة وسرعتها وثباتها، فالسفينتان الكبيرتان لا

تستطيعان الاقتراب من بعضهما البعض دون التعرض لخطر التصادم؛ لأن السفينة غير المبحرة لا يمكن السيطرة عليها. فضلًا عن أنه من الممكن أن توجه إحدى السفن مقدمتها، المعرضة للأمواج والرياح، في اتجاهات مختلفة وعدم القيام بما يتفق مع توقعات السفينة الأخرى المجاورة لها. لذلك تتم عمليات النقل خلال حركة السفينتين حيث تبحر إحداهما في مسار وسرعة محددين وتوائم الثانية نفسها معها. ويشمل هذا التمرين في أوامره الدائمة تعليمات الانفصال في حالة الطواريء حال تعرض المدمرة لاعتداء من قبل قطعة بحرية أو من طائرات معادية.

قابلت «صَبَان» بجوار المطبخ. "موشه ليفي!" توجه إلي.

"أنت مسرَّح من موقعك أثناء التمرين" ووضع يده على كتفي.

"أعتقد أننا سنكتفي بستة بحارة فقط".

"شكرًا" أجبته.

"سيمكِّنني هذا من رؤية تنفيذ عملية النقل من نقطة مراقبة أفضل".

صعدت إلى قمرة القيادة، وكان القائد يجلس على مقعد القيادة، في توتر ومستعد لإصدار التعليمات.

"مسلاوي!"

وقف أريه شفارتس بجوار المدفع ٠٥، وهو يخفي نفسه جيدًا عن قمرة القيادة حيث كانت نقاط القتال لا تعمل أثناء التمرين العملي لنقل الأفراد باستثناء مشغلي المدافع.

"تعال!" ناداني.

"لو تزاحمنا بعض الشيء سيصبح هناك مكان لك".

حاول المدفعجي المناوب الاعتراض، لكن نظرة أرية الودودة وابتسامته جعلته يتراجع.

وأمامنا كانت السفينة «يافا» قد اتخذت موقعها؛ فقد أبحرت حتى أصبحت تسير موازية لنا بالضبط، المقدمة إلى جانب المقدمة. وفي غرفة محركات المدمرتين اجتهد الميكانيكيون في الحفاظ على ثبات دوران المحركات وعلى سرعة تنفيذ الأوامر التي يتلقونها من قمرة القيادة.

تعدُّ عملية نقل الأفراد في البحر معيارًا حقيقيًا لاختبار كفاءة رجال الأطقم البحرية في أساطيل العالم كله؛ فهي عملية تحتاج إلى تناغم دقيق في سرعة الإبحار وفي سرعة إقامة الجسر، وإلى قدرة ملاحي السفينة على القيام بالحد الأقصى من المناورة، وإلى قدرة القادة على التحكم في الذات وسرعة اتخاذ القرارات.

سُمع صوت إطلاق وأُلقي حبل رفيع فوق سطح سفينتنا ليلتوي في الهواء وفي غمضة عين أمسكه بحارة المدمرة الأخرى المدربون. قام هذا الحبل – الرسول – بأول اتصال بين سطحي السفينتين. استمرت المدمرتان في شق غمار البحر محاولتين الحفاظ على خط متواز بينهما. وخلق شكل مقدمتي السفينتين اللتين تتحركان في تناغم بدون تلاصق أو تأخر عن بعضهما البعض، انطباعًا مضللًا بأن محركًا واحدًا يدفعهما.

وفي اللحظة التي أمسكت فيها الأيادي السريعة لملاحي السفينة «يافا» بالحبل الأول بدأت عملية إرسال كابل آخر أغلظ بكثير تم ربطه في طرف الحبل

الأول. وفي الطرفين بكرتان مثبتتان سمحتا بحرية حركة الكابل الذي سيقوم بنقل الفرد.

وقف بجانب قاعدة الإرسال على السفينة الرقيب أول «أوري مناحِم» مربوط في حزام ومستعد للتعلق فوق البكرة الناقلة. قام بتفحص الأمواج بنظرة احترافية، كما فحص الهواء في سترة النجاة ثم انتظر. وصل الكابل إلى هدفه، ووقف القائد في قمرة القيادة ممسكًا بنظارة المراقبة في يده ثم أعطى الأمر على الفور. لا يجب إهدار ثانية واحدة. ألقى أوري بنفسه من فوق سطح السفينة وفي لحظة وجد نفسه معلقًا بين غولين بحريين رماديين، وأسفله بحر هائج، ومصيره مرتبط بأيادي الميكانيكية في غرف المحركات وبكفاءة المحركات، هكذا تقدم نحو هدفه مع تعالي الصيحات الإيقاعية من سطحي السفينيتين.

كانت الأوامر تصدر لغرف المحركات بصوت واضح وسريع. وكانت ثوان تفصل بين صدور الأمر وبين تنفيذه وهو ما أخذه القادة في الحسبان.

"منتصف الدفَّة!"

"١٠٠ استدارة المحرك!"

"٢٨٠ حافظ على المسار!"

سُمع صوت جرس في قمرة القيادة قادم من غرفة المحركات وهو ما يعني أن الميكانيكي قد تلقى الأمر وينفذه. الرقيب أول أوري يقترب. وتصنع رفاصات السفينتين دوامات كبيرة أسفلها، ويحاول أوري عدم النظر إليها. ارتفع صوت الصياح الإيقاعي مع التصفيق الشديد في المدمرة الشقيقة مع كل سنتيمتر قطعه أوري في طريقه إليها.

"أوري! أوري! أوري!".

إيقاع واحد آخر وسرعان ما يضع الرجل قدمه على سطح السفينة «يافا»، ويتحرر من حباله ويلوح لنا بالتحية. يتصاعد تصفيق حاد لفتيان أشداء من الجانبين في الهواء. ثم ينطلق مكبر الصوت مرة أخرى معلنًا: "انتهى تمرين نقل الأفراد في البحر".

كانت تلك العملية عملية تقنية بحتة، وليس توترًا يكتم الأنفاس حول مصير الزميل الذي خاطر بنفسه آخذًا على عاتقه تقديم هذا البيان الحي. وأن أي عطل صغير أو كابل ضعيف أو رباط غير صحيح للبكرة أو أي تأخر أو إسراع لإحدى المدمرتين، لوجد أوري نفسه وسط دوامة كبيرة بين رفاصين عملاقين لم يكونا ليبقيا من جسده سوى قطع صغيرة من اللحم. تنفس القائد الصعداء وارتسم الهدوء المشوب بالرضا على وجهه. لقد نجح التمرين.

أَنظر إلى أريه وإلى الجندي على المدفع الذي أبدى استعداده بأن يكون الفرد الذي سيتم نقله في التمرين المقبل.

"عبيء استمارة ٥٥ لطلب النقل" اقترحت عليه.

"أنا مستعد لكن إلى حيفا".

"هل تعتقد أن الكابل سيحتمل؟" سألت في شبه جدية.

"ليصدقوا أولًا على الطلب وسأجد الوسيلة".

نظر إليه أريه فانطلقت منه ضحكة صغيرة "لطيف"، قالها في سخط.

"ستخرج من هنا إما على نقالة أو في سترة نجاة".

وافق الفتى على كلامه الأخير بإيماءة كالراضي بمصيره، ثم توجه إلى موقعه. جذبتُ أريه من يده "هيا بنا نذهب إلى مركز معلومات القتال لرؤية الورق الشفاف[١٣] فبعد ربع ساعة سنبدأ في تمرين إطلاق النار على الطائرت".

في الساعة ١١:٠٠ تمامًا ظهرت طائرة من طراز «نورد» في أطراف السماء، وفي الوقت نفسه أعلنت مكبرات الصوت عن تمرين المواقع القتالية ضد الطائرات.

صعدت سريعًا إلى نقطة المراقب الأيمن في القمرة، وربطت حزامي وأنا أركض إلى النقطة؛ وكما هو مقرر أقوم بتقديم تقرير فور وصولي: "مراقب، أخضر[١٤]، مفترس[١٥] ٠٥٠ متوسط" أي – المراقب الأيمن يعلن عن وجود طائرة مجهولة موجودة في اتجاه شمال شرق على بعد ميل تقريبًا. "القمرة، روت"، جاء التأكيد على تلقي المعلومة، هكذا واصلت تقديم تقرير كل دقيقة.

تمر الطائرة فوقنا وتعطي إشارة بجناحيها، فترد المدمرة على ترحيبها بالإبحار في خط زجزاجي. تدور الطائرة ثم تهبط مرة أخرى إلينا. وفي هاتين الطلعتين على المراقبين والمدفعيين التعرف على الطائرة كي لا يتم إطلاق النيران عليها في حالة وجود إنذار حقيقي.

---

١٣ يوجد في مركز معلومات القتال مائدة وعليها زجاج الإكريل. وكانت هناك إضاءة حمراء فوقه تمثل تحركاتنا وما يدور حولنا. يقوم البحارة بنقل البيانات على ورقة شفافة، وبعد انتهاء العملية يتم إرسال البيانات إلى قمرة القيادة.

١٤ الجانب السفينة الأيمن.

١٥ طائرة مجهولة.

وبعد الطلعة الثانية تنطلق من جسم الطائرة فجأة كتلة برتقالية كبيرة تتحرر بسرعة وهي تسحب خلفها حبلًا طويلًا. تمر دقيقة أخرى حتى يظهر أمامنا شريط من القماش بطول خمسة أمتار ساطع اللون ليكون هو الهدف الحي لمدافع المدمرة. ويفصل بين هذا الشريط والطائرة كابل أمان بطول ألف متر تقريبًا.

ترتفع الطائرة وتوازن جناحيها ثم تغوص نحونا. في هذه الطلعة أيضًا لن يتم تشغيل المدافع؛ حيث الغرض من هذه الطلعة السماح لموجهي المدافع بضبط أسلحتهم وهو أمر ممكن ومطلوب في مثل هذا التمرين من أجل توفير الذخيرة. لكن في أثناء حدوث هجوم جوي حقيقي لا يتم الضبط المسبق إنما تطلق النيران وتضبط الأسلحة خلال المعركة نفسها.

صوت هدير قوي يصم الآذان يصاحب غوص الطائرة فوقنا. تقترب الطائرة كثيرًا للدرجة التي يمكن فيها ملاحظة وجه الطيار ثم تعود إلى الارتفاع في السماء مرة أخرى. وتظهر ثانية بعد فترة قصيرة أمام مقدمة السفينة كنقطة صغيرة تكبر بسرعة. وفي هذه المرة أيضًا لن يتم إطلاق النيران لكن هذه الطلعة من أجل التوجيه الداخلي. وكادت مكبرات الصوت لا تحتمل هذا الضغط.

"منظومة المدفعية، الزموا مواقعكم، الزموا مواقعكم!"

"مدافع حذرة" (أي لا يجب إطلاق النيران الآن).

"استعد لاطلاق النيران على الشريط!"

"النقطة ٣١ استعد!"

"٤١ تشغيل" (أي عبأ الذخيرة).

انتهت الطلعة الأخيرة دون إطلاق نار. تتحول الطائرة مرة أخرى إلى نقطة سوداء صغيرة بين السحاب لكنها ستظهر المرة القادمة من ناحية اليمين، وستمطرها المدافع بالنيران الحية الموجهة إلى الشريط الذي تجره ورائها. يعلن ضابط المدفعية عن كمية الذخيرة التي يحددها لمدافعه في هذا التمرين "تحديد ٢٤ للماسورة" أي ٢٤ طلقة لكل ماسورة مدفع. يسد القائد وبعض الضباط آذانهم بواسطة سدادة خاصة لمنع الجلبة الشديدة التي ستحدثها المدافع المضادة للطائرات بعد لحظات. الطائرة تقترب ومقدمتها موجهة ناحية الجانب الأيمن.

"النقطة ٤١ على" (أي، لحظة قبل الإطلاق) يأمر الموجه. "٤١ بشكل مباشر". "عُلم وينفذ" تتجه الطائرة نحونا كالنسر الذي ينقض على فريسته، هذه المرة من فوقنا تمامًا، وليس من أمامنا – ذلك لتجنب الحالات الخطيرة التي قد نطلق فيها النار على الطائرة بدلًا من الشريط. وفي تلك اللحظة سُمِع الأمر:

"المدافع حرة" (أي مسموح للمدافع بإطلاق النيران).

قام المصوب بتحريك ماسورة المدفع بضع مليتمرات ثم قام "المعبيء" بفتح سقاطة الأمان وقال "على الهدف" عندما أصبح جهاز تنشين الماسورة محكم على الهدف. ثم قام بضغط الزناد. اهتزت المدمرة قليلًا عندما رجعت فوهة المدفع إلى الوراء وخرج منها لهيبٌ أحمر. وبعد لحظة سمع صوت دوي يصم الآذان. كانت الطلقات ساطعة مما سهل ملاحظة إصابة الشريط بدقة. وصوت التهليل البسيط في القمرة أكد على إصابة الهدف بنجاح.

"٥:٥" أعلن المصوب.

"أوقف إطلاق النار!"

نظرتُ في الساعة فإذا قد مرت ساعة وكان يجب أن أذهب إلى حجرة مركز معلومات القتال فهكذا أستطيع مراقبة التمرين بسهولة حيث يمر كل الكلام بين مواقع أجهزة التنشين ومواقع المدافع أو بينها وبين القمرة عبر إنتركوم حجرة مركز معلومات المعركة. نجحت الطلعة الجوية أيضًا من ناحية الجانب الأيسر وصم أذنيَّ صوت القصف. قُدِّمَت التقارير بسرعة، وكذلك الأوامر كما لو كانت تقرأ من ورقة معدة مسبقًا.

انتهى التمرين بعد ساعة ونصف من بدايته بنجاح كبير وسيقوم الطيار بسحب الشريط إلى جسم الطائرة وسترسل نتائجه إلى قيادة سلاح البحرية للتقييم.

الإبحار الأول نحو الحدود المصرية

رفع أريه عينيه قليلًا إلى يوسي جرشون وهو مبتهج ثم فرك نردين بين كفيه ونفخ فيهما قبل أن يرميهما على لوح اللعب. كانت تعبيرات وجهه تدل على النتيجة؛ فلم يحصل في هذه الرمية أيضًا على الرقم ٧ أو ١١.

كان الجو في الغرفة مشحونًا وامتلأ الصندوق أكثر بالمال، ربما كان فيه أربعون عملة من فئة العشر أجورات سيضع الفائز بها ربحًا لا بأس به في جيبه. وبروح بائسة وضع أريه ١٠ أجورات أخرى ثم مرَّر لي النردين. أخذت النردين بعدم اكتراث محترف وبدون أن أمسحهما أو أنفخ فيهما قائلًا: "تعال يا حظ إلي"، وألقيت بهما على اللوح الخشبي. أضافت النتيجة هذه المرة أيضًا عملة أخرى إلى المبلغ الموجود في الصندوق.

نظرت في ساعتي .. نحن نبحر منذ ما يقرب الخمس ساعات متجهين إلى بورسعيد. أمعنت النظر في يوسي وأريه زميليَّ في اللعب، بعدما تأثرت قليلًا بما ينتظرنا؛ ما منعني من التركيز في اللعب. كانت تعبيرات وجهيهما تدل على أنهما لا يلاحظان اختلاف هذا الإبحار ووجهته.

أخذ الرامي التالي، يوسي جرشون، النردين مترددًا بعض الشيء كمن يخشى الفوز، وألقى بنظرة قصيرة فيها بعض العدائية نحو كومة العملات المكدسة وفي حركة خاطفة ألقى بما في يديه إلى صندوق اللعب. دار النردان مرة ومرتين، وقاما بالالتفاف حول بعضهما البعض، وفي النهاية أبطئا — كالقطيع العائد إلى عمله — في زاوية اللوح ثم توقفا؛ ليظهر العددان ٣ و٤ أعلاهما.

"٧!" صرخ أريه ضاربًا الطاولة بيده".

لقد فزت يا لعين!"

شرع الفتية من حولنا، الذين كانوا يتابعون اللعب بشغف كبير، في الانصراف وهم يتمتمون "كنَّا نعلم"، "كان هذا واضحًا"، "من غيره سيفوز". نظر يوسي إلينا في خجل بعض الشيء، كما لو كان يبحث في نظرتنا عن تأكيد على فوزه ثم قام بجمع العملات ووضعها في جيبه وهو متردد. كانت النزاهة تجبره على مواصلة اللعب. وكان ذلك في الحقيقة مشكلة كبيرة بالنسبة له: فإذا عرض الاستمرار في اللعب فسيُظنُّ أنه جشع يريد الاستمرار في جمع المال، وإذا طلب عدم اللعب فسيظنون أنه سرق أموال أصحابه ونهبها بطريقة غير لائقة. لذلك كان صوته متشككًا عندما سأل: "هل تريدون الاستمرار؟"

"كلا" قال أريه نيابة عني أيضًا.

"اذهب واستمتع!"

كان أريه يحب يوسي كثيرًا وتقبل فوزه كأمر بديهي:

"سأهزمك يا حقير يوما ما! سوف ترى!" قال له متوعدًا.

وابتسم يوسي الذي كان يشعر في كل فوز كهذا بنوعٍ من عدم الارتياح.

"سأسعد كثيرًا إذا فعلت"، رد بكل صدق.

"ما رأيكم في أن نصعد إلى السطح؟" اقترحت.

"لن يضير هذا حقًا". قال أريه موافقًا على الصعود؛ حيث استقبلتنا نسمة هواء لطيفة. كان الهدوء والسكينة يسودان المدمرة فباستثناء حركة أفراد الحراسة وحركة المحرك، لم يكن عليها أي نشاط؛ أما هؤلاء الذين يملكون الوقت ففضلوا الاستراحة قبل دخول منطقة "البردويل – حدودنا الجنوبية".

جلسنا في زاوية محمية من الرياح ومن رذاذ البحر. أشعل أريه سيجارة "سنصل بعد ثلاث ساعات"، قال وهو يسحب دخان السيجاة إلى رئتيه.

"هل أنت متأثر؟" سألت يوسي.

"لماذا أتأثر؟" أجاب مندهشًا.

"فيما تختلف هذه المهمة عن أي مهمة؟ كان من الممكن أن نقوم بها في منطقة أخرى تمامًا كرأس الناقورة على سبيل المثال؟"

"الأمر مختلف" قال أريه "فهذه الحدود كانت مشتعلة قبل شهر ومن الطبيعي أن يسود التوتر الشديد".

"لا أدري" تمتم يوسي. "فأنا مازلت لا أشعر بالفرق". "انتظر، انتظر" هدَّأته، "انتظر حتى يتم استدعاؤك كل عشر دقائق إلى المواقع القتالية، وأن تكون مَدَافِع الـــ٤,٥ بوصة في وضعية الاستعداد على مدار اليوم. وفي الليل تجد هدفًا معاديًا كل ساعة تقريبًا، وعندما تطلب أنت وأريه من مدمرة تحديد هويتها، وعندما يكون جليا لكما أنها ليست المدمرة «يافا»، سنرى وقتها كيف سيكون شعورك".

أنا أيضًا لم أشعر بهذا الجو الذي وصفته بعد؛ فالأمواج ولون البحر لم يتغيروا هنا أيضًا، باستثناء علمنا بأننا مبحرون في المنطقة الحدودية — حتى وإن رافقنا في هذه الرحلة، لاحقًا، زورقا طوربيد — فهذا كان كافيًا لإثارة قدر من التأهب لدى كل منَّا وربما لديَّ أنا أيضًا — كأحد أفراد الطاقم الذين لم يكونوا على ظهر المدمرة وقت الحرب — أكثر من أي جندي آخر.

وكعادته أضفى أريه على الموضوع قدرًا من السخرية: "تخيل!" توجه إلى يوسي، "أننا وصلنا، وقبل أن نقول 'جاك روبنسون'[١٦] تصطدم السفينة بلغم بحري ... وما ستبقيه الأسماك منك بعدها..." انفجر في ضحك شديد، "لن يكفي كلب السيدة "سونيا" في شارع الاستقلال[١٧]. "لا أدري". تمتم يوسي، "ألغام .. أسماك ... إنه مازال البحر المتوسط وهنا دولة إسرائيل".

في تلك اللحظة سُمع صوت فرقعة بسيطة فرقعة تصاحب دومًا تشغيل شبكة مكبرات صوت السفينة كلها. أصغينا، لأننا أدركنا أن هذا الإعلان لن يكون في صيغة "الرقيب ديب مطلوب في قمرة القيادة". فمثل هذه الإعلانات يسبقها صفير؛ أما هذه المرة كان يبدو أن الميكروفون لا يحمل أمرًا اعتياديًا.

"مساء الخير لجميع أفراد الطاقم"، سُمِع صوت أجش. "هنا القائد!"

كان الإصغاء تامًا رغم الصخب الذي سببته ضربات الأمواج لجسم المدمرة. وتبادلنا أنا ويوسي وأريه النظرات.

"كما تعلمون" بدأ قائلًا "نحن الآن مبحرون إلى منطقة «رمَّانَة» والتي سنصل إليها بعد ثلاث ساعات تقريبًا. من ناحية النشاط المعتاد لن يكون في هذه المنطقة أي اختلاف عن نشاطنا السابق. فستكون هناك مناوبات حراسة، بنفس

---

١٦ تعبير شائع الاستخدام يدل على سرعة القيام بالأمور. والمقصود هنا لم نكد نصنع شيئًا. ويقال أنه عائد إلى شاب إنجليزي حمل هذا الاسم كان ما كاد يصل إلى حفل حتى يغادره. وللتعبير تفسيرات أخرى بهذا المعنى.

١٧ نادلة بحارة سلاح البحرية في حانة مجاورة لمخرج الميناء (موجود لليوم).

المعدل. وستنفذ أعمال النظافة والصيانة والملاحة كالمعتاد. غير أنه من ناحية التأهب خلال الرحلة فعلينا مضاعفة قدراتنا".

توقف لوهلة – ربما لإعطاء الأمور أهمية – ثم واصل: "إنها منطقة حدودية والحدود ليست الوطن. وهذه ليست مجرد حدود بل حدود ساخنة وعدائية. فقبل شهر فقط دارت هنا حرب شعواء ودامية شاهدناها جميعًا وشاركنا فيها، ما ترتب عليها امتداد حدودنا البحرية بأكثر من مائة ميل أخرى. وحتى اليوم لم نكن نعرف ذلك الجزء من البحر المتوسط الذي انتمي إلى مصر حتى اندلاع هذه الحرب، وهو الآن تحت سيطرتنا ولا ندري كيف سيرد المصريون على دخولنا المنطقة التي كانت في حوزتهم حتى شهر مضى. الأمر الذي يستلزم منَّا أن نكون متأهبين على مدار ٢٤ ساعة، ومضاعفة اليقظة وتنفيذ المهام التي سنكلف بها برضا مضاعف. إن الجميع ملتزم بذلك بدءًا من رجال الاستطلاع الذين سيكون عليهم مراقبة شاشات الرادار مراقبة شديدة، وحتى موجهي دفة السفينة. "علينا جميعًا المشاركة في إنجاح هذه المهمة والمهام التي ستليها.

فهذه الرحلة سوف تضع حقائق جديدة على الأرض. ولا أعرف تحديدًا الوقت الذي ستستغرقه ربما شهر وربما خمس سنوات حتى نتلقى أمرًا آخر – والعمل سيتم في مناوبات. وبعد أسبوع من الدوريات البحرية ستحل المدمرة «يافا» محلنا، والتي ستقوم أيضًا بدوريات لمدة أسبوع، وهلم جرا".

نظرت إلى يوسي جرشون، الذي بدت على وجهه علامات التوتر. شعر أريه بنظرتي فابتسم لي فرددت له الابتسامة. استمر القائد في وصف تبادل الدوريات مع المدمرة «يافا» ثم قال: "ليس لدي أدنى شك في أمر استعدادكم

وفي قدراتكم. وسيبذل سلاح البحرية أقصى ما في وسعه ليمنحكم الحد الأقصى من الإجازات والترفيه. نحن الآن هنا، وبعد فترة قصيرة سيبدأ النشاط الاعتيادي وأؤكد مرة أخرى: أقصى درجة من اليقظة والتأهب! وبطبيعة الأمر سوف يتم استدعائكم للقيام بتمرينات في مواقع القتال الميداني والطائرات بمعدل أكبر بكثير من الذي اعتدتموه، واسمحوا لي أن أكون واثقًا في تفهمكم للأمر الذي نحن مقبلون على التعامل معه في القريب وفي استعدادكم للمساهمة في إنجاحه".

توقف للحظة أخرى ثم أنهى كلامه: "وكما ذكرت فإنه بعد ثلاث ساعات تقريبًا سنصل إلى المنطقة وسنبدأ المهمة. واعلموا أن أنظار القيادة متجهة إلينا اليوم في ترقب شديد. وأن نتائج هذه المهمة ستحدد الكثير من الخطوات مستقبلًا. وأنتم مشاركون في هذا القرار بقدر ليس بالهين، أشكركم على حسن الاستماع وأتمنى لكم التوفيق. عمتم مساءً". "آه" ... سعل يوسي. وبدا مرتبكًا شارد الذهن. ربت أريه على كتفه بلطف: "اسمع، ليس هذا ما يجب أن يبدو عليه الجندي الذي تتجه أنظار القيادة صوبه". خرجت ضحكة بسيطة وواصل: "نحن سنحدد الخطوات، يا صديقي، ألا تدري؟!"

"اسمع! هذه ليست مزحة" قلت.

"إنه اختبار صعب. فنحن سنضع حقائق غير مريحة، ومسألة كيف سيكون رد فعل المصريين لا تشغل المقدم ساسون ونائبه فحسب" ... "صحيح" صاح أريه "فهي تشغل نساءهم أيضًا ".

كان من الصعب جعل هذا الحقير جادًا عندما تكون معنوياته مرتفعة. فقد نظر إلى يوسي الذي كان لايزال مشغولًا في تأملاته: "طالما نحن هنا" أوضح له "يستطعن الاستمرار في الحصول على مضاجعات غير عسكرية على جبل الكرمل، هل تفهم؟" دوَّى ضحكه كالرعد وسط الصمت الذي ساد بعد حديث القائد. فلا شيء يغير حالته المعنوية. لقد كان أريه الشاب الذي تُفضَّل صحبته وقت الأزمات. ثم تراجع بعض الشيء وتوجه إلى يوسي مستفزًا:

"أخبرني، ألم تكن ترغب في أن تكون واحدًا من هؤلاء الضيوف؟"

" لم أكن لأعترض" أعرب يوسي عن رأيه أخيرًا.

"أتدري أي متعة في مضاجعة زوجة ضابط؟" استمر أريه كما لو كان لم يسمع يوسي.

"فكل مرة تضاجعها فيها ستُرقَّى رتبة، وإذا كنت جيدًا يمكنك أن تصبح رئيس هيئة الأركان؛ وتعود إلى السفينة وتبدأ في إعطاء الأوامر حتى للقائد نفسه".

التفت جرشون إليَّ وابتسم "أقسم لك أن به شيئًا غير طبيعي!" نظرت إلى أريه وأومأت رأسي متفقًا.

"هل تعلم لماذا لن يكون أريه واحدًا من هؤلاء؟" سألت يوسي في جدية مصطنعة، ثم قلت: "هو يعلم أن بهذه الطريقة ستسحب منه رتبة العريف". ارتفعت ضحكات أريه وهو ما جعلنا نضحك أيضًا. بدأ البحارة ينظرون إلينا في ذهول من كل اتجاه محاولين فهم سبب هذا الضحك. لقد استطعنا بصعوبة

كبيرة التخلص من أفكارنا للحظة، واستغرقنا جميعًا وبدون سبب مفهوم في هذا الاحتفال الترويحي.

المعركة البحرية الأولى
"معركة رُمَّانَة"

"الاتجاه ١٥٢ يا أحمق!" اكتسى وجه الرقيب برقان باللون الأحمر القاني، وبدا مثل البركان قبل انفجاره: "هل هذا ١٥٢؟!" صرخ في قنطروفيتس المذهول، أما الأخير فرفع المنقلة عدة مليمترات واضعًا إياها في الزاوية الصحيحة.

"حسنًا"، قال برقان في احتقار، "الآن قِسْ لي السرعة والمسافة، لكن سريعًا!"

أخذ قنطروفيتس البرجل الذي بجانبه وفتحه حتى لمس أحد طرفيه زهرة مضاءة على منضدة العمل – وهي النقطة التي كانت تشير إلى موضعنا – والطرف الآخر على نقطة أخرى – وهي مؤشر تماس حدَّده لنا الرادار.

"أر....بعة .. عشرة فا..صل ثمانية المسافة". قال في لعثمة بسيطة ثم مال على النقاط مرة أخرى ليحدد السرعة. كاد الرقيب برقان يفقد سيطرته على نفسه؛ فالبيانات التي طلبها تُقدَّم له في بطء شديد، وهو الأمر الذي أصبح مثيرًا للغضب في منطقة متوترة وساخنة: "هل أنت مستعد لتخبرني؟ ربما كانت طائرة؟"

"أجل ... أجل ... لحظة ... لحظة" حاول قنطروفيتس الحفاظ على هدوءه. أجريت حسابًا شفهيًا سريعًا في محاولة لإنقاذ قنطروفيتس من صراخ آخر: "تبدو سفينة تجارية، السرعة ١٢ عقدة"، قلت في هدوء.

"اخرس أنت!"، توجه إليَّ برقان وهو متوتر، "لم أسألك أنت!"

في تلك اللحظة توصل قنطروفيتس إلى نفس النتيجة:

"١٢ عقدة"، قال.

"حسنًا يا بطل"، أمسَك أنبوب الإنتركوم ثم أبلغ قمرة القيادة بالبيانات. وبعد تأكيد قمرة القيادة على استقبالها، توجه برقان إلى قنطروفيتس ونظر إليه في غيظٍ ظاهر: "مُشغِّل رادارات مستوى ٨[١٨]" قال ساخرًا قبل أن يختفي عند مدخل مركز معلومات القتال. وعند اختفائه تنهَّد قنطروفيتس: "يوما ما سيجعلني أنهار". قال عابسًا.

"لا تحزن!"، حاولت تهدئته "مازلنا لا نعلم ما الذي ستحمله لنا الرياح القادمة من الجانب الآخر من الحدود، إنه متوتر كثيرًا ويكاد ينفجر!" نظر إليَّ قنطروفيتس نظرة كئيبة. وبدا واضحًا إنه قد أدرك أن كلامي من أجل تهدئته.

"وهل كان هذا التوتر قبل هذا الأسبوع أيضًا؟! وقبل الحرب؟!" قال مجادلًا. لم أجبه. فقد أدركت أنه لا جدوى من ذلك. فالرقيب برقان كان "يتقصَّده" انتهى. كنت أشاهد أمامي في هذه اللحظة شخصًا لا حول له ولا قوة أثناء مهاجمة الرقيب له. وتخيلت أن أريه شفارتس هو الذي يتعرض لهجوم مماثل؛ فارتسمت الابتسامة على شفتي.

"لاعليك" ابتسم لي قنطروفيتس ابتسامة مريرة. "لن أضطر إلى تحمله إلى الأبد".

"لو تعاملت مع الأمر على أنه مرض" اقترحت عليه "فلن تعاني الآن أيضًا".

نظر إليَّ وأصبحت عيناه جادتين: "أعتقد أن هذا ليس بالحل السيئ" قال.

---

[١٨] المستوى السادس للمبتديء. المستوى الثامن للمتقدم، المستوى ١٢ الأكثر تقدمًا.

"لكني لم أقصد ذلك".

"لكن؟"

مسح قنطروفيتس قطرة عرق غير مرأية فوق جبينه: "لقد طلبت الانتقال إلى دورة البحارة التدريبية [١٩]" قال في شبه همس.

"جميل، وكيف كانت النتيجة؟"

"هناك احتمال كبير أن يتم قبولي، فقد اجتزت الفحوصات الأولية".

نظرت إليه في دهشة، فهذا الأمر لم أكن أعلمه.

"لا تخبر أحدًا بذلك!" طلب مني.

"بالطبع لا" وعدته. "أنت سعيد بذلك بالطبع".

هزَّ رأسه و هويقول: "نعم، جدًا".

"إن كان الأمر كذلك فهيا ننهي مناوبتنا في هدوء، ثم نذهب بعدها لسماع الموسيقى في القاعة ١١ [٢٠].

كان هناك نشاط كبير في الخارج من أجل الوصول إلى المواقع بعد نداء مكبرات الصوت بالقيام بتمرين مواقع القتال. لقد بدأت الجولات الاعتيادية في بحيرة البردويل. وبالتدريج، بدأت الأيام تمر ببطء. وأصبحت تمرينات القتال روتينًا مرهقًا، وكانت تجري في معدل مرتفع للغاية؛ كل عدة ساعات. وفي

---

[١٩] دورة تدريبية من يحصل عليها يترقى إلى رتبة ضابط بحار.

[٢٠] بمثابة نادي للبحارة على السفينة؛ حيث يتم عرض الأفلام، وإلقاء المحاضرات، والتدريس .. إلخ.

ظلمة الليل كانت مكبرات الصوت تقض مضاجعنا في نداءاتها لنا إلى المواقع بشكل شبه مستمر. نداءات حادة، قاطعة تجعل حتى ثقيلي السمع يقفزون من فراشهم كأنهم ينامون على يايات مشدودة.

وبالتدريج وبدقة متناهية تعلمنا استعمال طرقًا مختصرة وسريعة للوصول إلى المواقع، لدرجة أننا - بعد أسبوع واحد فقط من التدريبات - كنَّا نصل إلى مواقع القتال في أقل من دقيقة واحدة من لحظة إطلاق إنذارات مكبرات الصوت. كان الحذر شديدًا وأصبح التأهب سمة فينا. زادت "هجمات العدو" من صلابة حتى أضعف الشباب، وأصبح النوم لخمس ساعات متواصلة رفاهية.

أسبوع واحد فقط حوَّل طاقم المدمرة إيلات إلى "جسد واحد، إلى مقاتل صلب ومتحد"، فالتوتر الذي تمرسنا عليه جعلنا نتمنى حدوث أي تلاحم مع العدو، وأصبحت المعركة البحرية الحقيقية مطلبًا لنا.

غير أنه لم يكن هناك أي ظهور لرجال البحرية المصرية والتواصل الوحيد الذي كانت تقدمه غرفة الرادار هو السفن التجارية التي تدخل ميناء بورسعيد وتخرج منه. لقد صدق يوسي جرشون في تخمينه: باستثناء التدريبات الكثيرة لن يكون هناك أي اختلاف بين الدوريات في منطقة رأس الناقورة عن الدوريات في مياه رمَّانة.

وبعد أسبوع، بعد فترة قصيرة من توجيه مقدمة السفينة تجاه ميناء حيفا، ظهرت المدمرة الشقيقة «يافا» على الرادار فقد جاءت لتحل محلنا. فانتابنا إحساس بالفخر والرضا؛ فهم مازالوا لا يعرفون ماذا ينتظرهم؟

نظر القائد إلينا بعينين شبه مغمضتين من شدة حرارة الشمس الحارقة — وانتظر أن يعم الهدوء. كان ذلك بجوار منصة إطلاق الطوربيد الخلفي حيث يوجد متسع كاف للمتحدث والمستمعين. لم يتطلب الأمر أكثر من ثوان معدودة؛ فقد فهمنا من تعبيرات وجهه هو ومساعديه أن الخبر سيكون مفرحًا. لقد نجح الرقيب كلايمونت هذه المرة في ارتداء قناع صلب، وتجعد وجهه كما لو كان متشنجًا من محاولات السيطرة على ابتسامته.

"سادتي"، توجه القائد بصوت هاديء وأجش "لقد أكملنا بنجاح المهمة التي كلفتنا بها القيادة؛ وهي المهمة التي حملت معها الكثير من التوتر، والكثير من علامات الاستفهام وتأهب شديد. فقد رسَّخنا في هذا الإبحار، في منطقة بورسعيد، سيطرتنا الكاملة على هذا الجزء من البحر المتوسط الذي احتله جيش الدفاع الإسرائيلي في الحرب الأخيرة. ونحن نأمل، ونوقن من أننا قد تركنا منطقة هادئة ونظيفة للمدمرة «يافا»، كما نأمل أيضًا أن تستمر الدوريات الاعتيادية في العمل في المستقبل بشكل مفيد بدون أي منغصات.

أعلم أن تنفيذ المهمة ارتبط بمجهود بدني كبير من ناحيتكم. لقد تابعت عن كثب كل تمرينات القتال، وعليَّ أن أعترف أن هذا لم يكن سهلًا تمامًا. إن عدم الحصول على قدرٍ كافٍ من النوم، وتكثيف المناوبات، والتأهب الدائم، والعمل الكثير هو ما ميَّز أسبوعنا الأخير. أعلم أنكم في حاجة إلى الراحة وأظن أنكم ستحصلون عليها بشكل مُرضٍ حتى موعد الدورية المقبلة." ثم أرسل نظرة سريعة إلى نائبه:

"وباستثناء بعض الأمور الاستثناءية يمكنني القول وبثقة إني فخور بكم! ليس فقط بسبب تنفيذ الدورية الأخيرة على أكمل وجه، إنما هناك سبب آخر" توقف لحظة ونظر إلينا في ابتسامة. بدأ التوتر يثقل علينا مثلما كان قبل حديثه ثم زال خلاله.

"سادتي" استمر ليس بدون الشكل الدرامي، لكن بابتسامة عريضة: "يسعدني أن أبشركم بأنه بناء على القرار الذي أصدرته قيادات سلاح البحرية، وسلاح الطب، وسلاح المهمات فقد فازت السفينة "إيلات" مرة أخرى بالمركز الأول في مسابقة جائزة المرفق العسكرية!" واضطُرَّ إلى الصراخ تقريبًا في الكلمات الأخيرة، فالتصفيق الحاد الذي صدر مما يقرب من مائتي رجل كاد أن يصم أذنيه. فقفز البحارة على أقدامهم، وربتوا على أكتاف بعضهم البعض، وقذفوا قبعاتهم في الهواء.

استقبل فريشر الذي كان يجلس إلى جانبي الخبر بهدوء أكثر من الآخرين: فثقته بفوزنا جعلت إعلان القائد أمرًا بديهيًا. وفقط الابتسامة العريضة التي غطت وجهه هي التي دلَّت على أن الخبر قد أسعده هو أيضًا.

"مسلاوي!" صرخ فينجولد عامل اللاسلكي بسعادة. "لقد فحصوا جيدًا بالتأكيد البوصلات التي نظَّفناها معًا". وسمعنا من كل ركن فجأة أصوات "وهل المدفع الذي عملت عليه يومًا كاملًا؛ كلب حقير؟!"، "وهل تعلم كم بذلت من الجهد في دهان الجانب الأيسر؟!"، "والمدخنة؟!"

ترَكَنا القائد نبتهج كما نريد ولم يوقف الصخب. لقد أحس جيدًا أن هذا التنفيس العام كان في الحقيقة تنفيسًا عن العبء والتوتر الذي عشناه في الأيام

الأخيرة. وما أن هدأ الجو حتى ألقي "قنبلة" أخرى: وكدليل على تقديرنا وإعرابًا عن شكرنا قرَّرنا أن نقدم لكم جائزة حقيقة إلى جانب جائزة الطاقم التقليدية". اضطر إلى خفض صوته بعد الصمت الذي ساد فجأة: "وستكون الجائزة قضاء يوم بحري على شاطيء 'أخزيف' البحري للاستجمام ".

بدأ صوت ضجيج بسيط يتنقل بين صفوف الجنود، ثم تحول في لحظة إلى صخب عام وضجيج شديد. كان من الصعب إيقاف هذه البهجة. وتجمع البحارة اثنان اثنان وبدأوا في الإعداد للتتره الجماعي. لقد غمرنا التفكير في قضاء يوم كامل في أحضان الطبيعة، يوم من الهدوء والراحة؛ بشعور من الرضا وذكَّرنا التأثر الذي تملكنا بتأثر الطفل الذي يوشك على الخروج مع والديه لزيارة عمته. فليس كل يوم يُسمح لبحارة المدمرة بمراقبة البحر من اليابسة. ثم ذكر القائد بعض التفاصيل حول موعد الاستجمام والاستعداد له وقام بعدها بصرف الطاقم.

اقترب تسفيقا منَّا وتوجه إلى فريشر: "لم تقل لي شيئًا عن ترتيبي لك قضاء يوم في أخزيف؟"

نظر فريشر إليه نظرة استفزازية: "لو أني وثقت بك لقضيت اليوم في السجن" ..."وهناك سأشعر أيضًا وكأني في البيت" .. قال تسفيقا في ابتسامة. "أجل ... فبدونك أشعر بالراحة في أي مكان".

قال تسفيقا غير مكترث:

"دعكم من هذا الهراء، هيا بنا نترل من السفينة قليلًا، فأنا متشوق للغاية إلى الشعور بوجود شيء صلب تحت قدمي، بعد هذا الأسبوع" ... "خُذ

فريشر" .. اقترحت عليه. "هو صلب كالخرسانة". ابتسم فريشر: "حسنًا، لا يهمني" قال في لهفة فجأة: "المهم أن نفعل ذلك على اليابسة".

جاءت موافقتي على النزول من السفينة إلى الرصيف في الحال وبدون تردد. السير على اليابسة ... على شيء ثابت، لا يهتز .. أجل لقد أردت ذلك بشدة. مر الأسبوع الذي أمضيناه في ميناء حيفا في لمح البصر. وفي دوريتنا التالية رافقنا زورقا طوربيد خرجا من قاعدتنا في حيفا. وكانت مرافقتهما لنا لغرضين: تمرين مواقع القتال، والاستطلاع، والهرب؛ والغرض الآخر تقديم المساعدة وقت الضرورة للمدمرة الكبيرة ثقيلة الحركة. وهو المبرِّر الذي ثبتت جديته في الأيام الأولى من الإبحار. فبعد يوم أو يومين من وصولنا إلى منطقة رمَّانة، دخل القائد إلى غرفة مركز معلومات القتال. كان ذلك وقت تبديل مناوبة مشغلي الرادارات: فريشر وموشه جلسبرج محلي أنا وتسفيقا. ثم توجه القائد إلينا:

"من سيتولى المناوبة الآن؟"

"جلسبورج وأنا"، أجاب فريشر.

توجه إلى فريشر:

"تلقينا معلومات بموجبها من المحتمل أن تقوم سفن مصرية باختراق منطقتنا. وأنا أطالبكم بأقصى قدر من الحذر!!"

هزَّ فريشر رأسه. وفهمنا جميعًا مثله معنى هذه المعلومة. كان من النادر أن يذهب القائد بنفسه إلى غرفة معلومات القتال لتبليغ معلومة من هذا النوع وهو ما زاد إحساسنا بجدية الأمر. ثم توقف القائد عند مدخل الغرفة:

"من سيكون في غرفة الرادار؟" سأل.

"العريف سميلا"، أجاب فريشر بشكل تلقائي.

"بلِّغه ما قلته. فمدى استعدادنا لمعركة قد تقع هذا المساء مرتبط به بشكل كبير"، قال القائد في جدية.

ساد جو الحجرة جدية مشوبة بالتوتر، واخترقت كلمة "معركة" وعي الحاضرين جيدًا. كان فريشر عمليًا من اللحظة الأولى فقبل أن ينهي القائد كلامه توجه إلى العريف جويخبرج: "تسفيقا"، ذكَّرنا صوته الحاد ونبرته الصلبة بمكانته "اذهب إلى الغرفة واطلب من مشغلي رادار المناوبة القادمة أن يناموا بملابسهم وأن يكونوا مستعدين للاستدعاء".

هزَّ تسفيقا رأسه ثم قال: "منطقي طبعًا". خرجنا من غرفة مركز معلومات القتال الضيقة وعلى غير عادتنا ذهبنا إلى غرفتنا عبر سطح السفينة وليس عبر السلالم الداخلية التي كانت تربط غرفة مركز معلومات القتال بغرف الطاقم. لقد أردنا مشاهدة البحر في الخارج والمساحات غير المتناهية السوداء في وقت ما قبل المعركة. أردنا مشاهدة السفينة في نظرة شاملة سريعة كما لو كنا نريد توديع سكونها وهدوءها شبه الأبدي في تلك الساعة من الليل. وكانت رائحة المازوت – الذي هو وقود السفن– تملأ الجو.

كانت الرؤية شبه معدومة وكان القمر بين المحاق(٢١) والتربيع الأول(٢٢)، ولم يكد يُرى. وامتزجت ظلال المدمرة التي تشق عباب الماء بهدوء على هذه

---

٢١ عندما يتواجد القمر بين الشمس والأرض أثناء دوران القمر حول الأرض، وخلال هذا الطور يظهر القمر بشكلٍ مظلمٍ عند النظر إليه من الأرض، إذ إنّ الجزء المضيء منه يكون في الجهة الأخرى للقمر البعيدة عن الأرض.

الخلفية، بالظلام شبه تام. هبَّت ريح خفيفة في الخارج وكان البحر هادئًا. وبسبب الظلام والظلمة التامة على السفينة اضطررنا إلى تلمُّس طريقنا. تفلتت من فم تسفيقا لعنة عندما سقطت طفاية حريق نقطة الإطفاء التي كانت موجودة بجوار نقطة المدفع رقم ٤٢ محدثةً ضجة كبيرة. ففي مثل هذا الظلام وفي هذا الجو العام كانت الضجة مفزعة. "من الحمق أننا جئنا من هنا" تفوه تسفيقا من بين أسنانه. وواصلنا تلمس طريقنا.

كان مدخل الغرفة المشتركة لمشغلي الرادار مضاءً بضوء أحمر يسَّر علينا العثور على الغرفة. فقد كان التعتيم إجباريًا في هذه المنطقة. دخل تسفيقا أولًا واقترب من إحدى الأرجوحات التي كان يرقد فيها العريف حييم بكر وهو شبه نائم. هزَّ كتفيه فانتفض بكر على الفور ومسح عينيه.

"ارتد ملابسك"، أمره تسفيقا.

"ماذا حدث؟" وبالتدريج، ومع سؤال بكر استعد كل من في الغرفة. كانت اليقظة كبيرة لدرجة أن كلمة واحدة فقط "ارتد ملابسك" كانت كافية لبث التوتر بين الحاضرين. وعندما كان يشرح تسفيقا لبكر ما قد يحدث، إنما كان يشرح لهم جميعًا. وصارت الغرفة في لحظة تدوي كخلية نحل؛ فقفز الجنود من أراجيحهم وتجمعوا في مجموعات لتبادل المعلومات وخلال فترة بسيطة علم كل بحارة السفينة بما هو منتظر أن يحدث هذا المساء.

---

[٢٢] بعد مرور أسبوع تقريباً على تكوُّن المحاق، وخلال هذا الطور يتمّ رؤية نصف سطح القمر مضاءً عند النظر إليه من الأرض، ويرتفع القمر في السماء وقت الظهيرة، ويغيب عنها في منتصف الليل.

لم أجد حتى الآن سببًا يدعو للفزع؛ لذلك خلعت حذائي ورقدت على الأرجوحة وأنا أفكر. لو حدث ذلك، فستكون هذه أول معركة بالنسبة لي. ثم تملكتني رجفة دفينة فجأة. كيف ستكون ردة فعلي؟ ماذا علي أن أفعل؟ في تمرين مواقع القتال كنت أصعد دائمًا إلى نقطة المدفع الرشاش ٠٥ التي فوق القمرة وأنتظر هناك حتى إطلاق صفارة الأمان. والآن، كان هناك سؤال يطرح نفسه: ما الذي يجب أن أفعله أثناء المعركة الحقيقية؟ ناديت حييم بكر، الذي كانت لديه مهمة مشابهة، وسألته:

"بكر!، ماذا يصنع مساعد المدفعي في المعركة؟"، اقترب بكر من أرجوحتي بعد أن كان قد ارتدى ملابسه، ثم نظر إليَّ في دهشة. أدركت أنه كان يعرف ذلك من قبل. وبكفائته المعتادة بدأ بكر يعدِّد لي مهامي: "تُقدِّم أحزمة الطلقات للمدفعي، وتحضر صناديق الذخيرة وتقف بجواره طوال الوقت كي تحل محله وقت الضرورة".

انتابتني قشعريرة، وتوقفت لحظة عن الإنصات لبكر وبدلا من ذلك استوعبت عبارته الأخيرة ".. كي تحل محله وقت الضرورة"، أي في حال تعرض المدفعي للإصابة أو القتل ... وارتسمت أمام عيني أول صورة للمعركة: شاب ملقى على الأرض وهو مقتول في نقطة المدفعي وأذهب أنا لأحل محله ... وعلى غير وعي سمعت صوت أمي مرة أخرى يدوي في أذني: "ما الذي أضارك في فراشك في حيفا؟"

جاءني صوت بكر من وراء الأرجوحة وواصلت هز رأسي إشارة على أني فهمت مهمتي. فكرت في فتيتنا على زورقي الطوربيد اللذين رافقانا. ثم بدأت

أقلق عليهم فجأة. كان تسفيقا ينام في الأرجوحة التي تعلوني فسألته: "تسفيقا، أين زورقي الطوربيد الآن؟"

"بجوار الساحل، أمام بورسعيد"، أجاب.

"أمامنا في الحقيقة".

"أجل"، أجاب من تلقاء نفسه. و لم يظهر في صوته أي قدر من التأثر.

"كم ميل نبعد عن الساحل؟" إن هذا الظلام يقتلني. شعرت كما لو أنني أقف وعيناي معصوبتان بوشاح أسود. وعلى غير عادته رد تسفيقا مباشرة دون تفصيل: "١٦ ميلًا تقريبًا". أغمضت عيني. وحاولت تخيل المسافة. شاهدت أمواجًا وأمواجًا، ثم أمواج .. كم يستغرق من الوقت لعبور تلك المسافة سباحةً؟ ... كنت مضطربًا تمامًا، وملأني الفضول وشغلت بالي أسئلة محددة. وعملت مخيلتي أكثر من طاقتها الطبيعية؛ فشاهدت نفسي ممددًا على نقالة جريحًا. وشاهدت الناس يسبحون في المياه يصرخون طلبًا للمساعدة. وظهَرَ والداي أمامي والألم يبدو على وجهيهما، والأصدقاء الذين تعرفت عليهم في القاعدة البحرية يخطون نحوي مبتسمين ووجوههم ساخرة ...

لا أذكر كم من الوقت رقدت هكذا وأنا أفكر في أول معركة من المنتظر أن أشارك فيها، لكن بحسب تقدير الوقت بين انتهاء المناوبة وبين إطلاق إعلان التوجه إلى مواقع القتال في الساعة ٢٣:٠٠، يبدو أنه مر أكثر من ساعتين كاملتين. لقد مرت خمس ثوان على الأقل حتى استوعبت لأول مرة المعنى الحقيقي للصوت الذي سمعته الآن. كان صوت صفارات الإنذار التي دوَّت دون توقف تصاحبها نداءات من قمرة القيادة؛ نداءات حادة وواضحة لا تقبل

التأويل: "مواقع القتال! مواقع القتال! مواقع القتال!". وهذه المرة ليس "تمرين مواقع القتال". الأمر حقيقي هذه المرة.

شعرت حولي بالميزة التي اعتدت عليها مؤخرًا: الرجال يرتدون ملابسهم سريعًا ويركضون من الحجرة وهم يضعون سترات النجاة أثناء ركضهم. أصبحت الغرفة في تلك اللحظة مكانًا عدائيًا، وتحول الملاذ الآمن فجأة إلى مصيدة موت. الأجراس التي دقت كانت تدعونا إلى الصعود إلى النقطة في الأعلى، في الهواء، إلى الحرية، وفي أقل من دقيقة كانت الغرفة تخلو من البشر. وفي نقطة مدفع الرشاش أطلعني العريف مارك – مشغل رادار مخضرم في السفينة – على ما يجري: اكتشفت سفننا هدفين سريعين غير معروفين، يتحركان من بورسعيد غربًا"، كان ذلك سببًا كافيًا لاستدعائنا إلى مواقع القتال. لقد كانت على ما يبدو السفن التي حذرتنا منها القيادة.

نظرت إلى مارك نظرة ثاقبة: "ما وضعنا؟"

هرش مارك جبينه:

"إذا كانا مجرد زورقي طوربيد – فليست لدينا مشكلة".

"وإن لم يكونا زورقي طوربيد؟"

"إذن من الممكن أن يكونا مدمرة وزرق طوربيد".

"أي احتمال واحد في مقابل واحد؟"

"كلا"، قال مارك مصححًا. إن فرصتنا أقل، لا تنس أي مدمرات يمتلكون، وأي مدمرات نمتلك نحن" .. لم أنس. فالسر المعلن كان أن روسيا أمدت مصر في تلك الفترة بكل المعدات البحرية القتالية التي تحتاجها، بما في ذلك مدمرة

حديثة وقوية من طراز "سكوري"، لقد درست هذه المدمرة من كل جوانبها في الدروس التي تلقيتها للتعرف على القطع البحرية للعدو. وبالفعل، لم يكن هناك مجال للمقارنة بين مدمرة من هذا الطراز وبين مدمرتنا التي كانت تبلغ من العمر أكثر من ٢٤ سنة، قديمة جدًا وعجوز. وهذه المقارنة في الفصول التعليمية لا تثير سوى الشفقة على "العجوز" التي نمتلكها والتي عليها أن تتعامل مع الأقوى منها والأعظم، بينما هنا، قبل المعركة المحتملة، وعلى بُعد مئات الأميال عن الوطن، فإن هذه المقارنة لا تثير أي أفكار لطيفة نهائيًا.

"لكن هناك احتمال آخر"، قاطع مارك أفكاري.

"وما هو؟"

"أن تكون زوارق صواريخ"

هاتان الكلمتان تجمدتا في الهواء وشعرت بالتوتر في كلامه. فلو أنهما زورقا صواريخ فستتضاءل فرصتنا. فهذه الكلمة تحمل في طياتها معنى مخيف ومفزع. لقد فهمنا من هذه الكلمة أننا قد نضطر إلى إدارة معركة خاسرة في مواجهة صواريخ وليس قذائف. والفرق بينهما تقريبًا مثل الفرق بين المقاتل بالسيف والحصان ضد فوهات المدافع. لقد علمنا أن المصريين يمتلكون قطعًا بحرية حديثة وعلمنا بوجود طريقة وحيدة لمواجهتها وهي: الهرب. لكن سرعة زورق الصواريخ زادت الآن لتصل إلى ٤٥ عقدة، بينما بالكاد تصل سرعتنا إلى ٣٠ عقدة. وكل مدافعنا ورشاشاتنا وبنادقنا معًا لا توازي من ناحية الدمار ما يمكن أن يسببه الصاروخ. فالصاروخ الواحد قادر على تدمير أكثر من ٢٠٪ من سفينتنا؛ بل وإسكاتها نهائيًا. وإذا ذكرنا أن كل سفينة منها تحمل على متنها

حوالي ٦ صواريخ أو ٣ أطنان من المتفجرات والرصاص مقارنة بقذائفنا البائسة ..

تناولت الخوذة التي كانت معلقة دائمًا على قضيب يشير إلى مدخل الموقع. وشاهدت "مركز عصب" السفينة – قمرة القيادة بكل مكوناتها عن يساري: كرسي القائد، والمنظار الكبير، والضباط الذين يتحركون كالنمل في المكان. وكانت تتحرك في كل أنحاء السفينة ظلال سوداء تتحسس طريقها بسرعة في ظلمة الليل.

تابعت ما يدور في القمرة. كان القائد يلقي التعليمات، وكان التأثر والتأهب كبيرين، لكن في هدوء. كانت السفن التي تم اكتشافها ماتزال بعيدة، والرادارات فقط هي التي كانت تلاحظها. كان لدى القائد فرصة للتحدث إلينا، فحمل الميكروفون، ونظرًا لقربنا أنا ومارك من القمرة استطعتنا سماع كلامه الموجه إلينا.

"إلى جميع أفراد الطاقم".

ساد صمت شديد كل السفينة. تحدث القائد في هدوء. وقام أحد الضباط بخفض قوة الصوت الصادر من الجهاز الذي يحمل لنا أخبار زوارقنا القريبة جدًا الآن من سفن العدو. "لقد استدعيتم إلى مواقع القتال" قال القائد. وفعلًا فإننا في غضون أقل من ربع ساعة سوف نجد أنفسنا في معركة مع سفينتي العدو. وبحسب التقارير وبعض التقديرات، فإن تلك السفن هي "زورقا طوربيد" من طراز ف – ١٨٣ روسية الصنع، وهي تشبه كثيرًا زورقي الطوربيد خاصتنا المبحرين معنا الآن. ولدينا أوامر صريحة بألَّا نكون البادئين بإطلاق النار. لكننا

سنفعل إذا وصلنا إلى الوضع الذي يستلزم منا استخدام مدافعنا الرشاشة! وسنظهر لهم قوتنا وقدراتنا! وسوف نضربهم جيدًا! ولا شك لدي في تفوقنا عليهم. عليكم فقط الاستماع إلى التعليمات التي ستتلقونها، وسوف نتغلب عليهم! فقوتنا معنا وإيماننا قوي. ومثلما حدث في الحرب الأخيرة، علينا الآن أيضًا الدفاع عن حدودنا، وعن بيوتنا وعائلاتنا. وكما حدث في الحرب الأخيرة، أنا واثق من أننا سوف نتغلب عليهم، وأن سلاح البحرية الإسرائيلي، رابط الجأش، سوف يحمي طرق ملاحة وطنه البحرية عند الضرورة."

في غضون ذلك توالت التقارير من الرادارات ومن اللاسلكي. الهدفان يقتربان بسرعة، وسيكونان في مرمى نيران زوارقنا خلال دقائق. وكان يدل الصوت الهادىء لأحد ضباط اللاسلكي في واحدة من سفننا على ارتفاع المعنويات هناك.

التفت إليَّ مارك، وفي صوته رعشة بسيطة.

"أنت ت ... ستكون على يساري بي ... طوااال الوقتتت"، طلب مارك.

"لا تقلللق".

"إذا انتهت الطلقققات ... تعرررف ... ماذا عليك أن تفعل، أليس كذلك؟"،

"بلى".

عندما أفكر في ذلك اليوم، يصعب علي القول أن ذلك كان خوفًا من أول معركة، إنما خوفٌ من المجهول المصبوغ بقدر كبير من التوتر، وشبه الفضول. مرة أخرى – هذه المرة في ظلمة الليل أمام البحر الكبير – مرت أمام عيني مشاهد النقالة، والنار المشتعلة في سطح السفينة، والمصابون في قوارب النجاة،

والانفجارات ... فضلت الصمت وعدم التحدث مع مارك، كي لا يظهر ضعفي. الكلام هنا على الأقل عن توازن في القوات ... لو أنَّ أريه كان معي هنا الآن في الموقع ... حاولت العثور عليه في مكان ما بين مواقع الرشاشات فوق قمرة القيادة وبين مصابيح الإشارة، فقد نسيت سؤاله عن موقعه. ربما بجوار مصباح الإشارة، أو بجوار موجهي المدافع. نظرت إلى القائد وشاهدته يقف بجوار نوافذ العواصف أمامه. كانت نوافذ مستديرة، مثل العجلات الشفافة، تدور حول محورها عاموديًا وكانت لمنع صعوبة الرؤية نتيجة رذاذ الماء على الزجاج في أوقات العواصف. كانت النوافذ تدور في شكل دائري ببطء، في إيقاع نمطي، كما كانت تظهر هدوءا رائعًا، كما لو كانت تنظر بعين غير مكترثة إلى السفينة المتأهبة وطاقمها المتوتر. وللعجب الشديد، شردت عملية التنظيف بذهني لدقائق عن هذا الوضع. لكن هذا الوضع استمر لدقائق معدودة فقط، وما أن بدأت المعركة حتى عاد مرة أخرى الشعور بالخوف الذي انتابني في البداية. ثم حدث أمرٌ غريب؛ حيث هجرني هذا الإحساس واختفى مع إطلاق الرصاصة الأولى. ومنذ تلك اللحظة وحتى انتهاء المعركة ويغمرني شعور كبير بالطمأنينة.

تلقينا تقريرًا آخر من الرادار. لقد تقدمت الأهداف نحو الغرب بسرعة ٢٤ عقدة، ومن المنتظر بحسب معطيات حركتها أن تدخل المعمعة مباشرة في المنتصف تمامًا بيننا وبين زوارقنا. في تلك اللحظة حدث أمران في الوقت نفسه: أعطى القائد أوامر للنقيب إيلي رهف قائد الطوربيد بأن يغلق بشكل تدريجي طريق الهرب نحو الشرق أمام الزوارق المصرية. وبمجرد أن قال ذلك، كما لو أن البحارة المصريين قد سمعوه، أطلقت الطلقة المعادية الأولى.

لم ينتظر القائد تقرير النقيب إيلي: "اُضربهم" أمر على الفور، وبعدها بثانية واحدة بدأت أصوات الرشاشات تدوي من الجانبين بوهج من النيران المضيئة أضاءت ظلام الليل الدامس بلونها الأحمر الشديد. لم تكن مدمرتنا في تلك المرحلة قد دخلت المعركة بسبب المسافة التي كانت لاتزال بعيدة جدًا عن معركة المَدَافِع. حمل مارك صندوق طلقات وعبَّأ المدفع الرشاش. جهزتُ على الفور صندوقًا آخر. هنا حدث لي أمر غريب: فقد توقفت فجأة عن الإحساس بما يدور حولي، وانصب كل تركيزي على ما يحدث أمامي. واختفت التخيلات التي كانت قد استحوذت على جزء من ذهني، وأصابني هدوء شديد. اختفى الخوف من المجهول عندما ظهر ذلك المجهول وأصبح أمام عيني تمامًا. وعلى الرغم من عدم وجود أي احتكاك حقيقي مع العدو إلا أني كنت مستغرقًا كليًا في عاصفة المعركة.

تطورت المعركة أمامنا. وكان في وسعي تخمين ما يحدث بحسب إيقاع وقوة صوت قائد زورق الطوربيد الإسرائيلي المسموع عبر اللاسكلي.

"إنهم يحاولون الهرب"، صاح عبر الجهاز.

"لا تسمح لهم بذلك" شاهد القائد هدفًا واحدًا فقط الآن ولم يرغب في التخلي عنه بأي شكل. "سنحاول إضرام النيران في موخرتهم، واحذر أن توجه مؤخرتك لهم".

"لحظة" انفجر النقيب إيلي في حماس، "إنه يحاول الانفصال، وأحدهما يهرب تجاه الجنوب الغربي".

"إلحق به"، كان صوت الطلقات يصم الآذان بالفعل، واضطر القائد إلى إعطاء أوامره وهو يصرخ. "سألحق بالثاني". سُمع صوت تقارير الرادر جيدًا في جهاز اللاسلكي. بهذه الطريقة استطعت متابعة طريق تقدم الزوارق المصرية. وحدث هنا أيضًا أمرٌ غير مفهوم لي: لماذا يحاولان الهرب ناحية الشمال الشرقي — مما يقربهما منا كثيرًا– وليس في اتجاه الغرب، ما كان سيبعدهما عن الحدود البحرية؟

بعد دقائق معدودة فهمت لماذا.

"انتبهِ!" نادى القائد زورقنا "إنهما محصوران الآن بيني وبينك، احذر عند إطلاق النار". كان ذلك وضعًا حرجًا وخطيرًا للغاية. فلو أننا وجهنا نيراننا إلى المصريين بعد لحظات معدودة فعلًا من الممكن أن تصاب قواتنا. ولو لم نفعل، فهم الذين سيصيبوننا. كانت زوارقنا في نفس الوضع تمامًا. كان ذلك مثل وضع الكش ملك في لعبة الشطرنج. لكن لفرط سعادتي كانت الحركة هنا كبيرة والقوانين أكثر مرونة، وإن كان الحديث هنا عن جنود من لحم ودم. وبينما كنت لا أزال متحيرًا كيف ستحل هذه المشكلة الخطيرة؟، شاهدت لهبًا يشتعل في مؤخرة أحد الزورقين، ثم أعلن اللاسلكي على الفور: "لقد أشعلت النيران في أحدهما".

"جميل، استمر! سأحاول تغيير الموقف لصالحنا".

أمسَك القائد انتركوم قمرة القيادة وتوجه إلى المراقبين:

"إلى مراقبي الأحمر (الجانب الأيمن)، كونوا حذرين! الزورق الثاني من ناحيتكم. ستكتشفونه بعد فترة قصيرة جدًا".

"هاهو!" صاح مارك بجانبي وفي جزء من الثانية جاء صوت في مكبر الصوت:

"المراقب الأحمر، ٢١٠، قريب".

نظرت إلى قمرة القيادة، فإذا بالقائد يتشاور مع نوابه والميكروفون في يده.

"مدفعية الأحمر – استعد!" أمر.

انحرفت كل المدافع والرشاشات الموجودة على جانب السفينة الأيسر مليمترات معدودة ووجهت فوهاتها نحو الظل الأسود الذي تقدم على يسارنا بسرعة. كان ذلك زورق طوربيد من طراز ف-١٨٣ والذي يفوق زوارقنا في كفائته. فهذا الزورق السريع قادر على الوصول إلى سرعة تفوق ٤٠ عقدة. وعندما تصل هذه القطعة البحرية الصغيرة إلى هذه السرعة الكبيرة تصبح قدرتها على المناورة أمرًا خطيرًا. وبالنسبة لحجمه فإن تسليحه الهجومي كبير فالمدفعان اللذان يمتلكان ماسورتين، تنطلق من فوهاتهما وقت الضرورة قذائف من عيار ٢٥ مم لكل منها، وأنبوبا طوربيدات كل منهما تطلق في كل مرة طوربيدًا قويًا قادرًا، في تصويب دقيق وعلى مسافة مناسبة، على شطر سفينة كبيرة لنصفين؛ وأربعة رفَّاصات، وملاحين – ونظرًا لكون الزورق صغير جدًا فقد قاموا باستدارة صغيرة – لتصبح القدرة القتالية لهذا الزورق ممتازة.

غير أن أخطر ما في هذا الزورق كان الطوربيد، الذي كنا نخشاه أكثر من أي شيء. لقد أدى الضابط موجه المدافع الذي كان على سطح صغير أمامنا عمله على أكمل وجه. فبحسب تقارير أجهزة المراقبة المختلفة أمر المدفعجية بكيفية توجيه المدافع من أجل تحقيق أكبر دقة ممكنة. في تلك اللحظة بدأ الزورق الهرب تجاه الشرق فأعطى القائد أمرًا باللحاق به. نشأ وضع خطير جديد؛ حيث بدأنا

نقترب من الشاطيء؛ حيث يحظر على مدمرة مثل مدمرتنا الاقتراب من المياه الضحلة خشية ألا نستطيع الخروج منها أبدًا.

ما أثار دهشتي في الأمر كله حقيقة أن الزورق شرع في الهروب ناحية الجنوب الشرقي وليس في خط مستقيم تجاه الشاطيء. ففي مثل هذا الوضع كنا مضطرين إلى تركه في حال سبيله، أو في أسوأ الأحوال بالنسبة له، إذا أمسكت فيه النيران، يستطيع رجاله أو بعضهم النجاة عبر السباحة إلى الشاطيء. لكن عملية سير القتال مع الزورقين لم تكن واضحة لنا من بداية المعركة وحتى نهايتها. أطلق جهاز اللاسلكي تحذيرًا، جعل القائد يدرس طريقه مرة أخرى، "قمرة القيادة، هنا مركز عمليات القتال: انتبه! فإن مقياس العمق يشير إلى ست قامات[٢٣]"، ست قامات فقط! أي حوالي عشرة أمتار. لم أذكر مرة أخرى وصلنا فيها إلى مياه ضحلة بهذه الدرجة، فزاد التوتر؛ حيث من الممكن أن نشحط في أي لحظة ولا نستطيع العودة إلى البحر. وفي هذه الحالة كان كل ما على المصريين فعله هو إرسال مدمرة لتحملنا وتأخذنا أسرى. لم يعبأ القائد على ما يبدو بتحذيرات مركز عمليات القتال، لأننا لم نسمع أي تعليمات بتغيير المسار. ظننت أن لديه بالتأكيد خط أحمر ما، أو ربما تكون قيادة السفينة في هذا العمق أصعب بكثير.

"الموقع ٥ يمين، ١٠,٧ ارتفع أكثر. الموقع ٣ ابق"، انهمرت الأوامر. اغتظت قليلًا من كون المعركة ستندلع عن يسارنا. وسنصبح نحن الجانب الأخضر (الجانب الأيمن) مجرد مشاهدين أثناء المعركة. ثم مرت لحظة أخرى.

---

[٢٣] القامة تعادل ١,٨٢٨٨ مترا

"المدافع عبأ" أمر القائد. أي تعبئة المدافع بالذخيرة الحية — المرحلة الأولى في الإعداد للإطلاق. تم تلقيم المدافع بالقذائف، وكذلك أيضًا الرشاشات من عيار ٠٥، وجهَّز مارك الرشاش. سمعت طرقة سندان مع دخول الطلقة ٠٥ الماسورة. الآن أصبح مليمتر واحد فقط من ضغطة زناد يفصل بين الهدوء المشحون بالتوتر الذي ساد السفينة وبين دوي المدافع وتبادل إطلاق النار.

في هذه الأثناء تلقينا تشجيعًا من زوارقنا: "إنه يحترق" قال النقيب إيلي. "استمر حتى يغرق" رد عليه القائد بسرعة. كان يشغله الآن أمرًا واحدًا فقط: الشكل الأسود في مرمى نيراننا عن يسار المدمرة. انتهت معركة زوارق الطوربيد على بعد عدة أميال منا في تلك اللحظات بالفعل. ثم، وببطء وفي هدوء أعطى المقدم شوشان تعليمات بإطلاق النار وميكروفون القيادة لا يغادر فمه، وأمر المدفعجية: "المدفعية — أحمر — أطلق النيران".

مرت خمس ثوانٍ على الأقل حتى توهج أول لهيب للنيران. كان وضعًا غريبًا: فمنذ ما يقرب من ساعة والطاقم مترقب بداية المعركة في توتر، وعندما أعطيت الإشارة لم يحدث شيء.

سُمع فجأة دوي انفجار، كان يبدو غريبًا في تلك اللحظة، مثيرًا للدهشة، مثل العازف في الفرقة الموسيقية الذي شذَّ بشكل فظ ومصم للآذان عن الإيقاع الموسيقي. لم أملك الوقت الكافي لمعرفة مصدر الانفجار رغم أنه كان واضحًا أن مصدره رشاش ٠٥ وليس مدفعًا، لأنه سمع بعده في الحال صوت دوي شديد يتصاعد من فوهة أحد المدافع. ولم تمر لحظات قليلة حتى انهمرت نيران كثيفة على زورق الطوربيد المصري. لا شيء، الظلمة الشديدة، وأبعاد السفينة المصرية

الصغيرة وحقيقة أن طلقات الإضاءة الأولى التي أطلقت نحوها لم تكن دقيقة، جعلتها تتحمل دفعة النيران الأولى و لم تُصَب بأذى. ثم بدأت ترد علينا في المقابل بوابل من الطلقات أثناء مناورتها للنجاة من نيراننا. كان الضجيج شديدًا. تبادلت أنا ومارك نظرات الدهشة؛ فلم نكن نتصور قوة صخب المعركة.

كان "اللون الأحمر" أمامنا — هو جزء من الطاقم الذي مواقعه على الجانب الأيسر للمدمرة — منهمكًا في العمل الشاق. ففي الأيام العادية ينقل رجال الطاقم صندوق واحد من الذخيرة، يزن أكثر من ٥٠ كيلوجرام، إلى المدافع لتلقيمها خلال عدة دقائق. والآن يتحرك حاملو الذخيرة في جنون محضرين ذخيرة للمدافع أكثر مما تستطيع المدافع استيعابه.

في تلك اللحظة بدأت كشافاتنا الضوئية العمل وأُطلقت طلقات إضاءة تجاه السفينة المصرية، وتمركزت فوقها تمامًا، وخلال لحظة غطى الليل نور واضح وبدلًا من الظلمة الشديدة ظهر البحر والسفينة المصرية أمام أعيننا كما لو كانا تحت ضوء الشمس الخاطف للأبصار. كنا نستطيع أن نرى البحارة المصريين في وضوح وهم يركضون على سطح السفينة في هلع. كان يصعب على السفينة المصرية معرفة من أين تنهمر عليها النيران. فقد خطفت طلقات الإضاءة أبصارهم، والنيران التي ردت بها مدفعيتها لم تُوجه جيدًا فقد أطلقت في ارتباك وفزع شديدين. لم تصب المدمرة قذيفة واحدة باستثناء طلقات الرشاش ٠٥ التي لم تسبب لها أي ضرر. بدأت نيران صغيرة تشتعل على سطح السفينة وعمل البحارة المصريون جاهدين لإخمادها.

وفجأة وبدون أي سبب واضح غيرت السفينة اتجاهها وبدأت في السير تجاهنا في خط مستقيم. عملية انتحارية حقيقية! حاولت المدفعية من عيار ٤,٥ بوصة اللحاق بها لكن قذائفها أخطأتها. نظرتُ في قلق إلى القائد الذي بدا عليه أنه يدرس الوضع الجديد؛ حيث لم يضع في حسبانه العمل الانتحاري للضابط المصري. تبقى الآن حوالي ١٥٠ ياردة فقط على التصادم. علمت أن السفينة المصرية تحمل على سطحها شحنة كبيرة من الطوربيدات والذخائر، وسيسبب إنفجارها أضرارًا كبيرة لنا بل سيترل بنا كارثة.

أمسك القائد الهاتف الداخلي الذي كان يصله بماسك الدفة وبغرفة المحركات. ٨٠ ياردة أخرى. بدا أن التصادم حتمي. أصدر أمرًا ما على عجل. و لم يحدث شيء. أصبحت السفينة أقرب منا أكثر، ٢٠ ياردة أخرى. شغل بحار مصري كشاف كبيرة فجأة ثم أمسك رقبته بعدها بلحظة والدم يسيل منها بعدما انفجر الكشاف في وجهه، جراء إصابة مباشرة من أحد رشاشتنا ٠٥، على ما يبدو.

وحول ما حدث في اللحظات التالية حكى بعد ذلك أحد ضباط المدمرة: "وقفت في قمرة القيادة وأنا لا أعلم إن كانت السفينة سوف تستدير حول محورها في الوقت المناسب، أم أن المحاولة الانتحارية المصرية سوف تنجح. شاهدت بوضوح القائد المصري يقف على السطح والدم يغطيه، وهو يحاول جاهدًا الفرار من الجحيم الذي دخل فيه. نظرت في وجهه والأسف يكسوه، والغضب الشديد ينبعث من عينيه. تقاطعت نظراتنا للحظة، حاولت لوهلة، قدر استطاعتي، أن أعرب له عن استيائي من كل هذه الحرب اللعينة. لقد شاهدت الكثير في تلك اللحظة. شاهدت الأسرة الحزينة، أصدقاءه الذين يبكونه، المعزين

بكل أطيافهم لكن لم يكن في وسعي تخليصه. كانت تلك هي قواعد اللعبة القاسية، اللعبة التي يكون فيها منذ اللحظة الأولى مكان لمنتصر واحد فقط. ويبدو أنه قد فهمني. وأنا واثق أن الغضب الذي أظهره لم يكن موجهًا إليَّ. وفي اللحظة التي التقت فيها نظراتنا كأن الأرض قد توقفت عن الحركة وسكت كل شيء حولنا. لن أستطيع نسيان تلك اللحظة أبدًا. وستلاحقني نظرات القائد المصري ما حييت."

ومنذ ذلك الوقت وحدث كل شيء بسرعة. وقبل ثانيتين من الاصطدام سقط البحار المصري غارقا في دمائه بعد إصابته بشظية قذيفة في جبينه. فانحرف الزورق عن اتجاهه قليلًا، بضع سنتيمترات عن مقدمة المدمرة، وانتقل إلى جانبنا الأيمن. كان البحار المصري يحتاج إلى متر واحد فقط! الفارق الذي جنَّبنا كارثة كبيرة.

جاء الآن دور الجانب الأخضر للسفينة للتعبير عن نفسه. ضغط مارك على الزناد ومزقت دفعة طلقات نافذة صغيرة قبيحة في جانب السفينة. وضغط أحدهم في موقع المدفع فسقطت طلقة إضاءة في قلب الزورق مباشرة، لتمزقه إربًا. ثم ارتفع حائط كبير من المياه فجأة ليشق طريقه نحو الأعلى، كما لو كان يحاول العثور على مخرج من الكتلة الساخنة التي هبطت عليه فجأة. تطاير حطام السفينة والشظايا فجأة بقوة كبيرة وثقبت جانبنا الأيمن. كان ذلك الحادث الوحيد أثناء المعركة الذي أصيب فيه رجال من طاقمنا. وبعد أن هدأ البحر وعادت المياه إلى سكينتها، عاد الظلام ليسود ثانية مع إطلاق آخر طلقة إضاءة أنهت المعركة. كما لو أن أحدًا ضغط على زر وأطفأ المصباح الكهربي. استطعنا

أن نلاحظ هنا وهناك – على ضوء بعض الحرائق الصغيرة المشتعلة في المياه – وجود أجسام طافية على سطح الماء.

وكما كان الحال في بداية المعركة، فقد سيطرت على الطاقم الآن أيضًا لحظة من الوجوم. كما لو كانت دقائق للانفراد بالذات. كان ذلك مشهدًا غريبًا: فمنذ لحظات كان البحر عاصف من صخب القذائف والطلقات والصراخ ونقيق مكبرات الصوت وكأن مايسترو يقودها – ثم توقفت كل الأصوات فجأة وعاد الصمت الثقيل ليخيم على المكان. حتى هذا المشهد كان فريدًا من نوعه فقد نسي بعض البحارة المقاتلين أصابعهم على زناد الرشاش، ومايزال البعض يحمل خزانات القذائف (خزانات مستديرة لحمل الصواريخ والقنابل)، ويقفون على سطح السفينة وهم ينظرون في دهشة إلى ما تبقى من عدوهم. لم تكن هناك بهجة المنتصرين ولا فرحة الأبطال. أكاد أقول إنها كانت جنازة على النسق البحري. غير أن الجثث المكفنة بأكفان بيضاء قد تبدلت للحظة بجثث وأشلاء تتمايل مع الأمواج.

بدأنا الآن الإبحار في دوائر، بشكل يضع في الحسبان تغطية أكبر مساحة؛ وذلك في محاولة للعثور على ناجين من السفينة المصرية. تمت عملية البحث في هدوء شديد وفي شبه صمت تام. صمت مستمر حتى أعلن الرادار:

"هناك هدفان أمام ميناء بورسعيد".

أخذ القائد الميكروفون بسرعة:

"أعطني معلومات عن تحركهما على الفور!"

كانت النصف دقيقة التي مرت صعبة للغاية:

"شمال غرب بسرعة أولية ٢٨ عقدة". أي أنهما في طريقهما نحونا بأقصى سرعة.

لم يهدر القائد ثانية واحدة فتوجه إلى زورقنا:

"أبلغني بموقعك الدقيق! ثم أبلِغ بعدها عن الأضرار".

"روت" أكدت السفينة القائدة في قوة.

ثم تحدث مكبر صوت قمرة القيادة ثانية:

"تم اكتشاف ثلاثة أهداف أخرى في نفس الموقع، وفي نفس الاتجاه".

كان واضحًا الآن أنهم لم يأتوا لانتشال الناجين فقط. فهناك أسطول كامل خرج لملاحقتنا.

"دبلين يصفِّر بالفعل، حوِّل". كانت تلك هي المرة الأولى هذا المساء التي استخدمت فيها زوارقنا بقيادة النقيب إيلي أكواد النداء. فاستخدام أكواد التمويه وقت المعركة لا حاجة له وسوف يستهلك وقتًا ثمينًا. كما أن ذلك، من الناحية المنطقية، سوف يكشف الشفرة للعدو. والآن، ما أن هدأ الجو حتى عادت أجهزة الاتصال في السفينة إلى استخدام الشفرات.

"روت، حوِّل".

"أنا خلفك بنصف ميل. وستحصل على فحص الأضرار في الميناء. ليس لدي الآن شيء خاص لأبلغ عنه في اللاسلكي".

شعر القائد بالرضا:

"حسنًا، اِلحق بي في الحال! لدينا على ما يبدو بعض الضيوف، و لم يتبق لديَّ طعام كافٍ لأقدمه لهم" كانت الإشارة واضحة فالضيوف هم العدو، والطعام هو الذخيرة.

وخلال دقائق معدودة ظهر جنوبًا ظلان أسودان خلّفا وراءهما مصابيح ناصعة في المياه. وكما هو متفق عليه فقد كانا يرسلان لنا إشارات وكنا نرد عليهما بإشارات.

كان من اللطيف مقابلة بحارة زورقي الطوربيد على السطح فقد لوحوا لنا محيين، لكن حالت المسافة بيننا دون تبادل هتافات الصداقة من الجانبين. كنا نبحر الآن بشكل موازٍ وكانت المسافة التي تفصل بين السفينتين حوالي ٢٠٠ ياردة.

أخذ القائد الهاتف من على يمينه وأَمَرَ: "المحركان بأقصى قوة إلى الأمام". لا يجب إهدار لحظة. فلا يمكننا معرفة أي نوع من السفن تتعقبنا؛ فإذا كانت سفن صواريخ فكل ١٠٠ ياردة تفصل بيننا هي فاصل بين الحياة أوالموت. ضربت موجة كبيرة من المياه أُطُر الحبال في مؤخرة السفنية، عندما ضاعفت المحركات سرعتها فجأة في غرفة المحركات.

أبحرت السفينة "إيلات" بأقصى سرعتها إلى الوطن.

مرَّ الطريق الذي استغرق أربع ساعات إلى ميناء أسدود في تعب، لكن لم يستطع أي من رجال الطاقم الذهاب إلى الفراش، ومرَّ علينا ما تبقى من الليل ونحن نتبادل الانطباعات فيما بيننا. ولأنه لم يكن عندي ما أحكيه فقد كنت أستمع. أحيانًا، تكون النوادر البسيطة في القصة أفضل من القصة كلها. واتضح

لنا الآن على سبيل المثال أن فريشر كان أول من أطلق النار في تلك اللحظة المحيرة من الهدوء، عندما صدر الأمر و لم يفعل أحد شيئًا. فكان هو، برباطة جأشه المعتادة، الذي ضغط الزناد ليفسح الطريق أمام المترددين:

"رأيت أن أحدًا لم يتحرك" أخبر مجموعة كبيرة من المستمعين إليه، "فكَّرت: ما الذي يجري هنا؟ هل ناموا؟ في الحقيقة، ماذا كنت سأفعل بالرشاش ٠٥ البائس هذا مع وجود السفينة على هذا البعد؟ على الرغم من ذلك أطلقت النار. علمت أن ذلك سيوقظهم من سباقم" ...

"إعلان لرجال الطاقم: مع أول ضوء بعد حوالي ساعة ونصف الساعة، الطاقم مدعو لمشاهدة مراسم رفع المكنسة على قمة الصاري. ويمكن مشاهدة رفع المكنسة من كل أسطح السفينة. وعلى المناوبين البقاء في مواقعهم".

"مكنسة على قمة الصاري"، عادة قديمة تشير إلى الانتصار في معركة بحرية. يعود أصل هذه العادة إلى تاريخ البحرية البريطانية، عندما تمكن بحارة الأسطول التجاري البريطاني في القرن الثامن عشر من دحر القراصنة الذين أتوا لمهاجمتهم، فوضعوا مكنسة على رأس الصاري إشارة إلى "كنس" اللصوص. ولقد ترسخت هذه العادة وتدل حتى اليوم، عند جميع أساطيل العالم، على الانتصار في معركة بحرية.

كان الوقت قبل الفجر، والنجوم لاتزال تتلألأ في السماء لكن الرؤية كانت جيدة. ففي هذا الوقت من الصباح الهاديء لا يمكن الشعور بالبحر أو باهتزازات السفينة. إنها بالفعل لحظة مناسبة لرفع المكنسة في الأعلى. صعدنا في خشوع على الجسور. وبدأت تظهر علينا بوادر الإرهاق. وبدت علينا علامات

الليل العاصف. أصبح تسلق السلالم بطيئًا. وفي اللحظة التي وطأت فيها أقدامنا سطح قمرة القيادة زال التعب وكأنه لم يكن بعدما لفحت البرودة وجوهنا وبعثت فينا نشاطًا جديدًا. البحارة المرضى فقط هم الذين لن يحضروا تلك المراسم، و لم يكن بيننا أحد منهم.

بحثت عن مكان بجوار بحار مضمَّد الرأس. كان الرقيب برقوفيتس المدفعي، الذي أصيب إصابة بسيطة في أذنه جراء تطاير إحدى الشظايا بشدة إلى داخل السفينة من شدة انفجار زورق الطوربيد. وكان هناك مثله أيضًا سبعة بحارة مصابين بإصابات بسيطة جراء الانفجار.

وفي الأسفل، على سطح السفينة السفلي، عند قاعدة الصاري، كانت تتم الاستعدادات الأخيرة لتلك المراسم البسيطة. مكنسة جديدة من القش، شعيراتها منتصبة – كما لو كانت تشعر بالبرد مثلنا — تقف في فخر وكبرياء. هناك أيضًا ساعة معلَّقة على السلم المعدني الضيق الذي يؤدي إلى الصاري. وقف أمامها مبتسمًا رقيب قسم المحركات الذي وقع عليه الاختيار للقيام بالمهمة. وكانت كل أسطح المدمرة في تلك اللحظة مكتظة بالناس.

نظرت إلى البحر الرحب، واللون الرمادي يكسو مياهه وجوانب السفينة تلامسها وتنزلق عليها مثل المتزلج على الجليد. كان في منظر البحر شيء بشع كلما أصبح أكثر هدوءًا. أعادتني صيحات بحارة السفينة المتواترة إلى السطح السفلي، حيث توجه الرقيب كسبي إلى الرقيب الذي وقع عليه الاختيار وهو يحمل المكنسة في يده.

وخلال لحظات معدودة وقف الرقيب في الأسفل عند طرف الصاري ثم نظر إلى الأعلى وابتسم. ربط المكنسة في حبل الصاري وهو الحبل الخاص الذي بدأ يرفع المكنسة إلى الأعلى حتى قمة الصاري على الطرف المكشوف ثم ربطه في بكرة مفرغة ملتصقة بطرف الصاري خصصت لهذا الغرض فيما يبدو. بهذه الطريقة بقيت فقط شعيراتها وجزء صغير من طرف المكنسة هو الذي يرفرف في الهواء، وهي تنظر بفخر إلى علم سلاح البحرية الذي تخلى عن عزلته فجأة على قمة الصاري.

وقف قنطروفيتس بجواري "أنا أحب المراسم التقليدية" قال.

"'المكنسة على الصاري' إنها لبدعة حقًا". أومأت برأسي.

"أتمنى أن يخشى اللصوص الاقتراب منا الآن".

"بالتأكيد" قال. "سيشاهدون المكنسة ويفرُّون".

التدخين

طالت إقامتنا في ميناء أشدود إلى حوالي ١٢ ساعة، وكان الهدف الأساسي منها هو إصلاح أضرار طفيفة لحقت بنا من شظايا السفينة المصرية التي انفجرت على مسافة صغيرة من المدمرة. خلال هذا الوقت تعرفنا على طاقم السفن الذين شاركوا معنا في المعركة. تبادلنا الخبرات معهم وتحققنا معًا من الأحداث والأوقات.

انضم إلينا في أشدود، صديقى من القاعدة الساحلية في الكرمل، يعقوب كوهين، الذي قرر ترك قاعدته والقدوم إلى المدمرة. تم استيعابه بسرعة بين المجموعة فقد كان بشوش الوجه ومهرج محترف، ولم يكن لديه مشكلة في تكوين صداقات مع البحارة.

في الأيام القليلة التالية تابعنا باهتمام عناوين الصحف حول معركتنا. تم طباعة صورة المكنسة الموجودة على الصاري تقريبًا في كل الصحف وفي صفحاتها الأولى. مقالات مصورة، لقاءات مع القائد، كلام رئيس الأركان – كل هذا ملأ جرائد الصباح والمساء في تلك الأيام.

صنعت السفينة "إيلات" لنفسها اسمًا في سلاح البحرية، وتم تقديم عددًا من طلبات النقل إلى سكرتارية السفينة خلال الأيام التي تلت المعركة. لذلك كان من الممكن التأشير، دون أي صعوبة تقريبًا، على طلبات الانتقال من المدمرة المتراكمة على مكتب القائد في وقت سابق. في الواقع، تم إجراء عدد قليل من البدائل في غضون أسابيع قليلة، وتلقت السفينة "إيلات" تعزيزات جديدة.

أغمض الرقيب رامي صَبَان عينيه عند رفع واقي قبعته وأمسك بيده عصاه المنقوش وحاول أن يصنعًا انطباع لنفسه وكأنه شخصية جامدة. كان يتوقع وصول الرقيب كسبي. كانت الفصيلة، مثل بقية فصائل السفينة، على وشك الخروج فى إجازة للمترل لمدة ثلاثة أيام. في هذه الأيام سيدخل عدد من "المحترفين" إلى المدمرة ليغلقوا جميع فتحاها إغلاقًا تامًا. ولمدة نصف يوم سيقومون برش فراغات السفينة بمواد من شأنها تدمير أي حيوان على متنها.

هذا هو "التدخين".

توجه إلينا صَبَان قائلا: "أيها السادة! أنتم على وشك الذهاب إلى إجازة لمدة ثلاثة أيام، خلال هذا الوقت، سيحدث "التدخين" على متن السفينة وعندما تعودون، اعلموا أنه ينتظركم عمل صعب، ليس باللطيف وهو إخراج الفئران الميتة من السفينة. لذا استريحوا جيدًا فى هذه الأيام، ولا تجهدوا أنفسكم كثيرًا". ضرب برفق حافة العصا على كف يده الفارغة . وقال أكرر الطلب الذى سبق أن قيل لكم عبر الميكروفون وهو ألَّا تُدلوا بتفاصيل عن مكان تواجد المدمرة، ونوع عملكم، وأى شيء آخر عن المعركة فيمكن أن تكون مادة سرية. انطباعات ومشاعر – نعم، وبأي حال من الأحوال لا تدلوا بأى ترتيبات أو إجراءات ولا أية تفاصيل. إن الرقيب كسبي يريد التحقق من مظهركم قبل المغادرة. والجندي الذي يكون مهمل في مظهره سيتم ضمه خلال هذه الأيام إلى سفينة الطوربيدات.

بدأ ينتقل بين صفوف الجنود همس لم يكن من الصعب تخمين مضمونه ودلالته. لم يستطع صَبَان التعبير بكلمات دبلوماسية عما يريد قوله حقًا.

بدأ يمر بين الصفوف، وعندما وصل إليَّ، رأيت ظل ابتسامة على شفتيه متمتمًا بين الصفوف: "حسنًا، حسنًا". نظرت إلى الصفوف الثلاثة الخلفية. كان ثلاثة من بين جرحى المعركة الثمانية من فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال. وهم :فيكتور كروفينك ويوسف سميلا ومردخاي سعدون. لم يظهر الجرحى الآخرون باستثناء كروفينك الذي ضمَّد ذراعه. فقد كانت الإصابات طفيفة.

صعد كَسبي على منصة الأعلام بخطى شديدة نحونا. نظر إلى صَبَان وأومأ برضا عن مظهرنا. ثم حدَّق فينا بعينيه، وقال فى إشارة وبصوت جاف، وبنبرة كادت أن تطغى على فرحة الإجازة، حرَّرنا فيها: "أتمنى لكم إجازة سعيدة."

يبدو أنها إشارة متفق عليها، كما لو كان جميع المتواجدين على السفينة يتوقعون هذه الجملة، وفي نهايتها سمعت فجأة صيحات عالية من الابتهاج والبهجة، انطلقت من جميع جوانب المدمرة. ربت الجنود على أكتاف بعضهم البعض وتبادلوا العناوين وأرقام الهواتف وكأنهم على وشك الانفصال لفترة طويلة. اقتربت من جرشون الذي كان يتحدث فى نفس اللحظة مع أريه. صاح أريه: "مسلاوي". "ما رأيكم أن أحضر إلى نتانيا. لقد اقترحت هذا على يوسي هذه اللحظة. لنعش حياة ماجنة".

حلَّقت أمام عينيَّ جميع المهام التي حددتها لنفسي في هذه الإجازة وقلت: "آسف. لكنني خططت لأشياء كثيرة فى الإجازة. ربما فى مرة أخرى". "ومع ذلك لو غيرت رأيك، فإن يوسي لديه رقم هاتف." أجبت: "حسنًا، شكرًا". تصافحنا وافترقنا. وحتى وصلنا إلى السلم تبادلنا كثيرًا "سلام وإلى اللقاء"، و"امضِ وقتًا لطيفًا". كان العريف "حودرا" على السلم يصلح حزامه. كان

واحداً من القلائل الذين لم يحسن حظهم وفرض عليهم حراسة السفينة في غيابنا. اقتربنا منه وصافحناه: "لا تحزن يا "حودرا"، وحاولت تشجيعه قائلا:" عندما نعمل جميعًا جاهدين بعد ثلاثة أيام، ستكون أنت في إجازة ".

ألقى حودرا إليَّ ابتسامة مفتعلة. لقد كان شاباً هادئًا و لم يتذمَّر. وصاح ناحيتنا "لتسمتعوا بوقتكم". خطونا فى اتجاه الخروج من الميناء. كان العمل من حولنا على قدم وساق. اضطر يوسي للتحدث بصوت عالٍ:

"هل تريد الذهاب إلى أريه ليلة الغد؟"

"سنرى غدا ..."

بعد لحظات من المشي، أدرت رأسي نحو السفينة. فهي تقف منتصبة ونبيلة، مربوطة بحبالها فى مواجهة الأمواج، مثل فرسة مخلصة، مربوطة فى العمود الذى ربطت به. حاولت تخيل حالة الاستعداد للرياح. (إنذار جنود السفينة فى وقت العاصفة الشديدة من أجل الانضمام لمجهود مشترك يستهدف منع خروج الحبال من الرصيف بسبب شدة الرياح القوية). لم أستطع تخيل ذلك. حتى في العاصفة الهائجة، ستبقى المدمرة ملاصقة للرصيف. وفكرت، ليست هناك حاجة حتى للحبال. تابع يوسي نظرتي وعلق بسخرية: "ستخبرني على الفور أنك لا تشعر بالرغبة في الذهاب إلى المنزل".

أسرعت بالرد: "لا لا، لن يحدث ذلك". "هلم نتحرك نحو محطة الحافلات. ما زال أمامنا طريق طويل، لنذهب!" شعرنا بخطواتنا. وتردد صدى ملاحظة يوسي في أذني مرة أخرى، ما أزعجني.

هل أغادر المترل أم أذهب نحوه؟! لم أفكر كثيرا بشأن هذه المســـألة. كـــان الشعور بالانفصال قاسيًا لدرجة يصعب معها الخطأ.

اللقاء الأول مع طُوفَا

"أتعلم؟ فكرت مليا في علاقتنا. وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن هناك سخافة معينة، وبما توصف؟ هل نحن رفقاء ؟ لا .. هل نحن أصدقاء ؟ الأمر أبسط بكثير. هل نحن عاشقَان؟ ... لا! إذًا، فما هى طبيعة علاقتنا؟ هل فكرت في هذا قليلاً في الرحلات البحرية ...؟ " أومأت طوفا رأسها بثقل. همس سؤالها في الفضاء. لم يكن لدي جواب له. لقب "رفقاء" لم يصبنى بالصدمة كثيرًا، لأنه فى مفاهيم جيل المراهقة لم تتحقق بعض الأشياء التي يجب القيام بها لتبرير ذلك. أما لفظ الصداقة البحتة – فقد كان أمرًا هينًا بالنسبة لنا. ومع كل هذا؟ نحن نلتقي، نشتاق لبعضنا البعض، نتبادل الخطابات، أسرارنا مفتوحة ومشتركة، لكن في لقاءاتنا لا يوجد أثر لأي اتصال جسدي. ولا حتى لممارسة جنسية بسيطة.

فجأة تحرك فرع الشجرة الذى كنا نستظل به ونحن نجلس على المقعد الذى اعتدنا الجلوس عليه، حيث هبَّت رياح مفاجئة. امتد ظله على الأرض أمامنا. على ضوء قنديل الشارع الذى يشق ظلام الليل كان شيئًا غامضًا في ظل الغصن، كما لو كان يحاول بحركاته الاتصال بالبشر.

جمعت طوفا قدميها على المقعد. مظهر باب المدرسة الذي يحدث ضجيجًا كل يوم نتيجة حركة التلاميذ الداخلين والخارجين كان حزينًا، وزاد ضوء القنديل الخافت من عزلته. أجبت بهدوء: "لا أعرف". أردت أن أصمت. لقد أحببت الصمت في صحبتها. أحببت أن أصمت وأنظر حولي، وأحدِّق في ضفائر شعر صديقتى والمقعد، أنظر وأشعر بالرياح التى تهب في وجهي وتشعث هذه

الضفائر. قلت مرة أخرى: "لا أعرف". "ومن ناحية أخرى، أنا لا أهتم أيضًا. فالوضع على هذا النحو جيد بالنسبة لى."

طوفا ليست ثرثارة. هي أيضًا أحببت أن تصمت، الجمل القليلة التي قالتها ربما تكفي للحظات كثيرة. تابعت "في الواقع لماذا نحتاج إلى تعريف . حتى الآن، وطوال سنوات تعارفنا، لم نفكر في الحاجة إلى وصف العلاقة. لذلك دعينا نستمر على هذا النحو. هذا يكفي حاليًا." ردت : "أنا أيضًا لا أهتم". كانت منهمكة فى تفكيرها وخرجت كلماها بشكل تلقائى وبلا تفكير تقريبًا. "هذا الوضع جيد أيضًا وأنا مهتمة جدًا بالاستمرار على هذا النحو." نظرت إلي فجأة: "لقد اعتقدت أن هذا يزعجك". بعد لحظة طويلة، نظرت إلى الأمام نحو نقطة غامضة، و طرحت سؤالًا بصوت هادئ، لم يكد يُسمع وكأنه كان تكملة لأفكارها: "هل تؤمن بصداقة حقيقة بين شاب وفتاة؟ وإذا كنت قبيحة فهل كنت ستصبح صديقا لي أيضًا؟" أجبت: "هذان سؤالان مختلفان ومعقدان للغاية."كنت متعبًا. و لم أرد أن أشجع مثل هذا النقاش الفلسفي؛ فتوقفت. واصلنا الجلوس هكذا قرابة الساعة، نتبادل الحديث والصمت وفى النهاية قامت: "تعالَ يا عزيزى! الوقت متأخر. يجب أن أعود إلى المترل."

قمت في رهبة وإجلال. كنت لأتخلى عن عامٍ من حياتي لأضع رأسي هكذا، في تلك اللحظة، على ركبتيها وأغرق في سُباتٍ عميقٍ وحلو على هذا المقعد.

مشينا نحو الطريق. وفي محطة الحافلات تكررت الصورة المألوفة: كلانـــا نقف في مواجهة بعضنا البعض ونبتسم. تمنينا ليلة سعيدة وحتى قُبلة الصـــداقة المسموح بها حُرِمنا منها.

يصل الأتوبيس. نظرة أخيرة — هى تصعد منتصبة ومعتدلة. ثم جاءت كالمعتاد محدقة بنظرة غريبة، حزينة، محبطة إلى حد ما، في الأضواء الحمراء التى تخفـــت ببطء.

الفئران

نظرت إلى السفينة عندما عدت إليها من الإجازة. كانت هنـــاك، مقيـــدة فى حاجز الأمواج كما تركناها، تتحرك ببطء وفقًا لوتيرة الأمواج البطيئة وبقدر ما سمحت لها حبالها. وعلى حاجز الأمواج الطويل، فى المؤخرة، تباطأ الكثير مـــن الجنود، وسحبوا أنفسهم بثقل نحو السفينة، كما لو أرادوا تأجيل اللقاء المنتظر.

استقبلنا حودرا بجانب سلم السفينة بفرح. دخلت الغرفة. امتلأت الفراغات برائحة مطهر قوية. سرعان ما ندرك كم كانت هذه المادة مميتة. صاح ســـرجا بولسكى: " دعني أذهب يا مسلاوي". وصل وفى يده حقيبة الظهر اندفع بـــين الأراجيح الشبكية، وشقَّ طريقه إلى ركنه. كلانا من بين الأوائل الذين وصلوا.

سأل "منذ متى أنت هنا؟"

أجبته "لقد وصلت للتو"

"ماذا ستفعلون؟"

كررت ما سمعته من حودرا سابقا: "بعد حوالي نصـــف ســـاعة ســـنبدأ في إخراجهم" سأل بولسكي وهو يخلع حذائه "هل تريد أن نعمل معًا؟". "نحن ننام بجانب بعضنا البعض، وسنهتم بمكاننا". نظرت إليه وقلت له:" من نـــاحيتي، لا توجد مشاكل. لنبدأ الآن!" "حسنًا، فقط دعني أرتب أمرى!"

ارتدينا ملابس العمل. وإذا ما كان قد علق بنا شيء من بقايا الإجازة فإنه قد تلاشى عندما ارتدينا الملابس المتسخة. أحضرت أدوات العمل المكونة من دلوين للتعبئة وقفازات وعصا في نهايتها يوجد مسمار تم إعداده مسبقًا لهذا الغـــرض. وصل المزيد من الجنود واحدا تلو الآخر، يجرون أنفسهم إلى مكانهم ويغـــيرون

زيَّهم الرسمي دون أى رغبة. أحضر بولسكي دلوين آخرين واقترح "ســأملأه وأنت تخرجه. بعد ذلك نتبادل. "لقد كان شاباً عمليًا وكان العمل معه هادئًــا للغاية. قلت: "حسنًا". ذهبت معه إلى الزاوية الأولى؛ إلى الفئران الميتة. شرح لنا القدامى، يجب النظر في الزوايا فقط. عندما تصل إليهم الرائحة القاتلــة، هــي تبحث على الفور عن مكان للاختباء فيه ظانة أنها لن تتم رؤيتها، ولن تصاب. ولذلك فإن الأركان والزوايا هي وجهتها النهائية.

التقطتُ أول أرجوحة شبكية في الصف، والموجودة في نهاية الغرفة وربطتــها بالتي فوقها. ثم قمت بنقل "خزانتين" إلى الوصلة التي بين الأراجيح. كانت ردة فعلي غريزية: أغلقت على الفور فتحت أنفي وتجهمت. ربما كانت الفئران التي ظهرت لي من بين أول من ماتت. صدرت منها رائحة شديدة بالفعل. كانــت الكومة "كبيرة" تمامًا وهذه - مجرد زاوية صغيرة في السفينة كلها ... اقتــرب بولسكي وآخرون من الكومة صائحين:

"أوه ..."

"أريه!"

أدرت رأسي وقلت:"مرحبا! مسلاوي !". لقد وصل أريه. لامع. مســفوع ومبتسم. قلت له : "تبدو حسن المظهر، أيها الوغد!"

"وماذا ظننت؟ أني ذهبت لحرث حدائق؟"

نظرت إليه. كانت علامات الإجازة واضحة فيه حقًا، وصارت بشرته بنية، ما أبرز لون عينيه الزرقاوين وشعره اللامع. أصدرت له أمــرا " "تقــدم! ارتــدِ

ملابسك". " لتبدأ في جمع الفئران الميتة، ربما يثير هذا العمل اهتمامـــك. فقـــد انتهت الإجازة".

ضحك بصوت مرتفع: "أنا لا أفهم حقًا ما الذى يقلقكم؟"

قال فينجولد "مرحبًا بولسكي ومسلاوي!" ثم قام بفك أزرار قميصه ونظر إلينا بسخط ثم قال:

"انتظروا لحظة! لنبدأ جميعًا!"

" التقطت الدلوين اللذين ملأهما بولسكي وسرت في الممر بين الرجال الـــذين يرتدون ملابس العمل. توقفت بجانب فينجولد وقلت له بشفقة "تلك الفئـــران التي ماتت منحتنا ... ثلاثة أيام إجازة." ثم علا الضحك.

صرخ في فريشر: "يناسبك أن تكون متعهد دفن موتى" ثم قلَّدني قائلا:" بفضل الموتى "يمكنك شراء سيارة". خرجت من باب الغرفة فوجدت الكثير من الجنود مشغولين بالعمل، بعضهم بالدلو والبعض الآخر باليد والبعض بأدوات أخرى. أي فأر ميت يتم إزالته من السفينة يعني روائح أقل ليلًا. كان العمل مرتبًا بالفعل فى مؤخرة السفينة. شخص ما أخذ مني الدلاء الممتلئة وأعطاني دلوين فارغين. وفي أقل من نصف ساعة تراكمت موجة كبيرة من جثث الفئران على المنصـــة، بجميع الأحجام الممكنة وباللونين الأسود والرمادي.

لكن انتقام عائلة القوارض التي شاركتنا مقعدنا لم يتأخر كثيرًا ففـــي أقل من أسبوع، كانت هناك رائحة كريهة كبيرة في السفينة بأكملـــها. فقـــد اختفى في العديد من الزوايا والأماكن العديد من جثث الفئران المنسية التي لم يتم جمعها فى ظل الرائحة الكريهة. لكن كانت هناك ميزة في الرائحـــة الكريهـــة

نفسها؛ فالرائحة القوية أوصلتنا إلى مصدرها بسهولة مما مكننا من التخلص من جميع الجثث المتبقية. وفي غضون أسبوع آخر اختفت وصارت السفينة خالية تماما من الفئران.

كان "التدخين" أمرًا لا مفر منه، وإذا لم يتم القيام به، لكانت الحياة على متن السفينة قد انقلبت إلى معاناة وكرب. كان التكاثر الطبيعي للفئران سريعًا وعلى نطاق واسع. لقد خرجت علينا أثناء نومنا، وأكلت طعامنا، وقرضت ملابسنا ومتعلقاتنا وكانت رفقاء مخلصين حتى أثناء التدريب. لقد تسللت إلى جميع الأماكن: أماكن النوم، فوهة مدفع، تحت فراش الأرجوحة، وفي أنابيب الهواء، وفي المطبخ، وفي القشارات، وفي مقدمة السفينة وفي المؤخرة، وداخل خدمة المقصف، والبوفيه، وكذلك في قوارب النجاة. وقد سبق العديد من العمليات على السفينة التفكير فيها: عندما تريد النوم - كان عليك قبل ذلك أن تبعد فأرين من تحت الفراش، وإذا اشتريت فطائر من البوفيه - لا يمكن لأحد أن يضمن لك أنك لن يكون لك بالفعل شركاء فى ذلك الطعام، وعندما تأكل فإنها تركض حولك مثل القطط المنزلية. علاوة على الأصوات الصاخبة التي كانت تصدرها في ساعات قليلة من الليل أطارت النوم من أعيننا؛ حتى لو تحملنا رحلاتها الليلية. لذلك عندما أزيلت آخر جثة لفأر من السفينة تنفس الجميع الصعداء.

وكما هو متوقع فقد سادت النكات:

"بدأنا نشعر بأننا نفتقدها، وبالملل."

"أخيرًا سأنام في السرير وحدي."

"مم ستصنع وسادة النوم الآن؟"

ومع ذلك، كان من الواضح للجميع أن بضعة أشهر ستمر حتى تستضيف السفينة مرة أخرى تلك الحيوانات الصغيرة. فحبال ربط المدمرة بالرصيف كانت سميكة بما يكفي لتكون بمثابة جسر عبور الفئران المتسكعة من الأرصفة الجافة إلى السفينة حيث تضمن الإقامة الجيدة، وكذلك الطعام الجيد، وزواج ما يكفي لتكوين عائلة ضخمة من القوارض.

لقد تعلمنا من التجربة.

طائرات الميج في السماء

يوم الخميس، الصباح الباكر. نبدأ رحلة سيادية أخرى. لقد عـــادت ســـفينة البحرية "يافا" مؤخرًا من مهمة مماثلة منذ وقت غير طويل وعلينا أن نحل محلها. الطاقم متأهب وجاهز للعمل. ثلاثة أيام إجازة أكسبتنا نشاطًا، والسفينة خالية من الفئران، والرحلة الأخيرة الناجحة تم فيها ضرب العدو بضربة انتصار — كل هذا جعل الخروج الحالي مرغوب فيه وممتع.

غادرت القاعة رقم ١١ ممنطقًا بسترة نجاة، والقبعة مُثبَّتة بإحكام على رأسي، أستنشق الهواء الخاص الذى يميز لحظات المغادرة من الميناء. علـــى الســـطح فى مؤخرة السفينة، أتوقف عند أسطوانة الحبال، في انتظار التعليمات لاحقًـــا. وفي أطراف الشرق، تشرق الشمس في لحظات شروقها الأولى، تشرق ببطء، ببطء وكأنها متردِّدة ... وأمامي على رصيف الميناء يستيقظ الميناء لحياة صاخبة. تخرج سفن الصيد ليوم عمل آخر، ويأتي المواطنون من منـــازلهم لتشـــغيل رافعـــاتهم ولأعمالهم المختلفة. البحر أملس كالمرآة، ورائحة الطحالب ترتفع في أنفي.

يعلن المتحدث فى الميكروفون: "مواقع الربط".

أؤدي عملي بمهارة كبيرة. تؤثر سرعة فك الحبال في المؤخرة علـــى ســـرعة انفصال السفينة عن الرصيف. وفي أقل من نصف ساعة، كنَّا بالفعل في عرض البحر، نشق طريقنا جنوبًا إلى الهدف المعروف. وحتى نصل إلى منطقة "رُمَّانة" ببورسعيد أمامنا يوم كامل لأداء أعمال الصيانة الجارية في المدمرة. يوزع الرقيب صَبَان مع فريشر الأعمال. تم توجيهي أنا وقنطروفيتس لعمل "سوشي" (الليفـــة والصابون والمياه من أجل التنظيف) لقمرة القيادة.

اقتربت من بوحبوط، وهو عامل مخزن في فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال، فوضع دلوًا في يدي، وصابون وفرشاة ولوفة، المهمة: تلميع جميع أجزاء قمرة القيادة بالمياه العذبة والصابون – لساعات معدودة – لإزالة ملوحة مياه البحر التي تراكمت على السطح المعدني مؤخرًا.

سأل قنطروفيتس: "مسلاوي! هل نعمل معا؟"

قلت: "نعم ياعزيزي، عليك أن تعاني قليلاً ...".

صاح قنطروفيتس على الفور "لا سمح الله!". "قم بتقسيم العمل بيننا."

"حسنًا، اعمل أنت بالفرشاة والصابون واللوفة والماء. وسأعمل أنا كل الباقى." أطلق قنطروفيتس ضحكة ودية. قال بوداعة: "أنا لا أهتم". أخذت فرشاة التنظيف وغمستها في الدلو بالصابون وبدأت أنظف قمرة القيادة بنشاط. مرَّ قنطروفيتس باللوفة في الماء العذب، وعند اقتراب موعد الغداء، أعدنا أدوات العمل إلى بوحبوط ونزلنا إلى الغرفة.

في حوالي الساعة ١٤:٠٠، تجمعنا كل رجال الطاقم الذين ليست لديهم مناوبة على الأسطح؛ ففى هذا المكان تقريبًا تظهر دائمًا مجموعة من الدلافين ترافق طريقنا لمدة ٣٠ دقيقة إبحار. هذه الظاهرة مثيرة للاهتمام: دائمًا في نفس المنطقة فى البحر، نفس طريقة الاستقبال الودي، وكذلك فترة المرافقة، لا تتغير مطلقًا.

وظهرت بالفعل. وكان المشهد مذهلًا وحابسًا للأنفاس. عائلة كاملة من الدلافين، تقفز الواحدة تلو الأخرى وتتجه نحونا في قفزات نموذجية. وخلال دقيقة واحدة قفزت مسافة ثلاثة كيلومترات حتى وصلت إلينا. ويمكنك أن ترى

بوضوح فرحتها بأعينها الذكية والضاحكة. وعندما وصلت التصقت ببعضـــها البعض بطول جدار السفينة كأنها فى عرض عسكري، ونسقت سرعة حركتها في الماء مع سرعة المدمرة. في كل لحظة كان يقفز دولفين مرح قفزة مبهجة من شدة الفرح ثم يعود، في انضباط كامل، إلى مكانه إلى الجدار.

هذه الحيوانات الرائعة لم تترك أي شخص غير مبالٍ على السفينة؛ ففي ذلــك الوقت تواجد جميع أفراد الطاقم على الطوابق، دون استثناء. لن ننســى هــذه التجربه. كانت الصداقة الرائعة التي شعرت بها هذه الثدييات للإنسان واضحة فيها. لقد كافأناها قدر استطاعتنا؛ حيث ألقينا إليها بقايا الطعـــام، وأحيانًـــا، عندما يظهر دولفن أو آخر رشاقة نقوم بالتصفيق الحاد.

كانت الدلافين أيضًا مقياسًا للوقت بالنسبة لنا؛ منذ اللحظة التي غادرتنا فيها، حتى وصلنا إلى منطقة الدورية مرت ساعة بالضبط! أول دولفين يقفـــز جانبًـــا ملقيًا تحية الوداع يتبعه أفراد أسرته الآخرون. وخلال لحظات قليلة يختفون عن أعيننا فى قفزات سريعة إلى داخل المياه. وبعد حوالي ساعة، تنتقل المدمرة مـــن سرعة الإبحار إلى سرعة الاستطلاع، والتي عادة ما تكون أبطأ ولكنها مستقرة وفي مسار ثابت.

وهكذا تبدأ رحلة بحرية أخرى للتواجد، ومن يدري كيف ستنتهي؟!

قرَّب أريه سيجارة من فمه وأشعلها. أمعن النظر إلى ميناء مدينة بورسعيد وإلى بيوتها الساكنة التى اكتست بأول ضوء فى الصباح. يوم الجمعة هو يوم راحـــة للمسلمين، وبالتالي لا يُتوقَّع الكثير من النشاط من اتجاه هذا الميناء اليوم.

جلسنا على السطح في ممر ضيق على الجانب الأيسر من المدمرة بجوار منصة إطفاء الحرائق، ونظرنا إلى البحر في صمت.

سأل أرية: "في أي وقت تبدأ مناوبة؟"

"فى الساعة ١٢:٠٠. وأنت؟"

"أيضًا الساعة ١٢:٠٠. لكنني سأقوم بنوبتين متتاليتين. متى نوبتك التالية؟"

أجبت: "عند منتصف الليل". ذكَّرني أنني أكره مناوبة منتصف الليل؛ حيث يسيطر الهدوء الشديد على السفينة في ذلك الوقت والنشاط قليل نسبيًا، كل هذا فضلًا عن رتابة ضجيج محركات المدمرة، لقد كان وصفة مؤكدة لثقل الجفون والرغبة القوية في النوم.

سألت:"لماذا تقوم بنوبتين متتاليتين؟"

ابتسم أرييه وقال: "أنا مدين بنوبة لبولسكي وقد طلبها منى اليوم، ذلك الشقي يريد أن يقضى ليلة السبت كما في المنزل: طويلة وغير منقطعة". ذكّرته "لقد قضيت أيضًا أمسية طويلة ومتواصلة". قام بحركة استنكار "بالنسبة لي كان ذلك على الساحل. إذا كان ذلك في البحر. هناك فرق بين مناوبة في البحر ومناوبة على الساحل وهناك فرق بين الراحة في البحر والراحة على الساحل. الراحة في البحر أكثر كُلفة ..."

مسحت قطرة ماء أصابت ذقني وقلت له: "لا تنس أنه سوف يترعج هنا من تدريب المواقع القتالية وأعمال أكثر مما كانت عليه في الميناء". أنهى الموضوع قائلا: "صحيح، هذا هراء. إنه يستحق ذلك". ثم ألقى من بين أصابعه عقب سيجارته متتبعًا حركته حتى وصوله إلى الماء.

سأل: "متى ستعود؟"

"مساء يوم الأثنين، على ما أعتقد". ثم رأى الضمادة علـــى كـــف قـــدمي. فانتصب متفاجئًا "ماذا حدث لك؟" أجبته: "لقد تعرضت للإصابة، لقد نقلت مع شخص ما عدة صناديق طلقات عيار ٤٠ ملم. سقط أحدها على قدمي".

"متى كان ذلك؟"

بالأمس عندما وصلنا.

نظر أريه إلى مكان الإصابة عن قرب ثم سأل: "كيف تشعر؟"

"إنه يؤلم بعض الشيء، كان المكان حول الإصابة أزرق، وخاصة الأصـــابع. وكان من الصعب عليَّ تحريكها معًا."

هل حصلت على إذن بالراحة المرضية؟"

"كلا!"

"لماذا؟"

خلعت نعلي وأريته وقلت له "هل كان في وسعك الاستلقاء طوال اليوم على الأرجوحة الشبكية عندما يعمل الجميع أو في المناوبة؟ ربما فى الميناء، ولكن هنا؟ فى البحر ؟! "

قال لي: "أنت أحمق، لو كنت مكانك لحصلت على إذن بالراحة في البيت!"

ضحكت معترضًا "لماذا سأحتاج القدم في نوباتي على الإطلاق؟".

في تلك اللحظة مرَّ بولسكي بجوارنا، وعندما رآنا توقف وطلب منَّا إفســـاح مكان له وجلس بيني وبين أريه.

التفت جنجى إلى أريه "هل تعلم أنك ستقوم بمناوبة مسائية بدلًا مني؟"

نظر إليه أريه بذهول. وقال: "أنا؟ لماذا؟"

قفز بولسكي من مكانه وصاح مهددًا: "تعال إلى هنا! لقد قرَّرنا بالفعل. ولا تخادع! فلديَّ خطط".

واصل أريه النظر إليه متعجبًا وسأل: "أى خطط؟ على أي حال، ما تحدثنا عنه كان مزاحًا .."

صرخ بولسكي، وبدأ يفقد أعصابه "أى مزاح ؟! هل جُننت؟ لقد خططت بالفعل!"

"ما الذي خططت له؟ ممارسة الجنس؟ دعك منه هذا المساء .." اقترح أريه.

"ماذا دهاك! نحن فى البحر، يالك من أحمق"

ظهرت ابتسامة خفيفة على جانب شفتي أريه. شعرت أنها كانت توترًا.

تحدث أريه بجدية إلى بولسكي الغاضب بهدوء شديد: "ما الخطط التي أفشلتها عليك؟" اشتعلت عينا بولسكي بالغضب والاستياء وصرخ في أريه: "ماذا يهمك؟ لقد اتفقنا، وعليك أن تحترم ذلك."

كنت أخشى أن ترفع الأيدي هنا في لحظة.

صحت :"اجلس يا بولسكي"، لكنه لم ينتبه لى، وتابع صبَّ جام غضبه وثورته على أريه الخائن: "أنت أيها القذر! أنت غبي ..."

صرخت في وجهه "تعال هنا أيها الأحمق! إنه يثيرك".

توقف بولسكي ونظر إلى أريه الذي أدار رأسه إلى الجانب وبدأ يضحك.

فقال له بنبرة أقل هذه المرة: "يا قطعة وحل!.. ما كان ينقصك هو ألَّا تحل محلي معى". بدأ يهدأ عندما اتضح له أن أريه كان يرغب فقط في المزاح.

تلوى أريه من الضحك وهو يشير إلى بولسكي وهو يصيح: "لديه خطط!".

نظرت إلى بولسكي متسائلا: ما هي الخطط التي يمكنه التخطيط لها في البحر بخلاف المناوبات والعمل، وفي أثناء رحلة بحرية ذات صلة بالعمليات؟ لاحظ بولسكي نظرات التعجب من أريه ومني فانحنى إلينا وتكلم بصوت خافت: "أنا اليد الرابعة الليلة ..." (في لعب الورق) نقر على جيب بنطاله وغمز: "أحتاج إلى نقود للعطلة القادمة".

أزعجني ألم أصابع قدمي. كان سطح الممر ضيقًا وأُجبرنا على الجلوس منحنين. وبدأت في إزالة الضمادة.

سأل بولسكي الذي كان يعرف بالفعل بإصابتي "كيف حال قدمك؟".

قلت: "سيء"، وانكشفت أصابع قدمي عندما رفعت الضمادة الأولى. لم يكن المظهر مبهجًا. كانت كل نهاية القدم منتفخة وانتشرت علامة زرقاء فى أصابعي.

عاد بولسكي إلى الاستفزاز و التفت إليَّ قائلا :"أتعلم؟ يبدو وكأنها غرغرينا. كان لديَّ عم ..." وبدأ يروي القصة المعروفة وهي أنه في النهاية سيموت ذلك العم بعد المرض أو سيضطرون إلى بتر الساق ...

عندما انتهى، نظر إليَّ أريه الذي فحص التورم باهتمام كبير.

سألته "ما رأيك؟".

هزَّ أريه رأسه وقال جازمًا "غرغرينا، بالتأكيد".

وأكد لبولسكي "سيضطرون لبتر جزء كبير من الساق"..

بدأت في ربط قدمي بسرعة، رغم أنه كان واضحًا لي أن الأمر برمته مجرد دعابة فقط . تابع بولسكي: "أقسم بحياة مسلاوي، أني أحب إبهامك وهو سمين ومتورم هكذا ..."

وأضاف أريه: "كل القدم جميلة. أرأيت؟ يا لها من ألوان."

ألقيت نظرة جادة على بولسكى وسألته: "أنت تقول غرغرينا؟!".

صرخ بوجه جاد "بالتأكيد".

قلت :"إذًا سأهديك إبهام القدم الذي أحببته، بمجرد سقوطه،" ضممت يدي إلى صدري في حركة القسم، "أعدك".

قال بولسكي بحماس:" جميل!" ثم صرخ. "سأصنع منه سلسلة مفاتيح."

التفت أريه إلى بولسكي قائلا: "أتعلم، إن هذا المرض منتشر ولذلك فأنا أعتقد أن جميع الفصائل على متن السفينة سيكون لديها سلاسل مفاتيح. ثم أدار رأسه لي ثم قال: "أنا أحجز إبهام القدم الثانية."

"لقد سجلت ذلك يا رفاق. لا توجد مشكلة. والدفع لدى أمين صندوق السفينة."

تفاقم الألم في ساقي و لم يكن التسكين المؤقت الذى شعرت به عندما صعدت على فراشى وقت المساء سوى علامة على الأشياء القادمة. موجات الألم التي هاجمتنى أبعدت عن عيني حتى الغفوة الخفيفة. انتشر الألم الحاد وارتفع نحو فخذي وكل الإجراءات التي اتخذها بدءًا من الضمادات الرطبة التي وضعتها على

قدمي وانتهاءً بمرهم بارد وممتع، والذى قدمه لى المسعف لأدهن به أصـــابعى؛ لم تخفف من الألم.

لمدة ساعتين تقريبًا جربت فيهما جميع الأوضاع الممكنة، لتقليل الشعور بالألم قدر الإمكان. أضع قدميَّ فوق بعضهما البعض، وعلقتهما على حبال الأرجوحة الشبكية التى فوقي، فرَّجتهما، وأثنيتهما، كل هذا دون جدوى. وعندما توالت الآلام وازدادت، قمت من أرجوحتي. كان هناك شيء آخر لم أجربــه: المــاء المثلج!

و لم أكد أضع قدمي على الأرضية المعدنية الخشنة، حتى صاح فجــأة مكــبر الصوت، ودقَّت أجراس الإنذار بصوتٍ مرعب:

"مواقع قتال الطائرات! مواقع قتال الطائرات ...!"

في تلك اللحظة انتهى الألم وذهب كأن لم يكن. صرخ أحدهم:

"إلى الأمام يا شباب!" وسيطرت على الفريق روح عاصفة. ركض الجميع إلى أعلى حتى المواقع لصد هجوم الطائرات.

انتعلت حذائي بسرعة متجاهلا الألم. وفقط عندما كنت في الطابق العلوي، في موقعى، استطعت إدراك حقيقة أنه بجانب سترة النجاة وحذائي، كنت أرتــدي الملابس الداخلية فقط ...

وفي مواقع المدفع الرشاش التقيت بزميل جديد، وهو بوحبوط. كان ينتظــرني هناك، وكان صغيرًا ونحيفًا. كل جسده يرتجف مثل ورقة الشجر. كان بوحبوط محبوبًا من جميع أفراد الطاقم. شخصيته التى تفتقد الحماية، أبعاد جسمه الصغيرة وعيناه الخائفتان جعلت الجميع يريد حمايته.

سألته " كيف الحال يا بوحبوط؟". اهتز بوحبوط فتحركت الكلمات من حلقه. كانت الكلمة الوحيدة التي قالها "طائرات ميج". أردت طمأنته: "ما الذي تخاف منه؟" سألته بتوبيخ: "ألا تعلم أن لنا اليد العليا؟ الحقيقة أنهم لا يهاجمون. نحن في ظلام دامس! هم لا يروننا، وفرص مهاجمتهم لنا ضئيلة ..."

التفسيرات التي قدمتها لبوحبوط عملت أيضًا على طمأنتي.

هدأ بوحبوط قليلاً، وبدأ في إعداد الموقع للمعركة.

والتفت الآن ونظرت حولي. كان ظلام دامسًا. شوهدت فقط ظلال المدمرة السوداء وكانت ساطعة في ضوء النجوم على خلفية البحر الكبير اللا متناهي. أبحرت المدمرة ببطء وثبات وحرص على عدم إحداث الكثير من الضوضاء حتى لا تُكتشف. كانت الأرضية في الموقع ٠٥ رطبة وخشونتها فقط هى التى منعت الانزلاق. كانت الصورة التي رأيتها مألوفة: نوافذ العاصفة فى قمرة القيادة، ومكبرات الصوت التى تعمل فى هدوء، والقائد في كرسيه حيث لا يتحرك الميكروفون من فمه، الأوامر تنهمر، وتهتز الأمواج قليلاً، والجنود في كل مكان يرتدون الخوذات الصلبة.

لم يكن مظهري بملابسي الداخلية داخل موقع إطلاق النار غير عادي. كان هذا نداء طوارئ ويجب ارتداء ما هو ضروري ومهم. ولو أننا ضيعنا لحظات ثمينة على ارتداء الملابس، لكان من الممكن أن يكون ذلك مصيريًا.

وكان يستطيع المرء في هذا الصمت الشديد الذي ساد أن يسمع سبب النداء للمعركة. لقد سُمِعَ فوقنا أزيز طائرات، ربما اثنتان، بدا فوقنا، ثابتًا وراسخًا.

ليس هذا إذاً مجرد مراقبة لنا فقط؛ بل كان من الواضح لنا جميعا أنه يتم اعتراض طريقنا الآن.

أرسلت من أجهزة الاتصال بيانات وأوامر:

"ليقدم موقع ٤٢ تقريرًا عن الوضع**!**".

"نحن مستعدون،"

"أبلغ يا مركز معلومات القتال عن الوضع كله**!**"

"روت".

"الموقع ٠٥ ما هي حالة الذخيرة؟"

"كاملة."

أخذت حزام الجلد الخاص بالمدفع الرشاش وربطته حول خصري.

أصبحت الآن ملتصقًا بإحكام بالمدفع الرشاش. منحني الحزام الاستقرار وحرية الحركة تمامًا. تمكنت من التحرك باستخدام المدفع الرشاش بقوس ١٨٠ درجة وبسرعة كبيرة وبدون سقوط.

كنت في حالة تأهب، نظرت إلى أعلى. ويبدو أن الطائرات كانت على ارتفاع شاهق فوقنا. وفقط بريق أحمر خافت جدًا كان مرئيًا في الظلام. لقد رافقونا عن طريق الجو، متابعين كل حركة من حركاتنا ككلب أمين.

همس بوحبوط: "أعتقد أن هذا القائد اقترب كثيرًا من بورسعيد".

نظرت في اتجاه المدينة. من الصعب جدًا تحديد المسافات ليلًا لكن حسب شدة الضوء وحجم المنازل أدركت أنه محق. وبحسب مقياس دامت كان مسموحًا لنا

بالتواجد على مسافة ١٢ ميلًا من ميناء بورسعيد، ويمكن أيضاً من على مسافة ١٤ ميلًا رؤية كثافة ضوء مماثلة.

الطائرات لا تزال فوقنا، رافضة الانحراف حتى أدنى انحراف إلى الجانب أو إلى أسفل. ماذا لو بقيت على هذا النحو طوال الليل؟

كان صديقي فى الموقع هادئًا. وكان يتمتم من حين لآخر بأشياء لا معنى لها ثم يصمت مرة أخرى. قلت لنفسي: "إنها ستقويه فقط". وفجأة اقترب ذلك الأزيز الخافت الذى فوقنا. ولكن عند الوصول إلى ارتفاع متوسط، استقرت الطائرات مرة أخرى. كان التوتر في ذروته. فمن المحتمل، فى أى ثانية وبشكل مفاجيء، أن يفتحوا علينا النيران الحية بغضب.

وعن غير قصد بدأت أفكر في المترل. ليلة السبت، الآن تخيلت الشموع المضاءة على الطاولة، والعشاء مع جميع أفراد الأسرة الملتفين حول الطاولة. والدي يرتدي ملابس البيت وأخي يعزف على الجيتار. كدت أسمع صوت والدي وهو يرتل صلوات استقبال يوم السبت. رأيت بوضوح الغطاء على رأس أمي بعد الاستحمام ... والأضواء مضاءة في جميع أنحاء المترل.

"باركتني بالتحية ملائكة السلام، ملائكة الخدم، ملائكة العلي...." همست لنفسي وشعرت بضآلة الإنسان أحيانًا. أنا هنا في الظلام الدامس، أتكيء على المدفع الرشاش في ملابس داخلية وسترة النجاة، وأنظر إلى السماء المظلمة على أملٍ كبير أن تتراجع الطائرات وتتركنا وشأننا.

بدأت في حساب وضعنا. وعلى أي أساس ستتمكن الطائرات من توجيه نيرانها؟ فنحن في ظلام دامس وفرصها ضدنا ضعيفة حقًا. يكفى وهج النار الصادر من مؤخرة الطائرات ليمنحنا ميزة رؤية الهدف.

بدأت في إدارة المدفع الرشاش ذهابًا وإيابًا. قررت بغضب أن أسقط واحدة منها على الأقل. تحسست زناد المدفع الرشاش. كنت أرغب في الضغط بقوة، حتى النهاية. وأن أطلق النار. وكلما اقتربت مني أكثر، كنت أرغب في تحطيمها أكثر. لماذا لم يُصدر القائد الأمر؟ إنها قريبة جدًا وفى مرمى النيران! هكذا؟ إنها ليلة السبت؟ أبقونا في مواقع التأهب القصوى لمدة ساعة كاملة تقريبًا؟

فجأة بدأت الطائرات في الارتفاع. صعدت ببطء نحو السماء، وتلاشى أزيز محركاتها، وفي غضون لحظات قليلة اختفت في ارتفاعات السماء.

لم تتأخر الأوامر:

"اترك مواقع معركة الطائرات!"

قمت بفك رباط حزام المدفع الرشاش. كان بوحبوط بالفعل في طريق عودته إلى مناوبته. شعرت بقليل من خيبة الأمل، فلم أنتقم كما ينبغى ممن أزعجونى يوم السبت.

كانت الطوابق زلقة ولاتزال الظلمة سائدة. كنت أتلمس طريقي ببطء. وتتابَع ببطء كثير من الرجال في الممر شديد الانحدار المؤدى إلى قاع السفينة، والذي كنت أفضله؛ ففي طريق العودة من مواقع القتال لا يسرعون.

وعندما وصلت إلى الغرفة، كان الضوء مضاءً بالفعل وكان معظم ساكنيها متواجدين بها. وصعد البعض بالفعل على أراجيحهم، وكان الآخرون مشغولين

في تبادل صاخب للانطباعات. بدأت أرتدي ملابسي. مرَّ يوسي جرشون بجواري وسألني: "هل رأيت كيف أصابنا هؤلاء الأوغاد بالتوتر؟" رمش بعينه بسبب الانتقال المفاجئ للضوء.

أجبت "نعم، وبخاصة ليلة السبت".

نظر إليّ "لكنهم هربوا".

"لماذا ترتدى ملابسك؟"

"أنا ذاهب إلى الطابق العلوي، قدمي تدفعني إلى الجنون."

"ماذا حدث لقدمك؟"

"سقط عليها صندوق الذخيرة".

"صندوق الذخيرة؟" انحنى يوسي قليلاً لإلقاء نظرة أفضل على المكان المصاب. وسأل: "وكيف كانت البداية؟"

"بعض التورم، ثم أصبحت لا توجد مسافة بين الإصبع والآخر تقريبًا."

عبس وجه يوسي ثم قال: "لماذا لا تذهب إلى الطبيب؟!"

شددت القميص داخل سروالي. ومازحته: "هناك عدد قليل من سلاسل المفاتيح متبقية، هل تريد واحدة؟"

فغر يوسى فاه في دهشة. سيظن أني قد فقدت عقلي من الألم.

سأل "عمَّ تتحدث في منتصف الليل؟ معذرة". في تلك اللحظة مرَّ بولسكي بجانبنا في الطريق إلى سريره. توقف والتفت إلى يوسي وسأل بجدية "هل حجزت سلاسل المفاتيح من مسلاوي؟".

"سلسلة مفاتيح؟!" أخذ يردد، "ماذا حدث لكم يا رفاق؟"

في مواجهة نظرات يوسي المندهشة، انفجرت أنا وبولسكي فى الضحك بصوت عالٍ، وفغر يوسي فاه مندهشًا، وذهب بولسكي إلى ركنه يضحك. وتوقف بجانب سريره وصاح:

"مسلاوي! أعطه الإصبع الأيمن الصغير".

نظرت إلى يوسي: "حسنًا، هذا يناسبه حقًا، على ما أعتقد."

أمسك يوسي برأسه. لم يفهم ما كان يحدث.

فتمتم "هؤلاء الرجال أصابهم الجنون". "أقسم أنهم أصيبوا بالجنون."

لقد أمضيت لحظات هدوء المناوبة التالية بالكامل في التفكير والتحليل. وكان التفكير والتحليل من الأمور التى أحب فعلها "لقتل الوقت". وتعد المواجهة التى كانت لنا الليلة هي الثانية في الأسابيع الأخيرة. مما يدل على أن وجودنا في المنطقة يستفز المصريين كثيرًا. انتهت المعركة البحرية بزوارق الطوربيدات بهزيمتهم، لكن ربما جعلهم ذلك يريدون إخراجنا من المنطقة وإفشال جهودنا فى فرض حقائق جديدة على الأرض. فمن قبل، استخدموا زوارق الطوربيدات واليوم تم إرسال الطائرات ومن يدري ماذا سيحدث في المستقبل؟ لم أشك للحظة في قوتنا وفي مهارتنا، ولكن ماذا سيحدث لو أرسل المصريون كل أسطولهم إلينا في الأيام القادمة؟ حقيقة يكفيهم إرسال سفينتين صواريخ لمحاربتنا ثانية مع ميزة واضحة لهم. وبصفة عامة هل لدينا طريقة للتعامل مع الصواريخ؟

لقد توصلت إلى نتيجة حتمية مفادها أنه ستكون هناك محاولات أخرى للإضرار بنا في المستقبل وربما حتى القضاء علينا تمامًا. الآن كان شعورهم

بالانتقام أقوى ومضاعف. لا يكفي أننا استولينا فجأة على منطقة كانت حتى وقت قريب ملكًا لهم، ولكن أيضًا أغرقنا سفينتين من سفنهم في نفس المكان وتسببنا في سقوط ضحايا. كنت على يقين من أنهم سيحاولون مرة أخرى. ولكن ما هي الطريقة التي سيختارونها هذه المرة؟

قد لا نتمكن بعد الآن من القيام بالاستطلاع بشكل متناوب وسيتعين علينا أن تكون "إيلات" وأيضا "يافا" في المنطقة، أي أننا لن نرى الميناء فى حيفا لوقت طويل وبالتأكيد لا مجال للحديث عن الإجازات ...

نداء يطلب تقريرًا عن العمق من مركز معلومات القتال هو الذي أيقظني من أفكاري.

السقوط في الماء

فجر الثلاثاء ، هزَّنى بكر بكتفه:

"مسلاوي! انهض! ، لقد وصلنا!"

فتحت عينيَّ ببطء.

لم أستطع النوم لمدة ليلتين متتاليتين بسبب الألم في قدمي، ولكن في الليلة الماضية قلَّ الألم واستفدت من ذلك فرُحت فى نوم عميق ليلة طويلة. وافق فريشر على تحريك الورديات حتى أتمكن من النوم المتواصل طوال الليل. في الواقع ، لقد نمت جيدًا. أخبرونى في الليلة السابقة أنهم اختارونى أنا وبكر وسيرسلوننا لامتحانات المرحلة "الثانية" للعمل على الرادار، والتي ستعقد في قاعدة تدريب البحرية. وفي المساء ذاته ساعدني قنطروفيتس لمدة ساعة ونصف في مذاكرة مادة الامتحان، ومراجعة المفاهيم وتحديدها بشكل صحيح – والتعرف جيدًا على كيفية رسم خرائط الساحل وحساب المسارات ... لذلك كنت جاهزًا لاختبارات المرحلة الثانية.

طلبت أن أعرف أين نحن؟

" اجتازنا عتليت."

"فلماذا أيقظتني الآن؟"

انكمش جبين بكر غضبًا.

"ماذا تقصد؟ علينا أن نكون مستعدين !!"

"حسنًا ، حسنًا. ماذا يجب أن آخذ؟"

وصف بكر بالتفصيل أدوات الاختبار التي يجب أن نأخذها معنا. ثم سألنى بعد ذلك: "هل لديك إذن من الطبيب للسير فى الخارج بصندل؟"

"نعم" أجبت ببطء. لقد أعجبنى فكان من مزاياه التفكير في كل التفاصيل الصغيرة، حتى لو لم يكن ذلك يعنيه على الإطلاق. وخلال نصف ساعة كنا في طريقنا إلى الزورق، ورافقتنا تحية زميلنا "بالنجاح".

وقفنا أمام المطبخ، حيث بدأ ريكين في فك الزورق. ظهر أمام أعيننا ميناء حيفا حاميًا بظله جبل الكرمل. وعلى الرغم من مرور عدة أيام منذ مغادرتنا حيفا، إلَّا أنني شعرت برغبة قوية في أن أكون هناك بالفعل داخل ضجيج المدينة.

قفزنا إلى القارب. أقبل ريكين وشخص آخر من فصيلة سطح السفينة فى أعقابنا. شعرت بعدم الارتياح وأنا أرتدي زي الفسحة المنشِّي. في نهاية الامتحانات علينا العودة إلى السفينة بأنفسنا. سيتم بالفعل ربطها بالرصيف. أعطى ريكين الإشارة وانطلق الزورق إلى طريقه. اقترب الرصيف منا ببطء. كان أطول بقليل من جدار الزورق العادي لأنه يتكئ على أعمدة في داخل الماء. أبطأت الدفة السرعة. وقفت أنا وبكر في المقدمة مستعدين للقفز إلى الرصيف. كدنا نصل. يستعد بكر ويقفز، وأنا أتبعه. لكني لم أخمن بشكل جيد حركات الدفَّة، والتي بمجرد أن قفز بكر وضعت الزورق في وضع التشغيل للخلف. وكانت النتيجة أننى أسبح في الماء بين أعمدة الرصيف وأصرخ على بكر، والذى اندهش من الطريقة التى أردت بها الوصول إلى الرصيف. وسارع ريكين، الذي أدرك على الفور خطأ المتحكم في الدفة، إلى الإمساك بي. كانت القفزة التالية أكثر نجاحًا. هذا ما حدث، وصلت مبتلا ومتقطرًا بالماء إلى قاعدة

التدريب، مما أثار ضحك بعض أصدقائي من قاعدة الشاطئ الذين التقيتهم هناك وحضروا هم أيضًا للامتحانات. فسخروا قائلين: "كان يبحث عن البلل، وحصل عليه".

استمرت اختبارات المرحلة الثانية (ب) ما يقرب من خمس ساعات. في نفس اليوم أبلغنى الرقيب الأول المسئول عن الامتحانات في القاعدة بنجاحي أنا وبكر. هذه مكافأة البحارة الذين" يبذلون جهدًا فعليًا فى عملهم كل يوم وكل ساعة. شكرنا الرقيب وسارعنا عائدين إلى السفينة لإبلاغ أعضاء فصيلتنا بنتائج الامتحان.

بمجرد أن دخلنا من باب الحجرة، توجهت جميع الوجوه إلينا متساءلة. أجبتهم بإيجاز: "لقد نجحنا". تلقوا النتيجة بعدم اكتراث تام، وفي شبه استنكار. فقال أريه في حركة إنكار كان ذلك واضحًا فرجال سفينة سلاح البحرية بإيلات لا يفشلون. في تلك اللحظة دخل فينجولد الغرفة. وبمجرد أن رآنى انفجر فى الضحك بصوت عال وصاح : "ها هو سبَّاحنا".

تذكرت سقوطي وابتسمت. أخبرتهم مباشرة عن الواقعة. وما إن انتهيت حتى أبلغني فينجولد بأن الرقيب صَبَان كان ينتظرني في موقع المدفع الرشاش الأيسر. أدركت أن صَبَان أراد إخباري رسميًا بنتائج الامتحان.

تسلَّقت قمرة القيادة.

كان الوقت متأخرًا بعد الظهر. وقف صَبَان متكئًا على سور الموقع، ووجهه تجاه البحر. اقتربت منه. التفت إليَّ ومدَّ يده بابتسامة عريضة.

قال بإيجاز: "تهنئتى".

أجبته "شكرا".

تعجبت لماذا لم يدعو بكر لنفس الموقف.

"موشيه ليفي" توجه إلي رسميًا الآن، بوجه جاد قائلا "أردت أن أتحدث معك في موضوع مهم".

نظر حوله. كانت قمرة القيادة خالية من الناس. فبدأ مباشرة وقال لي:

"أريد أن أعينك رقيب الفصيلة ، فما رأيك؟"

نزل عرضه عليَّ كالصاعقة. وبدأ ألف سؤال يداهمنى: أنا؟ ما معنى هذا؟ ماذا حدث لفريشر؟ وماذا عن من هم أقدم منى فى السفينة؟ كيف سيتقبلون هذا؟ من الذي سيوافق على تلقي الأوامر من مستجد مثلي؟

شعر صَبَان بارتباكى. وضع يدا حانية على كتفي وقال لي:

"صدقني، لقد فكرت كثيرا قبل أن أعرض عليك هذا. أنا أتفهم تخبطاتك. لا تعطني إجابة الآن. فكر في الأمر."

التفت إليه بحدة قائلا: "صَبَان! كيف تعتقد أننى أستطيع إدارة الأمور؟ فأنا جديد وكيف سيتقبل الرفاق هذا الأمر؟ وعلاوة على ذلك فليس لديَّ خبرة و لم أمارس العمل بشكل جيد بما فيه الكفاية .."

ذكَّرني "لقد اجتزت الامتحانات".

"إذن، امنحني الوقت لأكتسب خبرة عملية على الأقل!"

قال لي: "لا تقلق! ستحصل مني على المساعدة والدعم الكاملين. سأعطيك تعليمات مناسبة كل صباح. وإلى جانب ذلك، ما الذي يهمك بشأن الرجال؟

هم سوف يتقبلون ذلك تدريجيًا. لن يكون لديهم خيار. لو علمت بوجود شخص من القدامى أكثر ملاءمة للمهمة لما ترددت. لا تخف! من سيرفض الانصياع لأمرك، سأنال منه!"

فركت أصابعي بعصبية. وبدأت أفكر بالفعل في كم المرارة والغضب الذي سيوجه إليَّ جراء هذا التعيين. وتذكرت فريشر، فسألته "ماذا عن فريشر؟ لقد كان ممتازًا مع الجميع اليوم ..." قاطع كلامى بغضب: "دعك من فريشر!" واضح من نبرة صوته أن السؤال لم يكن مريحا له. "لا تقلق بشأنه! سيحصل على وظيفة أخرى. اذهب إلى غرفتك وفكِّر! أنا لا أريد أن أفرض هذا الأمر عليك. واعطني إجابتك بعد يومين!"

نظرت إليه متأملا، وترآت أمام عينى تلك اللحظة، فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال منظمة وجاهزة للمهام، حيث يقف الرقيب كسبي وصَبَان وأنا أمامهم وهم ينظرون إليَّ في غضب.. عندما أعطيهم الأوامر ... كلا، هذا لم يرق لي.

قال بشكل واقعي: "حسنًا أيها الشاب، فقط لا تخبر أي شخص بهذا الأمر في هذه الأثناء." فأومأت رأسي.

"حسنًا، سأفكر في الأمر، شكرًا على الثقة على أية حال."

استدار وبدأ السير باتجاه مؤخرة المدمرة وتركنى متكئًا على منصة الموقع، والفكر يشغلني. بدأت الشمس تغرب. قررت أن أستشير أريه ويوسي وأتبادل مع فريشر بعض الكلمات.

كاد ألم قدمي يختفى تمامًا بفضل رعاية المسعف "فردى" المتفانية. وتلاشى اللون الأزرق الذي انتشر فى قدمي أسفل الجلد، لتحل محله بشرة مسفوعة ومريحة

لقدم صحية. وقمت بإزالة الضمادات لكى أحصل على الظل الدافئ والمريح لقدم صحية. والآن أستطيع السير بسرعة كالسابق، وانتعال صندلًا دون أن أقفز من الألم، بل وأركض.

لم تكن المحادثة التي أجريتها مع أريه ويوسي حول اقتراح صَبَان حكيمة. هزَّ أريه كتفه و لم يفهم حيرتى على الإطلاق:

قال لي بلا مبالاة: "دعك من الجميع واحزم الأمر بنفسك!"

كان يوسي أكثر اعتدالًا. وكان مندهشًا بعض الشيء من عرض المنصب عليَّ، لكنه قال إذا كان قد صدر أمر، فيجب أن أكون رقيب الفصيلة. و لم أتحدث مع فريشر فى أي شيء. فقد كان فى هذه الأيام متجهمًا وسريع الانفعال. علمت في وقت لاحق أنه استفزَّ صَبَان علانية، عندما أخذ صلاحيات معينة تتعلق بترتيب المناوبات بدون استشارة أي شخص، وتطور العداء، ونتيجة لذلك قرر صَبَان استبدال رقيب فصيلته المتمرد.

وهكذا وجدت نفسي بعد عدة أيام أقف أمام الفصيلة وأوزع تعليمات العمل. فى الواقع تقبل أفراد الفصيلة منصبي الجديد، ومرَّ أول يوم لي كرقيب لفصيلة "الاستكشاف والملاحة والاتصال" دون وقوع حوادث.

في تلك الأثناء، علمنا بغياب أحدهم على متن السفينة، إنه "موندى". لم ينضم إلى الرحلة الأخيرة، وفي الواقع لم يعد إلى السفينة من إجازته الأخيرة. وإن لم يعد فى غضون ثلاثة أيام سيعدُّ هاربًا من الخدمة العسكرية.

لم يفاجئني فعل موندي هذا. علمت أن هذا كان غيابه الثاني من السفينة في فترة قصيرة جدًا وكنت متأكدًا أنه لن يعود هذه المرة سريعًا بسبب الرحلات البحرية وكثرة التدريب.

غناء أمام سواحل العدو

يوم الأربعاء بعد الرحلة إلى "أخزيف" انطلقنا في رحلة بحرية أخرى لتأكيد التواجد. لم يخمِّن أحدٌ ولم يدرك أفراد الطاقم ولا القيادة، أنها ستكون الجولة الأخيرة للسفينة. فلم يعرف أحد، أننا في نفس الوقت كنا نبحر إلى مكان ما بين رمَّانة وبورسعيد. فهناك معلومات حول هجوم صاروخي ضدنا، يوشك العدو على القيام به في رحلتنا البحرية القادمة. لم يفكِّر أحد أننا أصبحنا بالفعل في هذه اللحظات أول هدف حقيقي في التاريخ سيتم إطلاق صواريخ بحر بحر عليه. كما لم يتصور أحد بالطبع أن هذه الأيام ستكون الأيام الأخيرة لسبعة وأربعين من مقاتلي السفينة.

مرَّ يومان آخران. بدا يوم الترفيه على شاطئ أخزيف فجأة بعيدًا، كما لو كان قبل سنوات. بدأت هذه الرحلات تثقل كاهلنا. وسادت حالة نفسية سيئة بين الطاقم. فبدلاً من التعود على الجولات، بدأنا نشعر بأعبائها تثقل كاهلنا، وأصبحت عديمة الفائدة. وعلى الرغم من أن الرحلات البحرية كانت مثيرة للاهتمام، ولم تكن تفتقر إلى التشويق والمغامرة إلا أني قد سئمتها. انتهت الحرب عند الأسلحة الأخرى، انتهت منذ فترة طويلة لكنها، بالنسبة لنا، بطول الحدود البحرية، قد بدأت للتو.

تم تعزيز هذه الافتراضات في اليوم الثالث من الرحلة. استدعاني المقدم أريه مرماري، نائب قائد الفصيلة إلى قمرة القيادة صباح يوم الجمعة، تحدث فى الموضوع مباشرة قائلا: "ليفي، سمعت أنك تعزف على الجيتار."

نظرت إليه متسائلًا كيف عرف بذلك؟

قلت "أعزف قليلاً من أجل المتعة. بعيدًا عن أن أكون محترفًا. لماذا؟"

قال "أريدك أن تعزف هذه المرة ليس فقط من أجل متعتك، ولكن من أجل الجميع".

"لا أستطيع يا مرمري، بالكاد أعرف عدد الأوتار، حتى أنني أرتبك عندما أكون وحدي، لا أمتلك مخزونًا من الألحان، ولا أعرف كيف أغني، فأنا أهمهم أحيانًا وهذا كل شيء." وضع مرمري يده على كتفي. كان لديه وجه صبي ويزين لحيته احمرار. "ليفي! معنويات المجموعة منخفضة للغاية. إذا كنت تهمهم فقط، همهم أمام المجموعة. لن أعدهم بعرض على مستوى سان ريمو. كل ما نحتاجه هنا هو آداء غناء عام، وذلك سوف يساعدنا جميعًا".

لم أستطع الرفض. اعتقدت أنه يمكنني التدرب حتى المساء وتجهيز أى معزوفة. سألته "فى أى وقت؟".

"يُفضَّل بعد وجبة العشاء".

"جيد. سأذهب إلى ركنٍ ما لأتدرب. وأين سيكون الحفل؟"

"عند منصه الطوربيد الخلفي."

"حسنًا."

مدَّ يده: "شكرًا ليفي".

"أراك في المساء." توجهت إلى الغرفة. جلس فريشر على حافة سريره يصلح زِرًا فى قميصه. سأل "ماذا أراد منك؟".

"أن أعزف على الجيتار الليلة".

"حسنًا، هذه فكرة جيدة."

اهتم شخص ما وسأل "ماذا حدث؟" .

أعلن فريشر بفرحة: "مسلاوي سيعزف على الجيتار الليلة".

صاح بعض المقيمين في الغرفة "رائع ... جميل ..." .

ذهبت إلى مكاني. وتحت السرير السفلي كان جيتاري هناك مهملًا. لم أستطع استخدامه فى الرحلات البحرية. أخذته من مكانه وأمسكته بخفة. يجب عليَّ أن أعامله بشكل جيد. وإلا فإنه سيخونني .

نظرت فى ساعتي. لدي ساعتان الآن، وبعد مناوبة الظهيرة حتى المساء. صعدت الطابق العلوي. كانت الشمس عند الزاوية ٤٥ وكانت حرارتها شديدة فى ذلك الوقت من الصباح. بحثت عن ركنٍ لأكون فيه بمفردي ووجدته في موقع مدفع ٤٣ في المقدمة.

هبَّ نسيم بارد من البحر فبردت حرارة جسدي قليلاً. أخرجت من جيبي ريشة العزف وبدأت في ضبط الأوتار. كان لدي شعور بـــأننى فى مهمة. تم تكليفي بمهمة رفع الروح المعنوية لمن على متن السفينة وكان علي أن أفعل ذلك قدر استطاعتي. بدأت عملي بنشاط. تملكنى حماس غريب. شعرت كأن أمواج البحر أمامي على وشك التحول إلى اندفاعات هائلة ويحركها الاحتكاك على الأوتار. أردت أن أنجح في مهمتي، وبالفعل فى النهاية رفعت معنوياتي ...

في المساء، تجمع بعض أفراد الطاقم وحضروا إلى منصة الطوربيد الخلفية في الجزء الخلفي من المدمرة. كان نداء مرمري بالميكروفون مثيرًا للاهتمام:

"بيان مهم لجميع الطاقم، انتبهوا: بعد العشاء ستقام أمسية ترفيهية، عزف على الجيتار بالقرب من الجزء الخلفي من منصة الطوربيد. سيتم توزيع النبيذ والكعك مجانًا. كل الطاقم مدعو للحضور".

سيكون الاحتفال فى المساء. يوجد نبيذ، وكعك، وجيتار ... سمعت البيان وغمرتنى موجة من الخوف. خشيت من أن أخيب أملهم. لماذا يختلق الحكايات؟ ألا يستطيع أن يقول ببساطة "تعالوا نغني معًا!" وكفى؟

على الفور جاءت الربتات على الأكتاف وصرخات: "أنت يا مسلاوي؟! لماذا لم تقل إنك تعزف الجيتار؟!" ولم يتركوا لى مجالًا للاستعداد لمهمة المساء.

كان الظلام قد حلَّ في كل مكان. ولأننا في ظلام دامس أمام ميناء العدو، تمتعت عيوننا بالأضواء الخافتة لمدينة بورسعيد وزودتنا بإضاءة لحفلتنا. ملايين الأمتار المكعبة من المياه التي صبغها ظلام الليل باللون الأسود فصلت بين هذه الأضواء وبيننا، ولكن في الليل تأخذ المسافات بعدًا مختلفًا، وكان سهلاً علينا أن نشعر بقرب الأضواء إلينا، لم أستطع أن أرى كثيرًا، لكنني سمعت ما يكفي.

سمعت أصوات السعادة والنكات والضحكات والبهجة وقد شجَّعني هذا. اعتقدت أنه سيكون من السهل إسعادهم. تبدَّدت بعض مخاوفي. جلست على سطح معدني وتجمع حولي أفراد الطاقم من جميع فصائل السفينة الذين لم يكونوا في نوبة حراسة في ذلك الوقت. ومنحنا كعك السبت الحلو الذى خبزه "عكيفا" الطباخ، وتم توزيعه بسخاء كبير، مذاق مساء السبت.

ساد صمت. كان اهتزاز السفينة الخفيف لطيفًا ومريحًا. اعتقدت أن صخب المحرك الرتيب وصوت الأمواج ساعدونى قليلاً فى ألَّا يسمعوا.

التفت إليهم قائلا: يا رفاق! "لا تتوقعوا مني أن أكون رائعًا. أنا بحاجة كبيرة إلى مساعدتكم وإذا لم تغنوا معي"، حاولت أن أمزح "ستبقون بمفردكم .. لنبدأ. سأعطيكم النغمة وأنتم تهمهمون بعدي".

توسعت بعض الشيء فتذكَّرت آلة الهارمونيكا الخاصة بى وهى موجودة فى خزانة الملابس في المترل. اعتقدت أنها ستكون أكثر فاعلية هنا. ولسبب ما، عدلت فجأة عن الخطة التى جهزتها واستبدلت الأغنية الأولى التي جهزتها وبدأت أعزف أغنية **WE SHALL OVERCOME** وكانت الاستجابة مفاجئة. ورافق عزفى همهمة هادئة من جميع الحاضرين. لقد كانت همهمة حقيقية، نعم ، وصارت أعلى وأعلى لدرجة أنني خشيت أن تصل إلى المدينة الساحلية التي أمامنا.

ونفس الأمر كان مع الأغنية الثانية والأغانى التى تلتها، هكذا كان التصفيق الإيقاعي الذي صاحب الإيقاعات، هكذا كانت الأصوات مرتفعة تردد أغنية: "هذه الليلة العظيمة، وأغنية "لكِ أبتسم" والأغاني الأخرى.

وعندما زاد الطلب على بعض الأغاني – الأكثر إيقاعية ، والتي لم أكن أعرف طريقة عزفها، بدأت أعزفها بقوة حيث كنت أشعر بالحماس. عزفت أيضًا معزوفات غامضة ليس لها علاقة بالسلَّم الموسيقى، ولا بالغناء، ولم يكن أفراد الطاقم فى حاجة إليَّ. لقد تم بالفعل ضبط الغناء والإيقاع والنغمة وغطوا بصوتهم على عزفى الذي لم يعد يُسمع تقريبًا وقد أسعدني هذا. وبقدر ما مسَّني ذلك شخصيًا، بقدر ما تحقق هدف مرمري بالكامل.

تسلَّلت أشعة شمس ما قبل الصباح إلى داخل حديد المدمرة المتشابك وجعلتنا ننهض. نحن على وشك الوصول إلى الميناء الرئيسي. كان الشعور العام جيدًا. وكانت سفينة سلاح البحرية "إيلات" على وشك أن تُربط لأول مرة في رصيف ميناء حيفا. وقفت على جانب منصة ناحية اليمين ممسكًا بالحبال وأنا أنظر إلى قمة جبل الكرمل، وهو شيء اعتدت فعله عند كل دخول للميناء. وانضم إلي فريشر مترددًا بعض الشيء:

سأل فى التو "كيف حالك؟" .

أجبته "يسعدني أننا عدنا".

قال "كانت أمسية ناجحة مع الجيتار"..

لم أشعر بالراحة تجاهه، أما هو فقد بدا وكأنه قرأ أفكاري:

"كيف تسير الأمور فى المنصب الجديد؟" غريب، لكن هذا السؤال الذي طرح علانية بحسن نية، خفَّف الكثير من مخاوفي من موقفه تجاهي.

"ليس هناك الكثير لتدبيره، فالرفاق يؤدون العمل".

"حقًا، ليس صعبًا".

"إذا كنت تتحدث عن ذلك،" أردت أن أعرف، "أخبرني بما حدث بالضبط مع صَبَان؟"

قام فريشر بحركة تدل على النفي.

"دعك من هذا! كل هذا هراء"، أدار رأسه إلى الأمام وإلى الخلف وكأنه يتأكد من أن صَبَان لا يقف خلفهما. "لقد كان يتدخل في شئوني، عندما رتبت

النوبات. منذ متى يتدخل في النوبات؟ لكن دعك من هذا! ولا يجب أن تشعر بعدم الارتياح. فأنت لم تأخذ طعامي ولا فراشي."

نظرت إليه و لم يسعني إلا الابتسام. لقد كان فتىً رائعًا. ثم أردفت قائلًا: "أشعر بتحسن الآن." ثم أنهى الكلام بكلمة "حسنًا".

سألت "هل ستخرج في إجازة الليلة؟".

فأجاب: "كلا، غدًا".

"أى لون أنت؟"

"أخضر[٢٤]"

وفي تلك اللحظة ينطلق صوت مكبر الصوت:

"مواقع الربط!".

انسحب فريشر من مكانه بالقرب من الحبل:

وقال "إلى اللقاء يا مسلاوي، أنا ذاهب إلى الموقع." صعد السلم بسرعة إلى يسارنا واختفى في مكان ما في اتجاه مقدمة السفينة.

أول خبر تلقيناه في الميناء كان عن موندي. فقد ألقت الشرطة العسكرية القبض عليه وأعادته إلى وحدته. وعلى الفور قدم رقيب السفينة الأول ضده شكوى، ووجهت إليه تهمة التغيب عن وحدته لمدة ثمانية عشر يومًا، وهي جريمة عقابها شديد. وهي ثاني شكوى ضده على نفس الجريمة. ترقبنا جميعًا في توتر تقديمه

---

[٢٤] للإجازات، والمهام، ومواقع الطاقم، تم تقسيم أطقم السفينة إلى ثلاثة ألوان: الأخضر والأبيض والأحمر. خلال الإجازات "أفتر" ، يوجد لون واحد فقط، أي ثلث طاقم العمل.

للمحاكمة. وحتى موعد المحاكمة التي تقرر عقدها بعد عودة السفينة من رحلة إبحار أخرى، كان موندي يعمل على متن السفينة مثل أى جندي آخر. وشاركنا في تلك الأثناء، في عمل شاق وهو تنظيف شامل لجميع أقسام السفينة وغرف المعيشة. لقد كنا على وشك أن نستضيف لعدة ساعات عائلة القائد العام للقيادة الشمالية اللواء دودو إليعازر يوم الجمعة القادم، قبل المغادرة لدورية أخرى، وكان على السفينة أن تتجمل قبيل هذه الزيارة المهمة.

مرت بسرعة كبيرة الأيام الخمسة التى قضيناها في ميناء حيفا، والتي سُجلت لاحقًا في صفحات التاريخ على أنها الأيام الأخيرة للمدمرة ولبعض ملاحيها. كانت تلك أيام تجمُّع الطاقم فى مقدمة السفينة وقت المساء ومشاهدة الأضواء المنعكسة من المدينة الجميلة والصيد الليلي فوق المراكب فى ساعات الهدوء.

حُفرت الأيام الأخيرة لسفينة سلاح البحرية "إيلات" في ميناء حيفا بعمق في ذاكرتنا لأنها من بين الذكريات الجميلة التي بقيت لنا منها. شيء واحد نعرفه: لقد راحت عن عالمنا نظيفة ونقية، ومصانة ومرتبة. لقد أحببناها وعملنا من أجلها وحافظنا عليها من أي مكروه وقبيل رحلتها الأخيرة ألبسناها ثياب الملكية، ولم نتخيل أنها ستصبح أكفانها. كما قرأنا أمامها كلمة نهاية المعركة كأننا طهرناها قبل موتها. كانت مثل الروح التي تصعد إلى السماء مع سبعة وأربعين من شبابها الذين ماتوا. وكانت هي الروح الثامنة والأربعين.

عندما نزل آخر الضيوف من على متن السفينة صعد باحترام عدد من البحارة الجدد على سلم السفينة. كان هؤلاء هم طلاب مدرسة "الاستكشاف والملاحة والاتصال" الذين سينضمون إلى رحلتنا ليتعلموا بشكل عملي الموضوعات ذات

الصلة بوظيفتهم. وصعد معهم قائدهم الرائد يهوشواع بارنياع وقسَّمهم إلى مجموعات مختلفة، نظرت إليهم، وحملقت فى إحداها. ودون أن أشعر وعن غير وعي خرجت من فمي صيحة دهشة. فعلى حد علمي، لا يُسمح لشقيقين بالخدمة في نفس الوحدة القتالية في نفس الوقت، بل من المفترض أن يستمر الأمر لفترة قصيرة تصل إلى أربعة أيام فقط. ارتديت قبعتي وركضت إلى غرفة اللاسلكي.

صحت مناديًا: "يعقوب!". لقد خدم يعقوب معى فى قاعدة الشاطئ في الكرمل وانتقل بعدي إلى المدمرة بعدة أسابيع. كانت تربطني به علاقة قوية. قلت له :"جاء أخوك أبراهام مع عدد من البحارة الآخرين. إنهم ينضمون إلى الرحلة." نظر يعقوب إليَّ في دهشة، فقد كانت مفاجأة بالنسبة له أيضًا. ثم هزَّ كتفيه في لامبالاة وواصل عمله.

قلت له: "ربما تذهب وترحِّب به!".

هزَّ يعقوب رأسه. فقد كان على خلاف كبير مع شقيقه، ولا يريد أن تربطه به أية صلة. نظرت للأسفل. ما شأني أنا بكل هذا السخط؟ فهل أنا بالذات الذي ينبغي أن يتدخل في شأنهما؟ فكرت بصوت عالٍ، "اعتقدت لأننا ذاهبون في رحلة بحرية لها علاقة بالعمليات، ربما ينبغي عليك أن تتحدث معه".

قال بوجه عبوس "دعك من هذا الهراء!"

غادرت غرفة اللاسلكى بإحساس غريب. فكرت: "هم الآن محبوسون في مكان واحد، ومع ذلك ... علمت أن ذلك ليس سببًا كافيًا لتغيير رأي أي منهما تجاه أخيه فاستسلمت. فسنوات طويلة من السخط لن تنتهي بزيارة عفوية من الأخ

الأكبر على المدمرة. استسلمت، لكني شعرت أن الجليد بينهما سيذوب في هذه الرحلة على الرغم من كل شيء، وسأحقق ذلك. كيف؟ لا أدري، لكنني كنت واثقًا أن هذه الرحلة ستنهي هذا الخلاف. كان لدي إحساس وأحاسيسي عادة ما تتحقق. بجانب المطبخ توقفت ونظرت إلى قمة جبل الكرمل الذى صار متقلصًا. كانت الصورة مألوفة، فقد تكرر هذا المشهد عدة مرات، وحتى الآن لم يكن يختلف عن سابقيه:

تودع سفينة سلاح البحرية "إيلات" مدينتها الأم، وهذه المرة – بدون عودة.

القسم الثانى

الغرق

اشتعال المدمرة

في حوالي الساعة ١٦:٠٠، عندما بدأت مناوبتي فى غرفة مركز معلومات القتال، التقطت شاشة الرادار ناقلة سوفيتية شقَّت طريقها غربًا، وحتى تلك الساعة كان ذلك هو الحدث الأكثر إثارة للاهتمام الذي وقع فى يوم السبت ...

وقفت خلف طاولة المعركة ورسمت مسار الناقلة بلا مبالاة.

أرسل لي جلاسبرج الذي كان في غرفة الرادار في الطابق السفلي البيانات الكاملة عنها، وفريشر - رقيب المناوبة — أشرف على عملنا ونقل فى وقت زمني سريع تقريرًا إلى قمرة القيادة:

"باستثناء الناقلة — كل شىء طبيعى".

وبعد الساعة ١٧:٠٠ بقليل ، أبلغت "فريشر":

"توقف مقياس العمق."

تذمر فريشر: "يا للجحيم! متى سيحضرون لنا مقياسًا جيدًا؟" اقترب من الجهاز بغضب وركله. كما هو متوقع، لم يظهر الجهاز أي علامة حياة.

نظر إلى آخر عمق مسجل:

تمتم "ثمانية عشر فادوم". "هذا هو المكان الذي نحتاج إليه بحق الجحيم ..."

قلت: "استدعِ جولدمان".

ألغى فريشر مقترحي بإشارة يد:

"دعك منه، فلن يتمكن جولدمان من تقديم المساعدة كثيرًا. هذا الجهاز معطل أساسًا."

حاول بنفسه إصلاحه لمدة ساعة أخرى، وعندما تعب، أخذ سماعة الانتركم بجانبه و أبلغ قمرة القيادة:

"مقياس العمق تعطل مرة أخرى. أود الاتصال بجولدمان."

وبعد ثوانٍ قليلة سمعنا على شبكة مكبرات الصوت بالسفينة:

"إنصات!، الرقيب جولدمان مطالب بالذهاب إلى مركز معلومات القتال. أكرر على الرقيب جولدمان الذهاب إلى مركز معلومات القتال! "

كان الرقيب أبراهام جولدمان هو فني السفينة، وعلى هذا النحو كان يُستدعى مرات كثيرة لإصلاح الأجهزة المختلفة التي تتعطل.

ربما يكون تعطل مقياس العمق هذه المرة قد أنقذ حياته. ومن ثم - عندما كان جولدمان المنضبط يشق طريقه إلينا - حدثت الأشياء بسرعة هائلة.

فجأة، رفع القائد، الذي كان فى قمرة القيادة في ذلك الوقت، صوته في جهاز الاتصال الداخلي بجملة قلبت عالمنا رأسًا على عقب. كانت دعوة ممزوجة بالدفء والرعب. حتى يومنا هذا، يتردد صدى صوت قائد السفينة المنفعل في أذني:

"أبلغ مركز معلومات القتال، ستيلا، أن صاروخًا أطلق علينا !!!" (ستيلا هو لقب قيادة سلاح البحرية فى الكرمل - ستيلا ماريس.)

في تلك الثانية، بدأت أجراس الإنذار على السفينة تدق رنين حالة الطوارىء وجندي الإشارة المناوب، في كل هذا الضجيج هو بولسكى.

"إنذار! إنذار! إنذار!" على عكس صيحات الطوارئ الأخرى، فمثلا فى "مواقع القتال"، كلمة الإنذار كانت تعنى أن "مواقع قتال" تتضمن بدء فورى فى إطلاق النار دون الحاجة إلى مزيد من التعليمات.

الآن حدثت عدة أشياء في وقت واحد: قام فريشر الذى وقف أمامي، بوضع أصابعه في أذنيه، وأنا من بعده، وبرقان الذي دخل في نفس الوقت إلى مركز معلومات القتال، انقض على جهاز الاتصال وهو يصرخ:

"ربما يوجد تل هنا، ربما، حوِّل!"

ثم اهتزت الغرفة وكأن السفينة اصطدمت بسد حديدي ثم ارتطمت بشدة. انهار جهاز الرادار وتصاعد من أسفله الدخان. الساعة، مقياس العمق، وماسورة الانتركوم تحركوا من مكانهم وسقطوا على الأرضية المعدنية فى فوضى كبيرة.

ثم ساد الصمت بعد ذلك. نهضت من تحت الأنقاض وأنا أفحص نفسي. اندهشت عندما اكتشفت أنني أصبحت عند الطرف الآخر من الغرفة. اختفى برقان وفريشر عن عيني. ملأ الدخان الأسود الغرفة وغطاني الزجاج المكسور. حملت جهاز الاتصال بين يدي فى محاولة أخرى للاتصال بالقيادة:

"ربما يوجد تل هنا، ربما، هنا تل، حوِّل!"

ظل الجهاز صامتًا ولم يُعط أي إشارة على الحياة (علمت لاحقًا أن الإرسال الذي قمت ببثه تم التقاطه بالفعل! اتضح أن العطل في الجهاز كان فقط في الاستقبال وليس في الإرسال. كان علي فقط إيصال الرسالة". كان عليَّ فقط نقل رسالة "أُطلق علينا صاروخ"، لربما اختلفت الأمور.)

ألقيت الميكروفون بغضب وخرجت. استلقى جولدمان وهو يترف بين أنقاض الأواني والأجهزة التي كانت ذات يوم نقطة إطفاء عند مدخل غرفة مركز معلومات القتال، كان فاقدًا للوعي، حملته من بين الأنقاض وسندته على الحائط.

صرخت في وجهه: "جولدمان! هل أنت بخير؟"

انحنى رأسه على صدره.

قمت بهز كتفيه بقوة "جولدمان!، "هل تسمعني يا جولدمان؟" فلم يجب. أمسكت قميصه بإحدى يدي ثم ثبته بإحكام على الحائط. وبيدي الأخرى صفعت وجهه. عندئذ فتح عينيه ببطء. فمسحت الدم الذى على وجهه.

سأل بصوت ضعيف: "ماذا حدث؟"

أجبته: "لا شيء معين، أطلقوا علينا صاروخًا!"

فتح عينيه لكنه لم يتحرك.

ناديته بصوت عال "تعال إلى المقدمة!"

في تلك اللحظة، مرَّ النقيب مَشِيَّاح بجانبى:

صرختُ: "مَشِيَّاح، تعال ساعدني!"

لفَّ النقيب مَشِيَّاح ذراعه حول جسد الفتي القوي المصاب. التفت لكى أمسك بالجانب الآخر لكني كنت سعيدًا برؤية جولدمان بدأ التعاون. قفزت فوق الأنقاض ودخلت مرة أخرى إلى غرفة مركز معلومات القتال، وجدت بداخلها سترة النجاة الخاصة بي. تملكتنى رهبة من فكرة أنني قد أحتاج إلى الاستعانة بها، سحبتها من تحت أنقاض طاولة الخرائط؛ فانخلع منها المصباح

الأوتوماتيكي وصافرة الفم فقمت بتثبيتهما بسرعة وتوجهت نحو مقدمة السفينة.

سادت من حولي في المكان ضجة كبيرة ممزوجة بالذعر. وقفت بجانب المدفع الرشاش ٠٥ الذي كان على متن الممر، وبينما كنت أمسك بحبل السور صرخت بقوة:

"لا داعي للذعر يا رفاق! لم يحدث شيء!"

من الطرف الآخر للمقدمة انضم إليَّ مَشِيَّاح الذي أجلس في تلك اللحظة جولدمان على سرير ونادى:

"لا داعي للذعر! لا داعي للذعر!"

وفى لحظة انتشر هذا النداء كالنار في الهشيم وسُمعت فجأة من أماكن مختلفة على متن السفينة نداءات مماثلة:

"لا داعي للذعر! لا داعي للذعر!"

وفقط عندما ساد الهدوء كان بإمكاني أن أنظر حولي. وكان أول ما لفت انتباهى ووقعت عيناي عليه هو المدخنة التي سقطت من أعلى بطول سطح السفينة فى المنتصف، وربما قتلت بعض البحارة الذين ركضوا إلى مواقعهم القتالية، وكانوا أثناء تلك اللحظة فى مسار سقوطها. ثم لاحظت أن الاتجاهات قد تغيرت فاندهشت. ففهمت على الفور كيف حدث ذلك. من قوة الضربة استدارت المدمرة ١٨٠ درجة حول محورها لتظهر للمصريين جانبها السليم الذى لم يُصب.

جزء من سطح السفينة "انفصل" لأعلى كاشِفًا عن فجوة كبيرة بين مقدمة السفينة ومؤخرتها، مما منع التواصل بين القسمين. كان موقع المدفع ٤٢ قد دُمِّر بالكامل، وأغلق حطام معدني السلالم المؤدية للغرف عبر ممر قمرة القيادة. وانقلب جزء من سطح السفينة، من قاعدة الصاري، خارج السفينة.

حتى في أسوأ أحلامي لم أرَ هذه المشاهد. لقد دُمِّر بيتي الثاني (السفينة) حرفيًا. فقد ترك الصاروخ آثارًا تدميرية هائلة وحطامًا في أماكن كثيرة، وكذلك نيرانًا بسيطة أطفأها البحارة. كان الصمت الغريب الذي ساد في المدمرة غير مفهوم. هناك شيء مفقود هنا. ياللجحيم!

اتضح لي بعدها أن الصاروخ سقط على الرادار وأصاب قسم الماكينة مباشرة وهو الجزء الأكثر سخونة في السفينة وبالتالي أيضًا موصل الرادار — كما أصاب محركاتها وعطلها عن العمل. من الآن فصاعدًا لا يمكننا التحرك! نحن تحت رحمة العدو.

وبينما كنت أنظر هنا وهناك في ارتباك حول من أساعده أولاً؟ ظهرت فجأة شعلة نار كبيرة تقترب بسرعة هائلة من مؤخرة السفينة. كان شيئًا سحريًا في هذا الجسد الناري الذي دوَّت حوله ألسنة نار حمراء من الفناء والدمار. استطعت رؤية نظرات كأنها نوِّمت مغناطيسيًا تنظر إليها عندما سمع دوي انفجار قوي حيث أصاب الصاروخ الجانب الآخر من المدمرة وحطم مؤخرتها. تطايرت القطع المعدنية والشظايا في كل اتجاه وانهار الناس من حولي تحتها بألم شديد. وتحطم تحته مدفع أربع بوصات ونصف في الموقع ٤١ والتفَّت ماسورته لأسفل في التواء غريب وهكذا ظل عالقًا أيضًا. وصلت إلى أنفي رائحة نفاذة

من الغبار والحريق والدخان. في العديد من الأماكن على متن السفينة، دمَّرت ألسنة النار أجزاءً كثيرة. تجاهلت قطرة من الدم سالت من ساقي اليمنى وبدأت، مثل الكثير من حولي فى إخماد ألسنة اللهب الخطيرة.

وبدأ الجميع في التجمع فى مقدمة السفينة وأخد العدد فى الازدياد. فقد كان الآن ذلك هو الجزء الأعلي من السفينة بسبب غرق المؤخرة وبسبب ميل السفينة على جانبها. كان المشهد العام وكأنه مأخوذ من كابوس. مصابون متأوهون. جثث ملقاة على السطح المشقوق والكل يركض بلا حول ولا قوة.

تركزت قيادة السفينة فى قمرة القيادة. وقف القائد ونائبه الرائد حسيدوف مع مكبرات صوت محمولة في أيديهم. طلبوا منا أن ننتظم حسب الفصائل.

نظرت حولي بلا حول ولا قوة. ومن بين الجنود في فصيلتي الذين انتظموا حتى الآن: يوسي جرشون، فينجولد، بولسكي، شالوم ليفي، جويخبرج، بجبوط وفريشر. كنت قلقًا على أريه. حاولت أن أتخيل وجهه في تلك اللحظة. بالتأكيد هو يبتسم. كنت أتمنى من كل قلبى أن يصل المزيد من الرجال.

فجأة سمعت صرخة حادة سمَّرت شعري، استدرت إلى يساري مستعدًا لأية كارثة. زخاريا، الطباخ، اقتيد إلى مقدمة السفينة مصابًا وهو ينزف. الدم الذى يقطر من رأسه على عينيه انتزع منه صرخات مرعبة.

صرخ بكل قوته "انا أموت!! أعلم أنى أموت!"

اشتدت صرخات زخاريا ومزقت القلب. كان من الواضح للجميع أنه يحتضر ولم يتبق سوى سويعات قليلة على حياته. إيتسيك بن عزرا، قائد فصيلة المستودعات، ذهب لتهدئته وطلب منه بصوت ودي لكن حازم "زخاريا! كن

هادئًا! أنت بهذا تضر بنفسك فقط" نظر إليه زخاريا بعينين لامعتين وظل يصرخ. أجلسه الدكتور زوسمان، الذي اقتيد إلى مقدمة السفينة، على نقالة وحقنه بالمورفين. عندئذ صمت زخاريا ببطء.

وصل النقيب مَشِيَّاح إلى مقدمة السفينة، متكئًا على ساقه المعاقة. نظر إلى أعلى حيث قمرة القيادة حيث كان يحاول القائد وضباطه معرفة تفاصيل عن الوضع في المؤخرة.

بفقدان الاتصال وبكون السفينة تحطمت ودمرت من المنتصف؛ لم تكن هناك وسيلة أخرى للاتصال بمن تواجدوا فى المؤخرة وقت سقوط الصاروخ. كانت المنطقة كلها حتى المدخنة معزولة تمامًا عن الجزء الآخر من السفينة ولا يمكن معرفة مدى الضرر هناك. علاوة على ذلك، فإن الظلام الذي بدأ يحل صعَّب أيضًا جهة الاتصال الوحيدة المتبقية — وهى التواصل البصري.

نظر مَشِيَّاح إلى القائد: "لم أتمكن من إجراء اتصال داخلي من نقطة إلى نقطة". اقترب القائد قليلاً وانحنى على الدرابزين. وبعد فترة تأمل قصيرة أمر:

"دع شخصًا ما يحاول من جميع الأماكن التي يوجد بها اتصال داخلي أن ينتقل بالجهاز من نقطة إلى نقطة. هذا مهم جدًا بالنسبة لي".

اقتربت من مَشِيَّاح وسألته "دعني أحاول!" نظر إليَّ مَشِيَّاح وأغلق عينيه. صعَّب عليه الظلام التعرف علي. وعندما تمكن من التعرف عليَّ، ابتسم وسلمني هاتفًا موصولًا مباشرة بنقاط الاتصال المختلفة التي تصل قنواتها إلى مؤخرة السفينة. أجهزة اتصال مباشر استخدمناها عادة للاتصال الداخلي بين مواقع

المدافع، على سبيل المثال. ويبقى هو الآن الوسيلة الوحيدة للتواصل بين مقدمة السفينة والمؤخرة.

طمأنتني ابتسامة مَشِيَّاح. أعتقد أن هذه هى المرة الأولى التي أراه يبتسم فيها. فقد كان شخصًا غامضًا طيلة خدمتي على المدمرة. وكان من الصعب علي تحديد طبيعته. لم يغضب أو يصرخ مطلقًا، لم يظهر فى أي موقف قسوة وصلابة. كان من الصعب عليَّ أن أفهم كيف يمكن للجندي أن يخدم على السفن القتالية وهو معاق. لم أكن أعرف ما الذي فعله لإقناع الطبيب العسكري الذي سمح له بالخدمة في المدمرة، و كان قائد السفينة الذي فضل أن يقبل مَشِيَّاح ضابطًا على السفينة على أي ضابط آخر قدر درس كل الاعتبارات عند اختياره. علمت بعد سنوات فقط أن مَشِيَّاح لم يقنع أحداً من قادة السفينة أو السلاح وكلما رفضوه — ازداد عناده للخدمة في المدمرة. في النهاية، استطاع الوصول إلى نائب رئيس الأركان الذى أصدر تعليماته لسلاح البحرية بقبوله للخدمة على متن المدمرة.

تذكَّر وقال لي "انتظر!"، وفجأة أخذ الجهاز من يدي، وذهب إلى نقطة إطفاء الحريق. كانت هناك نقطة محددة. وبيد ترتجف، قام بتوصيل الجهاز وبدأ يدير مقبضه بقوة. استغرق الأمر ما يقرب من دقيقة كاملة حتى صرخ مَشِيَّاح فجأة بسعادة:

"من هذا؟"

ساد صمت قصير وبعد ذلك تابع مَشِيَّاح:

"أنا مَشِيَّاح في مقدمة السفينة! ما هو وضعكم؟"

كانت مكالمة هاتفية غريبة جرت بالصراخ ولم تكن المسافة الفاصلة بين النقطة والنقطة أكثر من ١٠٠ متر.

"جيد. حاول أن تصمدوا. سنرسل لكم شخصًا عبر الماء بالدواء والتعليمات."

وفي نهاية المكالمة صاح مناديًا القائد:

"أيها القائد! هناك اتصال مع مؤخرة السفينة، ما زال لديهم بعض الحرائق لكنهم يتغلبون على الأمر. وعندهم مرمري المسعف. طلبوا ضمادات ومهدئات".

ظهر إيتسيك بن عزرا فجأة:

أيها القائد! اترك لى الأمر! سأعتني به!"

"من هذا، بن عزرا؟"

"نعم أيها القائد."

"حسنًا. إعتنِ بذلك وتأكد من وجود اتصال دائم حتى نغادر!"

"شيء آخر"

"نعم، نعم أيها القائد"

"أسقط المرساة حتى لا ننجرف في اتجاه غير مرغوب فيه."،

"حسنًا أيها القائد. لا تقلق!"

في غضون ذلك، وصل الكثير من الجنود إلى مقدمة السفينة. فظهر من بينهم معظم رجال فصيلتي؛ فقدَّموا معلومات عما كان يحدث في مختلف أجزاء السفينة.

قال تسفيكا: " دُمِّر كل شيء تقريبًا، بالكاد وصلنا إلى هنا".

سأله فريشر بهدوء: "هل لديك أي فكرة عن القتلى؟"

تردد تسفيكا وهمس بصوت مكسور:

"كل أفراد فصيلة الآلات الميكانيكية تقريبًا ..."

تجمدت فى مكاني. كان الصمت الذي ساد فجأة ثقيلًا وكئيبًا. كل أفراد فصيلة الآلات الميكانيكية تقريبًا. هذا يعني أن أكثر من عشرين شخصًا ماتوا داخل فصيلة الآلات الميكانيكية.

كأننا بإشارة متفق عليها اتجهنا نحو بورسعيد من حيث بدأ هذا الشر. السؤال الذي برز في أذهاننا في تلك الثواني كان محبطًا ويائس: كيف سينتهي كل هذا الكابوس؟

تجمعنا مثل الدجاج قبل ذبحه، رجال الفصيلة في ركن واحد، مزدحمين قدر الإمكان ونتحدث بهدوء شديد، وفي نفس الوقت توجَّه إلينا القائد:

"مساء الخير أيها الرفاق"، بدأ كما في الأيام الخوالي عندما سمع صوته فى مكبرات الصوت. بروية وهدوء. منحتني جملته هذه فجأة الثقة التى كنت أحتاج إليها. وتابع: "لقد تعرضنا لهجوم شديد، تستطيعون الشعور بنتيجته بأنفسكم، لا نعرف ..." حاول انتقاء الكلمات، وهي صفة لا تميزه، واستمر "لا نعرف ما إذا كان الهجوم علينا قد انتهى. ومنذ الصاروخ الثاني مر أكثر من أربعون دقيقة

وربما هذه علامة على أن كل شيء قد انتهى. نحن نحاول الاتصال بالقيادة وهناك فرصة جيدة أن ننجح. في غضون ذلك، أرى أن السفينة طفت جيدًا ولا أعتقد أننا سنضطر الى إخلائها".

توقف لحظة. كان الصمت عميقاً. كل كلمة له يتم استيعابها باهتمام كبير. حتى الجرحى فهموا الحاجة إلى الصمت وكتموا تأوههم وتحملوا آلامهم الشديدة دون أن ينطقوا بكلمة واحدة.

تابع القائد: "إذا اضطررنا إلى مغادرة السفينة، افعلوا ذلك حسب تعليمات صريحة مني. لن أتسامح مع أي مظاهر من عدم الانضباط. لن أتردد، حتى في هذه الساعة، في الرد بشدة على أي خرق للانضباط. لقد تمكنَّا من الاتصال بمؤخرة السفينة والوضع هناك ليس جيدًا. لدينا شباب محاصرون بين حطام السفينة ونحاول تحديد مكانهم وإنقاذهم. كما نجري إحصاء من أجل الحصول على صورة أوضح عن الرجال وموقعهم وحالتهم. أكرر: في هذه المرحلة لا يبدو لي أننا سنضطر للإخلاء، ولكن إذا اضطررنا إلى القيام بذلك، فسوف نفعل ذلك بهدوء وبدون ذعر.

القمر يضيء الليل بشكل كافٍ. انتبهوا لشعاع الضوء في الماء. سيكون هذا مكان لقاء الجميع في النور. سيُسهِّل ذلك علينا العثور على بعضنا البعض ويسهِّل اكتشافنا على من يقومون بالبحث عنا".

أنهى القائد كلامه. وشعرت فجأة بألم شديد في بطني. كان الضغط كبيرًا. كنت مضطرًا للتغوط بسرعة، ولكن أين؟ كانت السفينة مائلة بالفعل بزاوية مخيفة جدًا وحتى الوقوف على جوانب السطح دون التمسك بشيء ما صار

جهدًا. وتركز الرجال في أعلى مكان معتدل بمقدمة السفينة. ومن غير المعقول أن أفعل ذلك هناك وأنا على منحدر من على سطح السفينة، كان المنحدر خطيرًا جدًا. في هذه الأزمة، التفتُّ إلي يوسي جرشون، الذي كان يقف بجواري:

"يوسي! أنا مضطر أن أفعل شيئًا. لدي ضغط رهيب في بطني."

أجاب يوسي بخجل: "وأنا أيضًا، ماذا نفعل؟"

قمت وقلت: "تعال!".

"إلى أين؟"

"على متن الممر، فهناك الميل ليس حادًا جدًا. سنمسك بكابلات السطح الحديدية حتى لا نسقط، ونتغوط على ورق أو قطعة قماش ثم نلقيها في البحر".

بعد فترة وجيزة كنا نركع جنبًا إلى جنب. تتشابك يدان وتمسك الأخرى بكابلات سطح السفينة. كنَّا ننظر إلى الأفق المظلم ونستمع إلى صوت البحر الذي سنصبح بعد قليل تحت رحمته. كان ذلك المرحاض أغرب شيء حدث لي ...

عندما انتهيت، التفتُّ إليه:

"هل لديك أي ورق؟"

نزع يوسي يده بحذر من قبضتي:

تمتم وهو يفتش في جيب قميصه: "أنت محق". "نموت أو لا نموت، نغرق أو لا نغرق، ما زلنا بشرًا متحضرين". أخرج كتاب جيب صغير وقسم صفحاته بيننا ثم قال:

"يجب على يان فليمنج والدكتور نو أن يغفرا لنا." ابتسمت في الظلام بمرارة. أين جيمس بوند عندما كان يحتاجها ...

عاد إيتسيك بن عزرا إلى الظهور مجددًا. قد يظن المرء أنه هو وحده من يقوم بعمله على السفينة: "أنا أطلب متطوع!" صاح. استمر ترددى ثانية ثم أجبته: "ها أنا ذا لديك". اقترب مني:

"من أنت؟".

"موشيه ليفي، من فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال".

"آه ... نعم ... من الصعب معرفة ذلك، تعال ورائي!"

ثم توقف عند المرساة، "هيا نتزلها. نحن ننجرف نحو الساحل المصري، المرساة ستوقفنا، نأمل ذلك".

في غضون دقائق قليلة انتهينا من العمل.

أبلغ بن عزرا القائد "تم إنزال المرساة ".

"حسنًا"، بدا واضحاً في صوته أنه راضٍ عن عمل ضابطه الشاب النشيط.

سأل "ماذا عن قنابل العمق؟".

"تتبلل ببطء. نزعت السدادات."

كان إيتسيك بن عزرا رائعًا. وبدونه كان سيسود جو أكثر صعوبة فى مقدمة السفينة. كان حازمًا في موضع ورقيقًا في موضع آخر، نشيطًا وباردًا كالصلب عند الضرورة. في بعض الأحيان بدا أن الأمر لا يتعلق بالغرق، وبالقتلى، وبالجرحى وبسفينة محطمة ولكن بتمرين بحري للمدمرة "إيلات".

اقترب الرقيب مناحيم كوهين، من فصيلة "طوربيد الغواصات" من بن عزرا ثم قال في حماس: "تمكنت من اقتحام البوفيه"، مشيرًا إلى صندوق ممتلئ بزجاجات شراب، وعلب سجائر وشوكولاتة أحضرها معه.

ربت بن عزرا على كتفه:

"أحسنت! وزعها على الرجال."

اقتربت من مناحيم:

"أعطني الشوكولاتة والزجاجات. ووزع أنت السجائر".

"حسنا،"

وهكذا في وقت قصير، كان بحارة السفينة مشغولين بالتدخين والشرب ومضغ الشوكولاتة. حاول أحدهم تخفيف التوتر "كلوا ودخنوا ، قد يكون هذا آخر شيء تأكله معدتكم". مر علينا مَشِيَّاح: "أنا بحاجة إلى متطوع." قفزت من مكاني ورافقته. تطوعت فقط لأني كرهت اللحظات التي كنت فيها عاطلاً عن العمل، لأن عقلي حينها هدد بالانفجار من كمية الأفكار والمخاوف التي حشرتها داخله. أتاحت لي تلك المساعدات البسيطة التخلص من الأفكار صعبة. وأثناء العبور فوق الأنقاض، شرح لي مَشِيَّاح مهمتنا:

"حوصر ثلاثة رجال في غرفة التوجيه التلقائي علينا إنقاذهم". في الواقع، كان باب غرفة "التوجيه التلقائي" مائل بزاوية حالت دون فتحها بالطريقة المعتادة. انحنت إحدى مفصلاته نتيجة لضربة قوية عليه أو بسبب الحرارة. أخرج مَشِيَّاح حبلًا طويلًا من جيبه وربطه بإحدى زوايا الباب:

طلب بصوت رتيب: "سوف تسحب المقبض وأنا سأسحب الحبل". "فقط كن حذرًا من أن تسقط عند فتح الباب". استغرقت محاولة فتح الباب قرابة ربع ساعة، وفي النهاية وجدنا شبابًا شاحبًا في المقصورة الصغيرة (بغرفة التوجيه التلقائي"). كانوا هادئين و لم يتحركوا حتى عندما فُتح الباب. نادى عليهم مَشِيَّاح:

"انهضوا يا رفاق! اُخرجوا لا تضيعوا الوقت!".

نهض أحدهم بكسل وجذب صديقه. وانضم الثالث اليهم وكأنما استفاق من هذيان.

وفي الطريق إلى مقدمة السفينة علَّقت قائلا: "لقد كانوا مذهولين".

" لم يكونوا مذهولين"، قال. "بالقرب من المدخنة، أخرجت رجالًا كانوا في حالة صدمة حقيقية لأن أقرب أصدقائهم قُتلوا إلى جانبهم". تنهد.

"يا إلهي ، متى سنخرج من هنا ..."

"وماذا حدث؟"

ناديتهم: "يا رفاق!، هؤلاء ماتوا بالفعل، لا يوجد شيء نفعله. يجب أن نساعد الأحياء." عندها فقط استفاقوا وانضموا إلينا في مقدمة السفينة.

استفدت من التقارب غير المتوقع.

"ما رأيك في فرص نجاتنا؟"

"إذا لم يطلقوا علينا المزيد من الصواريخ، فليس لدينا سوى مصدر قلق واحد".

"وما هو؟"

"أن يرسل لنا المصريون سُفُنًا لتقودنا إلى الأسر. لهذا السبب أعطى القائد أمرًا بفك مدافع ٥٠ الرشاشة (الرشاشات ٥٠) وتحويلها إلى أداة أسلحة متحركة".

"ماذا سنفعل بها؟"

"سوف نقاوم بالقوة".

"أفضل العودة إلى الوطن عبر الماء".

ربَت مَشِيَّاح على كتفي.

قال"أنا أيضًا!" وسار إلى قمرة القيادة. "مرحبًا مناحم! أحضر المزيد من الزجاجات والشوكولاتة، سنأخذها جانبًا" لبَّى مناحيم الطلب. وفي لحظات عاد مع بقية الصندوق، وتم إفراغه في غمضة عين.

وفي عتمة الليل رأيت أناسًا يدسون في جيوب قمصانهم علب الشوكولاتة والسجائر. لقد استعدوا بكل جدية للرحلة الطويلة في الليل. ساد الظلام بالفعل كل شيء، كنَّا محظوظين وكان القمر في الربع الأول ويرسل الكثير من الضوء. طلب منَّا بن عزرا أن ننظر ناحية الشرق لمراقبة إذا أطلق صاروخ آخر تجاهنا. كان فى هذا الطلب قدر كبير من السذاجة أو اللعب، وماذا يمكننا أن نفعل عندما يأتي صاروخ آخر؟ من لحظة اطلاق الصاروخ وحتى وصوله إلينا، يحتاج الصاروخ إلى نصف دقيقة على الأقل. حتى لو كان لدينا الوقت الكافى لملاحظته ومحاولة اعتراضه لن ينقذنا هذا بسبب أن من مزايا الصاروخ أنه يستهدف هدفه باستخدام رادار مركَّب على رأسه. كان بن عزرا يقصد فقط رفع الروح المعنوية وليس "إطلاق النار عليه بالمدافع الرشاشة ٥٠"

الأمل الذي زرعه فينا في إسقاط صاروخ برصاص رشاش، منع الذعر. في الواقع، تم وضع شابين أحدهما بجوار جدار المدفع الرشاش ٠٥ والآخر بجانب مدفع ٢٠ مم وأمروا بـــ "الوقوف في حراسة". كنت أحدهما.

بيد بارعة سحبت حزام الطلقات من الصندوق وجهزت المدفع الرشاش للإطلاق. قمت بتثبيت حزام التثبيت ودست على الأسطوانة. كان العرض مثالي. الآن لينطلق الصاروخ من مكانه وأنا أنتظره بحماس ...

في الواقع، لم تكن الصواريخ الإضافية التي كنا نخاق منها والتى أزعجت فكري في تلك اللحظات. ولا مدى فرصة إصابتها بالرشاشين اللذين صوبناهما تجاهها. كانت أخطر مشكلة بالنسبة لي هي فقدان الاتصال بالساحل، مع "العالم الخارجي". ففي أول هجوم صاروخي تم تدمير الغرفة اللاسلكية بالكامل فعليًا. وتحطمت أجهزة الاتصال التي كانت فى قمرة القيادة وداخل غرفة مركز معلومات القتال إلى أجزاء. وكان جهاز الطوارئ اللاسلكي قد تعطل أيضًا، وفي الواقع، باستثناء جهاز إرسال واستقبال واحد مخصص للمسافات القصيرة، فلا يوجد على متن السفينة أي جهاز اتصال لاسلكي. تم أخذ جهاز الإرسال والاستقبال من سفينة المحرك وزادنا حزنًا حقيقة أن مداه الفعَّال قصير جدًا. فمن من قواتنا يمكن أن يكون في نطاق 10 كم منَّا، وقد سُجِّل آخر نطاق في غرفة مركز معلومات القتال من الشاطئ حوالي ٢٤ كلم. علمت أن ردار الصارى في المقر الرئيسي على الكرمل لن يشعر بغيابنا حتى لو لم يتم التواصل في غضون ثلاث إلى أربع ساعات. لم تكن تعليمات التواصل بين القيادة والسفن حازمة وواضحة وعادة ما تترك المبادرة للسفن، لأن الاحتمال هو أنها في حالة انقطاع

التواصل اللاسلكي أو عند تواجدها أمام منطقة معادية لا ترغب في أن تنكشف وكل هذا يوضع فى الحسبان. كنت أعرف هذا لأنني أتيت من هناك.

اقترب مني شخص بخطوات مترددة. استطعت على بعد نصف متر التعرف عليه. لقد كان بولسكي. سأل: "هل تنتظر الصواريخ؟".

"توقفت عن الانتظار منذ وقت طويل".

"لماذا؟"

"لأن هناك مشكلة أكثر خطورة مقلقة الآن."

"وما هى؟"

قلت بقلق "الاتصال بالشاطئ؛ فحتى الآن لم يخطرنا أحد من قمرة القيادة بأن الاتصال قائم".

صمت بولسكي لحظة ثم قال:

"أنت محق، لو أن الاتصال قائم لأبلغونا على الفور. الآن أتذكر أنه ليس لدينا أي أجهزة اتصال. لقد تعطل أحدهم على الفور من جراء الصاروخ الأول، وإذا نظرنا إلى غرفة اللاسلكي التي تم تدميرها بالكامل ومركز معلومات القتال الذي لم يبق منه شيء، لذا ..." أكملت الجملة "لذا يمكنك صنع سلاسل المفاتيح من أصابع يدى أيضًا ...". صمت بولسكي فجأة وأحنى رأسه. كان ارتباكه واضحًا. ولأنه شاب مرح فقد كان رد فعله مفاجأة تمامًا بالنسبة لي. "موشيه" كانت المرة الأولى التي ينطق فيها اسمي وليس كنيتي "مسلاوي". تحدث بهدوء شديد. "أنا آسف على هذه المزحة. أتمنى أن تخرج سالمًا من هذا الأمر اللعين". انكسر صوته فجأة وسكت. وضعت يدي على كتفه:

"بولسكي، توقف! بالطبع ضحكنا حينها! وأنا تقبَّلت هذا على سبيل المزاح أيضًا، ولأنها كانت مزحة طيبة أيضًا! أتمنى لك الخروج من هذا ليس فقط بسلام ولكن قويًا ومعافى الجسد." مددت يدي ولكنه لم يستجب. وبدلاً من ذلك، أشاح وجهه بعيداً عني وأحنى رأسه جانبًا. فهمت من اهتزازات كتفيه ورأسه الطفيفة، لماذا. لقد بكى بهدوء شديد وبطريقة غير محسوسة تقريبًا. لكن هذا كان كافيًا لأشعر بغصة في حلقي. أردت أيضًا أن أنفجر في البكاء. أردت أن أصرخ، وأصيح، وأنفعل، وأضرب القتلة الذين كانوا الآن ينعمون فى غرفة دافئة ومريحة على بعد مسافة منَّا ويخططون لمصيرنا. أردت أكثر من أي شيء أن أقول كلمات مطمئنة لبولسكي، لكنني لم أجد أي شيء أقوله.

تركت الموقع وعدت لأصدقائي في مقدمة السفينة. رأيت فقط الأشكال السوداء على خلفية ضوء القمر. جلسوا وأرجلهم متقاطعة ورؤوسهم محنية. كان كل في سباته وتأمله. كان تفكيري عندما نظرت نحوهم من الذي قضت عليه محكمة السماء بأن تنتهى حياته الآن؟ ومن سيحصل على الحياة مرة أخرى؟ لم أفكر في نفسي. لقد ألغيت أي محاولة من قبل عقلي الباطن للتفكير بشأن هذه المسألة. كادت موجات صغيرة غير محسوسة أن تصطدم بجدار المدمرة الحديدى صنعت صدى خافتًا وصل أيضًا إلى قاعها. ومضت النجوم بضوء خافت. هبَّ نسيمٌ لطيف وخفيف على السطح، والبحر الأسود العظيم الممتد أمامي وتموجات الأمواج الصغيرة كانوا تكملة لجو رومانسي وجميل لولا الظروف التي كنا فيها.

سمعت من قمرة القيادة أصوات القادة كأنها خلفية للحالة التى ظهرت. جثوت على ركبتي مثل الجميع على الأرضية الحديدية. كان بجانبي وحولي عشرات من

الجنود لكن صياح صمتهم أكثر من صياح فى ملعب كرة قدم ممتلئ بالمشجعين. وعلى بعد مسافة مني، قام شخص ما واقترب من صديقه. وضع يده على كتفه. أدار الرجل نظره، وقال بصوت متقطع: "يائير، أردت أن أخبرك أنني أنا من سرق فراشك قبل ثلاثة أشهر. سامحنى". ثم انفجر في البكاء.

وقف يائير ومد يده:

أجاب، وهو يربت على كتفه: "أسامح كما تقول، وأنا أيضًا فعلت نفس الشيء، ولكنى فقط لا أعرف مع من؟ أتمنى أن نعود إلى الحالة التى يمكننا فيها مواصلة السرقة ..."

"عاموس؟"

وجه أحد الجنود نظره تجاه ما يحدث. "أنا أيضا أطلب العفو. أنا من سرق منك حذاءك قبل ستة أشهر ..."

وربما يجب أن أعترف أيضًا؟ حاولت أن أتذكر شيئًا يستلزم الاعتراف وأطلب الصفح، لكني لم أتذكر. بقيت في مكاني مرتبكًا وخجلًا حيث نهض الرجال ببطء من جميع الجهات واعتذروا لبعضهم البعض. لحظات الحقيقة هذه قد أثَّرت في كثيرًا. تعلمت منهم كيف ستكون العلاقة عندما نضطر إلى النزول إلى الماء.

لقد كان الحزن حقيقيًا ومهدئًا. لن يبقى أي جندي في الماء بمشاعر الشعور بالذنب أو المرارة تجاه صديقه.

وصل الكثير من الجنود إلى مقدمة السفينة. لقد أنقذوا أنفسهم من تحت أنقاض السفينة في أماكن مختلفة وجاءوا إلى هنا بأنفسهم. في كثير من الحالات

كانت قصتهم متشابهة: سقطت عليهم قطع خشب وكادت أن تدفنهم، وحاصرهم باب حديدي لم يفتح، ومعدن مسحوق .

لفت انتباهي شخصان منذ اللحظة الأولى لوصولهم إلى مقدمة السفينة. سيرهم الهادىء والمعتدل وقربهم من بعضهم البعض جعلهم مختلفين عن البقية. كنت أتطلع إلى معرفة المزيد عن مظاهر هذه الصداقة العميقة والتواصل معهما.

وقف يعقوب كوهين وشقيقه على سطح السفينة ونظراتهما حائرة. كل ما حدث حولهما لا يشغلهما على الإطلاق. كان الحب الأخوي عميقًا هنا ولن تستطيع أى قوة في العالم الفصل بينهما. حتى في الظلام الحالك كان بإمكاني رؤية عيونهما المتلألأة من الدموع. كان واضحًا لي بما لا يدع مجالًا للشك أن العداء الذى كان قائمًا بينهما لسنوات عديدة قد تلاشى، وتبدلت العلاقة إلى حب عميق ..

تعرفت على يعقوب فى ستيلا، وعلمت بالخلاف الذي كان بينه وبين أخيه الأكبر. لم يعلم أى شخص سبب الخلاف لأن يعقوب لم يبح به لأحد، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لطبيعته فقد كان واضحًا جدًا بين الجنود. وكان معروفًا بأنه مرحٌ. وخلق حوله دائمًا جوًا من الضحك والابتسامات. لم تناسب الجدية والعينان اللامعتان الآن يعقوب كوهين الذي كنت أعرفه.

قمت بتحيتهما لكنهما لم يكلفا نفسيهما عناء الرد علي. وقفا هناك متكئين على إطار المدفع، أيديهما متشابكة، وعيونهما تخترق الظلام والماء وتوجهت نظراتهما نحو مدينة بورسعيد التي خرج منها البلاء، وهي شاردة بعيدًا وضائعة في الظلام.

عدت إلى مكان الاحتشاد حيث بدأ الجميع الاستعدادات الفعلية لمغادرة السفينة. ركزوا الأشياء العائمة فى الزاوية لإلقائها في البحر في اللحظة المناسبة.

صنع شخص ما حبلًا طويلًا يتدلى من أعلى مقدمة السفينة باتجاه الماء. استعد الجميع لمغادرة السفينة.

لفتت انتباهى بقعة بسيطة في الماء كما لفتت انتباه الرجال الذين احتشدوا في أعلى مكان بمقدمة السفينة. كان الاتجاه خطيرًا بالفعل تمامًا وكان الخوف من سقوط شخص ما في البحر حقيقيًا.

نظرنا متأهبين إلى الماء. تقدمت شخصية سوداء في حركات سباحة ثقيلة نحو الحبل. ذهب إيتسيك بن عزرا إلى طرف الحبل وفحص التوصيلات.

حاولت التعرف على تلك الشخصية ولكن دون جدوى. وجه الحبل إلى يدي السباح الغامض وبعد جهد بسيط ساعده، مع رجلين آخرين، ليصعد إلى مقدمة السفينة. الآن فقط استطعنا تحديد قارب الناجين الصغير الذى جذبه السباح وراءه. استغرق الأمر مني لحظات طويلة للتعرف عليه. اقتربت منه. وقف هناك كما لو خرج للتو من قبو مخيف، أسود، غامض. الماء يقطر منه وملابسه ملتصقة بجسده، وجعلته يبدو مخيفًا.

كان هذا أريه شفارتس.

حاول أن يهدأ، ويبطئ تنفسه المضطرب.

ثم قال لبن عزرا:

"أتيت لنقل الجرحى وأخذ الدواء إلى مؤخرة السفينة".

"ما الوضع هناك؟"

أجاب بصوت عاجز: "ليس مفرحًا". لقد كان أريه آخر، وليس هذا الذى عرفته. لقد كان رد فعل أريه متثاقلا، جادا ، واعيًا . ثم تابع لاهثًا "إنهم جرحى، وقتلى، ومعنويات منخفضة."

اقتربت منه:

"أريه..." فلم يجب. وبدلاً من ذلك شرح للرجال من حوله: "يا رفاق! هذا ليس صعبًا على الإطلاق، حاولوا أيضًا إذا لزم الأمر."

في تلك اللحظة، انقطع أحد أطواف النجاة التي كانت مقيدة بالحبل إلى أحد حبال الممر في مقدمة السفينة وبدأ فى الابتعاد عن السفينة. نداء القائد للإمساك به ضاع في ضجيج نزول جسد أريه في الماء عندما قفز وراء القارب المبتعد.

لقد سعى بجهد كبير وبسرعة. لكن قامت الرياح والأمواج بدورهما، ويبدو أن أريه لم ينجح مطلقًا فى تقليل المسافة بينه وبين طوافة النجاة. نظرنا إليه كأننا منومين. ربما خشينا على مصيره أكثر من مصير الجرحى الذين كانوا في ذلك الوقت على الطوافة تحت رحمة البحر.

مرت علينا أكثر من أربع دقائق فى خوف شديد وكأنها دقائق طويلة. ولكن نجحت مهمة أريه أخيرًا. أمسك الحبل الفضفاض بأسنانه وجر الطوافة بالجنود الجرحى وعاد بهم إلى المدمرة. كان طريق العودة مضاعف الصعوبة، وتطلب الأمر ما تبقى له من قوة كي يعود. لم أشك في قدرته البدنية الممتازة. كان سبَّاحًا ماهرًا وكان البحر ممزوجًا بدمه.

بعد بضع دقائق من الراحة على مقدمة السفينة، أخذ أريه صرة أحضرها أحدهم من العيادة المتنقلة. وضعها تحت إبطه وعاد إلى الحبل. بعد لحظات قليلة

عاد إلى الماء وبدأ جولة أخرى من إنشاء اتصال مباشر بين مؤخرة السفينة ومقدمتها.

نظرت إليه. شيء ما أقلقنى. أردت أن أراه مبتهجًا ومبتسمًا مرة أخرى. أصابتنى جديته الشديدة بالحزن. لم يناسبه هذا. كنت متخوفًا جدًا من أن تكون نظراتي تلك هى نظرة الفراق عنه.

دفعتني فكرة المحاولات الفاشلة للتواصل مع الشاطئ للتوجه إلى قمرة القيادة. لم يكن الطريق إلى هناك سهلا. وكان عبور الشخص للمقطع المنحدر خطيرًا. جعلت أرضية السطح المبتلة الأمر صعبًا للغاية. الممرات نفسها، الفتحات التى ربطت السطح بالسطح وكانت السلالم متحطمة وسدت الشظايا المعدنية الطريق إليهم، لكنني كنت مصممًا – أريد أن أعرف الحقيقة.

بعد جهد وصلت إلى هناك، وكانت قمرة القيادة مكتظة بالضجيج مثل خلية النحل، والتى كانت وستظل دائمًا المركز العصبي للمدمرة. وقف القائد ونائبه هناك ووزعا التعليمات. تلقوا تقارير من مؤخرة السفينة من المقدم مرمري الذي قاد ذلك الجزء من السفينة وأرسلوا إليه التعليمات التي تضمنت الآن أيضًا تعليمات بالمغادرة المنظمة. أقبل بحارة وذهبوا و لم يتوقف الميكروفون المحمول عن العمل لحظة واحدة.

ومن بين هؤلاء كنت مهتمًا فقط بمجموعة صغيرة من الأشخاص والذين يميلون على جهاز اتصال صغير. وكان قوام المجموعة أربعة أفراد: النقيب نسيم مَشِيَّاح – قائد فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال؛ والرقيب برقان؛ وفلومانيك وبروخوفسكي من فصيلتى. حاولوا الاتصال بمحطة على الشاطئ.

وسبقت ذلك محاولة فاشلة من قبل مَشِيَّاح لتشغيل جهاز اتصال للطوارئ من طراز s.s.b. من مؤخرة السفينة .وكان الجهاز ممتلئًا بالماء وإن كانت بطاريته ما زالت تعمل. لغز بالنسبة لي كيف نجح مَشِيَّاح، على الرغم من إعاقته، في تخطي كل الأنقاض على طول الطريق والوصول إلى المؤخرة ثم العودة مرة أخرى إلى مقدمة السفينة. الآن تم تنظيم العمل بشكل صحيح.

ضغط برقان بيديه على جهاز الاتصال لتثبيته على أرضية سطح السفينة، وقام مَشِيَّاح بمحاولات التحدث في داخل فوهة الجهاز الصامتة بينما يحرك بروخوبسكى فى فترات منتظمة ومعدل زمنى جدول المحطات.

كان الجهاز من طراز قديم ويتراوح نطاقه كيلومترات معدودة. وفي الأيام التى يكون فيها الطقس والاستقبال جيدين فهو يرسل ويستقبل على مسافة ٢٥ كيلومتر.

لم تكن هناك أى إشارة بسيطة على أنه كان من السهل على نفس الجهاز أن يتحول في اللحظات القريبة من مجرد قطعة معدنية رمادية وباردة إلى شيء حي يبعث الطمأنينة، وإلى جهاز اتصال مباشر يصدر بعض الأصوات، والتغريدات على معابر المحطات، والحديث وحتى الموسيقى من محطة إذاعية. لكنه كان هادئًا جدًا ...

لكن مَشِيَّاح استمر في النداء:

"هنا سفينة سلاح البحرية "إيلات". نحن نغرق. نطلب المساعدة الفورية!"

كان الصمت الكئيب المعتاد للجهاز هو الرد الوحيد على هذا النداء.

أدار مَشِيَّاح المقبض ببطء: "إلى كل وحدات الجيش الإسرائيلي، هنا سفينة سلاح البحرية إيلات! هل يسمعنا أحد ؟؟؟"

ظل الجهاز صامتًا. ترك مَشِيَّاح المقبض. نهض ببطء وذهب إلى مكان وقوف القائد. تابعت كل حركة من تحركاته. بدا فجأة وكأنه سيطرت عليه فكرة. أرسل يده إلى الزاوية تحت كرسي القائد وعاد إلينا على الفور. عندما انحنى على الجهاز فقط، لاحظت شيئًا أحضره معه. كان هذا جزء من جهاز اتصال آخر قد تعطل عندما أصيبت السفينة. فهمت نيَّة مَشِيَّاح. حاول أن يولِّف من جهازي اتصال معطلين جهازًا واحدًا يعمل. ولأكثر من خمس عشرة دقيقة قام بتوصيل الأسلاك ببعضها البعض.

نقل الأجزاء من جهاز إلى جهاز بمساعدة بلومنيك وبرقان وأدار بروخوفسكى المقبض ببطء باحثًا عن المحطات على أمل أن يسمع بعض الأصوات. وبعد محاولات كثيرة، أثمرت جهوده: صرخة حادة باللغة العربية قطعت الصمت فجأة. على الرغم من أنه كان أول صوت ينبعث من الجهاز منذ بداية محاولات إقامة اتصال، كانت الصرخة مهدئة ومثيرة للاشمئزاز، هناك شك إن كانت ساخرة أو قاسية على الناس في ورطتهم. لقد مزقت قلبي، لا يتوقع الشخص مثلها في المحنة.

ولم تنجح محاولة أخرى للاتصال بوحدة من جيش الدفاع الإسرائيلي في المنطقة وأعقبت ذلك محاولة أخرى وأخرى وأخرى ...

وهكذا، عندما بدأ اليأس يدب فى أوصالنا والأمل يكاد يتلاشى – بدأ يصدر من الجهاز فجأة صوت عميق يتحدث العبرية، صوت يصدر من جهاز

الاتصال، صوت جميل، أبوي ومطمئن. لن أنسى أبدًا هذا الصوت الرائع والذي يتناقض تمامًا مع الصرخة الشاردة والمحبطة التي سمعناها من قبل.

"لقد استقبلناكم" ها هي وحدة تابعة للجيش الإسرائيلي في سيناء .. حددوا الموقع بدقة!"

أمسك مَشِيَّاح بسماعة الأذن بيد مرتجفة وتكلم في داخل المكيروفون:

"هل مازلت تسمعني؟"

"إيجابي."

"نحن أمام بورسعيد. أكرر: أمام بورسعيد."

"استمر!"

"لدينا جرحى وقتلى أيضًا. لدينا مخاوف من أن نتعرض للأسر. هل ترغب في تقرير مفصل؟

"إيجابي. ابقني على اطلاع. لقد تم بالفعل إرسال التقارير المناسبة إلى جميع اجهات التي شرعت في العمل. المساعدة الطبية في الطريق. تماسكوا! حتى نرسل وحدات الإنقاذ لكم".

"روت. سأبقيك على علم بالأمور. شكرًا ."

تم على الفور إبلاغ جميع الأشخاص الموجودين على متن السفينة سواء فى مقدمة السفينة أم فى مؤخرتها بالاتصال مع الشاطيء. نقل القائد الخبر بنفسه عبر مكبر صوت بفرحة عظيمة.

"أيها السادة! أريد أن أبشِّركم بأننا نجحنا في الاتصال بالشاطيء. نحن على وشك الحصول على المساعدة في أقرب وقت!"

الملازم بن عزرا الذي لم يتغير مزاجه منذ البداية وبقي سلوكه منضبطًا – باردًا و مدروسًا، توجه إلى جميع الحاضرين:

"انتبهوا جميعًا! أريد أن أعطيكم تعليمات المغادرة."

كان القمر ظاهرًا بالفعل فوقنا وأبرز بأشعته البيضاء، زوايا ضيقة للماء ذات اللون الأسود الليلي. خلَّف ضوءه ظلالًا ثقيلة داخل انكسار الأمواج التى بدأت فجأة في الارتفاع، مما جعلها أكثر وضوحًا. كانت هذه في الغالب موجات عميقة، وارتفاعها جعلني أشعر بالخوف. بدأت أرى نفسي محمولًا على موجة، أصارعها من أجل ثباتي في الماء ومحاولًا بما تبقى من قوتي التقدم في السباحة نحو هدف غير معلوم .

وتابع بن عزرا الشرح: "أهم شيء هو محاولة إغلاق كل شيء، الفتحات الخارجية في الجسم. هذا سيمنع التمزق الداخلي لأعضاء الجسم فى حالة الانفجار في المياه".

كان من الممكن أن يكون صوته ونبرته الثابتة التي بدت بها الأشياء أكثر ملائمة لشرح آراء بيتهوفن في سمفونيته التاسعة:

"يجب نفخ سترة النجاة قليلاً قبل القفز وإكمالها في الماء أثناء السباحة. الشيء المهم جدًا الذي لا يجب نسيانه هو القيام بإحكام أربطة السترة جيدًا وضبطها وفقًا لقياسات الجسم، وإلا فسوف تضغط على الكتفين وإذا كانت الأربطة

فضفاضة فمن المحتمل أن تنزلق وتسقط من الجسد. لا تنسَ سد جميع الثقوب وخاصة فتحات الشرج والأذنين".

الآن يأتي دور الجرحى. سيكونون أول من ينزل إلى الماء.

أصيب العديد على متن السفينة ولا يتوفر لدينا سوى طَوْفَا نجاة عاديان، تحطمت القوارب البخارية والمجاديف مثل أطواف النجاة الإضافية إلى أجزاء في الإصابات الناجمة عن أول صاروخين. طُرح سؤال صعب للغاية حول أي من الجرحى ينزل فى القارب ومن سيضطر للاعتماد على سترته ومصيره الأعمى.

تشاور القائد مع نائبه الرائد حسيدوف وطبيب السفينة د. زوسمان. وقد مالت السفينة بالفعل بزاوية ١٦ درجة وكان لا بد من الإسراع. كان القاربان معًا يتسعان لعشرة جرحى. وللضرورة كان القائد ينوي حشر خمسة عشر جريحًا فيها ليواجه قرارًا مؤلمًا مَن مِن بين عشرات الجرحى سيصبح في قارب النجاة وأيهم سينزل إلى الماء. كانت الاعتبارات والتي بموجبها تم اتخاذ قرارات مروعة وتضمنت فرص بقاء المصاب على قيد الحياة، مقارنة بفرص أخرى، ومكان الإصابة في الجسم، ونوع الإصابة وخطورتها. تألم القائد كثيرًا عندما بدأ يقرر ذلك فقد كان يعلم أن بعض الجرحى، بأى حال من الأحوال، حتى الفاقدون للوعي، سيُجبرون على النزول في الماء بمساعدة زميل سليم.

تم اتخاذ القرار وسيق أول خمسة عشر فاقدًا للوعي ومضمدين في أجزاء مختلفة من أجسادهم إلى الطوافة. لاحقًا، بعد قليل اكتمل العمل وترك مظهرًا محبطًا. وضع الجرحى فاقدي الوعي مكدسين في كثافة رهيبة واحدًا بجانب الآخر أو

الواحد على نصف جسد الآخر داخل القاربين اللذين يُشك في مدى قدرهما على تحمل ضغط الأجسام ووزنها.

اقترب بن عزرا من القمرة. نظر إلى القائد لبضع ثوان ثم صرخ فينا:

"يا رفاق، الهدوء! القائد يريد أن يقول شيئا."

التفت القائد إلينا، وكان صوته مرهقًا يشهد على ما مر به حتى الآن. قال شيئًا واحدًا بدون استخدام مكبر الصوت المحمول أود أن أذكره، تركزوا داخل الضوء الذي يعكسه القمر في الماء. سيسهل علينا من الناحية المعنوية في أن نكون متماسكين، وسيساعد ذلك فريق الإنقاذ في تحديد مكاننا بسهولة. على الرغم من أنني كنت آمل ألا نضطر إلى مغادرة السفينة، فلا مفر من ذلك على ما يبدو ...

أريدكم أن تعلموا أن الجيش الإسرائيلي بأكمله متأهب، ولن يدخر أي جهد ليصل بنا جميعًا إلى شاطئ آمن. أستطيع أن أخاطر وأقول: الدولة كلها تتابع عمليات الإنقاذ منذ هذه اللحظة. أرجوكم ابقوا جنودًا طيبين كما أنتم ولا تُخجلوا مدمرتنا الحبيبة".

ثم أجرى مشاورات مقتضبة مع نوابه وتابع بنبرة أبوية:

"الآن سأطلب منكم إلقاء كل شيء يطفو في الماء. كل شيء يطفو!"

سمعت الضربة الأولى، عندما ألقى أحد الجنود على مضض واضح مقعدًا خشبيًا على الماء، كان مثل صفعة على وجه كل واحد منا.

بعد ذلك، كان الجميع مشغولين برمي الأشياء في البحر. حيث ألقيت أجزاء مقاعد تالفة، والمراتب المطاطية وأنابيب البوتجاز، وصفائح الماء المغلقة وحتى

الخشب المكسور بطول بضع عشرات من السنتيمترات ألقيت بفخر فى الماء. تم عمل إجراء شيء مماثل في المؤخرة وفقًا للتعليمات المناسبة التي تم تمريرها عبر الهاتف المرتجل ..

بعد فترة وجيزة، عندما تم الانتهاء من الأعمال والاستعدادات النهائية انتصب القائد في مكانه كما لو كان واقفًا انتباه وأصدر الأمر الأكثر ألما في حياته: "إلى جميع الأفراد. إني آمركم بالمغادرة. افعلوا هذا بهدوء وبنظام! وفقنا الله! وإلى اللقاء علي الشاطئ!"

واحدًا تلو الآخر، وقف البحارة ساكنين فى طرف مقدمة السفينة، بالقرب من المكان الذى تدلَّى منه حبل في الماء وشقوا طريقهم نحو المجهول. فضل البعض القفز مباشرة من مقدمة السفينة ولم ينتظر دوره حتى يتدلى على الحبل. أنا أيضًا قررت أن أفعل ذلك. ذهبت إلى أدنى مكان في مقدمة السفينة وألقيت نظرة قصيرة نحو الأسفل. كان الارتفاع مذهلًا وأوقفني لثوان. لم أكن لأجرؤ على تنفيذ قفزة كهذه في وضح النهار.

وعلى مسافة مني نزل مَشِيَّاح من قمرة القيادة وبيده جهاز اتصال وواصل التحدث فيه:

"تلقينا أمر المغادرة ونحن نغادر السفينة. هل تريد أن آخذ الجهاز معي حتى أتمكن من التحدث إليك في الماء أيضًا؟"

الضابط من الجانب الآخر لم يتباطأ:

"صديقي! إنقاذك أهم. لست بحاجة إلى مزيد من التفاصيل. انزل إلى الماء وحاول إنقاذ نفسك! وكان الله فى عونك وفى عون الفريق. اعلموا أن الدولة كلها الآن تترقب. ابذلوا كل الجهد ولا تيأسوا!"

أجاب مَشِيَّاح للمرة الأخيرة: "هنا سفينة سلاح البحرية إيلات، أشكرك عن كل شيء وآمل أن ألتقي بك دائما. سأترك الجهاز هنا. إلى اللقاء!"

قوية وشجاعة، كانت الكلمات الأخيرة التي قالها ضابط الاتصال إلى مَشِيَّاح قبل أن يضع الأخير جهاز الاتصال في إجلال في زاوية ما فى مقدمة السفينة وانتظر دوره حتى يترل إلى الماء. وقفت بجانب الحبل مستعدًا لإرسال ساق واحدة فى الفراغ. وانتظر يوسي جرشون دوره بجواري. حاول إقناع شخص ما أمامه بالترول إلى الماء دون خوف.

"لا أستطيع، لا أستطيع". تعرفت على الصوت المنكسر إنه صوت "بكر" اللطيف ذو الشعر الأحمر من فصيلتى. فكرت للحظة في الضرر الهائل الذي قد يجلبه خوف أحد البحارة من الترول في الماء وتأثيره على الآخرين. تركت مكانى واقتربت منه:

سألته في هدوء "لماذا لا تتقدم؟"

أجاب بكر وهو يتوسل تقريبا: "لا أعرف السباحة".

أجبته تلقائيا: "سأساعدك، لكن يجب أن تصل إلى الماء أولاً".

اعترض بكر بصوت محطَّم "لكن انظر يا له من ارتفاع".

انحنيت إليه وهمست بهدوء شديد في أذنه:

"إذا لم تترل على الفور، فسوف أطيح بك. هل تفضل أن تنكسر؟"

أثَّر كلامي فيه مباشرة، وفجأة تقدم بسرعة نحو الحبل، تدلى بسرعة ونزل في الماء بهمة كبيرة. تابعته لبضع ثوانٍ وشققت طريقي إليه فورًا عقب يوسي جرشون. تقدم يوسي نحو الحبل. وقال لى: "قبل أن تنزل الماء عليك ربط السترة بإحكام".

وبسبب ضغط الناس خلفي والخوف من صاروخ آخر اخترت النزول إلى الماء على الفور دون تنفيذ اقتراحه. وأسفت طوال الساعات التي كنت فيها في الماء بعد ذلك لأنني لم أعير اقتراحه أهمية كافية.

بدأت أتدلى إلى أسفل في الماء البارد.

من الجيد أنني لم أقفز، فكرت في تلك اللحظة في أن الارتفاع كان شاهقا جدًا. صدمني أول اتصال بالماء البارد. مرت موجات باردة عبر جسدي فارتجفت ساقاي اللتين كانتا أول ما لمس المياه. تذكرت تعليمات بن عزرا وأكملت عملية نفخ السترة. وكان أول شيء فعلته هو التخلص من الحذاء الذي أثقل حركتي كثيرًا. ولأن قميصي كان مغلقا بالأزرار حتى الرقبة، نشأ فيه فقد خلق فراغًا كان بمثابة نوع إضافي من سترة النجاة المنتفخة. أنستنى اللحظات الأولى التى حاولت فيها التعود على الوضع الجديد كل من حاييم بكر ويوسي جرشون.

ارتجفت مثل ورقة الشجر واصطكت أسناني بقوة لدرجة أنها بدت لي أنها على وشك التحطم بهذه الطريقة. بدأت رحلة نجاتى في الليل، نظرت إلى ساعتي كانت الساعة ١٠:١٩. انقلبت ببطء إلى سباحة الظهر؛ كنت أعرف أن هذا

سيقلل من خطر تمزق الأعضاء الداخلية في حالة حدوث انفجار تحت الماء وستكون تحركاتي أسهل.

شغلت بالى منذ تلك اللحظة فكرة واحدة: من هنا، من هذا المكان الغريب، لا بد أن أعود إلى المترل بأي ثمن. لا يهم بأي طريق ولا عدد المحطات، المهم العودة إلى المترل والتى ستبدأ هذه المرة بالماء. لقد تلاشت اللامبالاة بالموت وعدم الاهتمام، اللذين سيطرا عليَّ عندما كنت على متن السفينة، وبدلا منهما هاجمني شعور آخر ملأ كل كيانى وهو ضرورة أن يتم إنقاذى. إذا كنت أنا هنا، في الماء، فهذا يعني أن الأمر ممكن. حتى عندما كنت بالأعلى على مقدمة السفينة كنت أعرف أني إذا وصلت إلى الماء سأعود إلى المترل. فلم تكن السفينة مكانًا آمنًا.

اللحظات التالية كانت مخصصة لوداع بيتي الثاني - السفينة. نظرت إلى السفينة نظرة الوداع الأخيرة. رأيتها تغوص باللون الأسود علي خلفية الإضاءة الخافتة التى منحها القمر والنجوم. مازالت نبيلة. ما زالت أبية.

لقد خلَّفت وراءها تاريخًا ثريًا. لقبت باسم "زالوس" — وهو الاسم الإنجليزي الذى مُنحته قبل أن تنضم إلينا في عام ١٩٥٦، كانت جزءًا من قافلة أوليسيس التي كانت مهمتها في الحرب العالمية الثانية تقديم الإمدادات للروس المحاصرين في مورمانسك وأنقذهم من عار الجوع والموت والمرض. وبعد عدة سنوات أثار ذلك سؤال: إذا كان هؤلاء الذين أجهزوا عليها ووضعوا نهايتها أليسوا هم المستشارون السوفييت في مصر؟

كان آخر من هبط إلى الماء مرئي بوضوح على خلفية السماء المضيئة. كان القائد وضباطه لا يزالون واقفين فى قمرة القيادة ويصدرون التعليمات الأخيرة. شخص ما لم أتعرف عليه فك حبال طوافات الجرحى التي كانت مربوطة بمقدمة السفينة. وأجرى بن عزرا فحصًا نهائيًا لقنابل الأعماق. حتى في لحظاتها الأخيرة كانت السفينة تعج بالنشاط ووهج الحياة مثل خلية النحل.

نظرت بجانبي. لم يتَّبع البحارة تعليمات القائد وتفرقوا فى كل الاتجاهات. حاول الجميع الابتعاد قدر الإمكان عن السفينة التى قد تنفجر في أي لحظة. وقع نظري على طوافة الجرحى التى تتحرك ببطء بين البحارة الذين يسبحون بينما يتشبث بعضهم بالحبال الجانبية للطوافة طلبًا للنجاة.

بدأت أقارن بين حالة الجرحى وحالتي، فجأة انطلق صراخ حاد في الماء: "صاروخ!"

نظرت تلقائيا إلى الشاطئ وغطى العرق البارد جسدي. ظهر جسم نارى يتحرك سريعًا شقَّ طريقه إلينا. ركضت ألسنة النار إلى جانبه، وكان يزداد حجمه كلما اقترب منا. لم يكن هناك شيء يمكننا القيام به لكي ننجو من أنبوب النار، وموجات اللهب سوى الصلاة فقط. في الواقع في الثوان القليلة التي بقيت لنا كان كل ما فعلناه هو التمتمة بالصلاة. لا أعرف حتى يومنا هذا، من أين خطرت ببالي فجأة، فى تلك اللحظة، فقرات من سفر المزامير.

سقط الصاروخ بقوة هائلة في الماء على بعد أمتار قليلة مني داخل مركز الدائرة التي أنشأتها مجموعة من البحارة الذين يسبحون وانفجر محدثًا دوى مروع، كما خلَّف موجة مرتفعة من الماء الساخن. حاولت بكل جهدي

الهروب قدر المستطاع من هذا الجحيم لكن جسدي وكأنه سخر مني. بقيت جامدًا ورفضت عضلاتى التحرك. اخترقت صرخات صاخبة من الألم الهواء من جميع الجهات، وتطايرت أجزاء معدنية وجثث إلى الأعلى وإلى الجانب، تحملهم نفس موجة الماء ثم هبطت علينا. ومازلت حتى يومنا هذا أسمع دوي ارتطام الشظايا المعدنية عند ملامستها للماء.

وفجأة توقفت عن السمع وانتهت كل مشاعري إلى شعور غريب وممتع ارتفاع في الهواء على علو شاهق فوق الماء. شعرت وكأنني أبحر في مهب الريح مثل التحليق والنظر إلى ما يحدث بالأسفل، كما لو كان كل شيء بعيدًا عني. لا أستطيع أن أفهم هذا الشعور مطلقًا. فجأة كنت في مكان آخر وأحاط بي عالم من الهدوء والسكينة. عالم بلا صوت وبدون ضجة - مجرد مشهد رائع، الماء الهاديء وأناس غريبة موجودون على سطح الماء. كان بإمكاني فقط أن أرى وما رأته عيني جعلني أضحك. الشخصيات الموجودة أسفل مني والتي قامت بحركات حمقاء. لقد أضحكنى الناس الذين قفزوا واحداً تلو الآخر من فوق السطح المحترق إلى الماء. ضحكت أيضًا عندما رأيت الوضع الغريب لأشخاص لم يكن لديهم بالفعل سترة نجاة ...

وفجأة، عدت إلى وعيي.

أول شيء شعرت به هو الألم الحاد الذي اخترق بطنى وجعلنى أصرخ بشدة من الألم. فُتح باب ثقيل وغامض أمامي وسمح لي أن أسمع أنين وصيحات الألم من حولي. انزلقت سترة النجارة من على جسدي وعلقت في رقبتي تحت ضغط شديد ومهدد بالاختناق. لم أكن أعرف ماذا أفعل أولاً؟ هل يجب التمسك بقوة

بسترة النجاة التي كانت في الواقع ملاذى الأخير وفرصتي للبقاء على قيد الحياة؟ أم يجب التفكير، أولاً وقبل كل شيء، في سبب هذا الألم الشديد في بطني. لقد كدت أجن. وفي خضم كل ذلك، كان علي الاستمرار في السباحة. أسبح لابتلاع أقل قدر ممكن من مياه البحر المالحة والمثيرة للاشمئزاز. أسبح وحدي، لأبقي رأسي فوق الماء واستنشق الأكسجين. أسبح لأعيش.

وحتى بدون أن أتحسس السترة، أدركت أن أربطتها قد اقتلعت من الجزء العلوي جراء انفجار الصاروخ. أمسكت بيدي اليسرى نهاية الرباط المنفصل وسحبته بكل قوتى، وساعدني هذا، فصعدت فوق الماء عدة سنتيمترات سمحت لي باستنشاق الأكسجين النظيف. لكنه كان عملاً بالكاد أستطيع فعله طيلة سبع ساعات بقائي في الماء، ربطت هذه السترة في يدي التي تمسكت بها بقوة لتثبتها بإحكام على جسدي، يدي التى كنت في حاجة ماسة إليها لأعمال أخرى تتعلق بجهودي للبقاء على قيد الحياة في الماء وللسباحة.

تجاهلت الألم الرهيب في بطنى. والعمل المهم التالي الذي قمت به كان السباحة بأسرع ما يمكن بعيدًا عن السفينة التي بدأت بالغوص إلى أعماق البحر. وكل من يتواجد بالقرب منها عند غرقها قد يدخل في دوامة مائية عملاقة ستحدثها المدمرة وينجرف معها في هاوية البحر.

بقي عدد قليل من الناس على مقدمة السفينة. استطعت أن أرى بوضوح في صورة ظلية القائد ونائبه. سباحة الظهر الخلفية السريعة كانت هي الشيء الوحيد الصحيح الذى فعلته في تلك اللحظات؛ فقد أتاحت لي الحركة بيد

واحدة، ومنعت تمزق أعضائي الداخلية، كما أتاحت لي رؤية اللحظات الأكثر كآبة لما يشهده بيتي الثاني– السفينة.

بينما كنت أحدق في القائد وضباطه، سُمع فجأة انفجار هائل وتلته سلسلة انفجارات أخرى الواحد تلو الآخر. في تلك اللحظة ارتفعت السفينة بالفعل إلى ارتفاع كبير محاطة بألسنة من اللهب في صوت رعدي هائل.

رأيت من ألسنة اللهب رجالًا يقفزون في الماء أو يتطايرون بشدة. كان من بينهم القائد. الغريب أني لوهلة فكرت في جيتاري الذي تركته أسفل أرجوحتي ... تساقطت علينا أمطار من الشظايا؛ شظايا ساخنة ومشتعلة تنطفيء فور ملامستها الماء. بدأت أشعر أنني أنجرف بقوة هائلة إلى داخل الدوامة التي بدأت تتشكل مع غرق السفينة؛ لكن شخصًا ما سبح بجانبي سحبني بقوة من دائرة الأهوال هذه. لا أعرف حتى يومنا هذا من هو، لكني سأتذكر دائمًا وجهه النحيف المستدير الذي بذل جهدًا طيبًا واضحًا وبنشاط لإنقاذي. لقد أنقذ هذا الرجل حياتي.

وعندما خمدت النيران، كان بإمكاني رؤية طرف مقدمة السفينة منتصبا لأعلى مثل الأصبع. أصبع الاتهام. كان هو الجزء الوحيد المتبقي من السفينة بعد انفجارها ورافقنا لأكثر من ساعة بعد ذلك، ثم استسلم هو أيضًا وغاص إلى الهاوية في صوت رعدي عظيم.

كان هناك الآن صمت شبه تام، وسمع فقط صوت أنين الجرحى من جميع الجهات، فقد ملأ الفراغ وكسر الصمت. لم أستطع استيعاب الحادثة بعد إصابة

الصاروخ. ما زلت مذهولًا من كل الأحداث الأخيرة التي وقعت الواحد تلو الآخر: الصاروخ ، جرحى ، فقدان الوعي وانفجار السفينة.

لماذا فقدت سمعي؟ كيف استطعت رؤية الجرحى والسفينة من ارتفاع شاهق جدًا؟ هل أنا حي على الإطلاق؟ ربما أنا ميت؟ هل من الممكن أن أكون ميتًا؟ كيف لى أن أعرف أن الموتى لا يستطيعون أن يروا أو يسمعوا؟

تمكنت من الشعور بالألم الهائل الذي ملأ الفخذ والبطن بالكامل. كما صارت جهودي للحفاظ على سترتي عادة. أردت فقط أن أعرف شيئًا واحدًا: هل أنا حي أم ميت؟!

تدلّت يدي اليمنى، التي كانت منشغلة في تقدم أحمق في الماء بدون هدف ما، لأسفل إلى الجانب الأيسر من الصدر. فكرت، في رعب، فى وجود فجوة كبيرة مفتوحة بنفس المكان وتسببت في شلل كامل تقريبًا بكل أطرافي. لقد اتخذت قرارًا بأنه إذا عثرت على فجوة كبيرة هناك، فسأفهم على الفور أني لست من الأحياء، ولا جدوى من جهودي في إبقاء رأسي فوق سطح الماء ...

في لحظة وجيزة توصلت إلى استنتاج مفاده أنه لا يوجد حتى صدع هناك! الآن لم أشعر بساقي. مددت يدى ولمست شيئًا باردًا ومرهقًا. كانت أصابع قدمي. صعدت في بطء ثم صعدت بطول جسدي أتحقق من كل الأطراف في قلق شديد وأخشى من أن أجد شيئًا ما قد بُتِرَ في أي لحظة. ومن دواعي سروري أني اكتشفت أن أطرافي كانت في مكانها. كنت مكتملًا. أنا حي!

يمكنني الآن التركيز بشكل أفضل فيما يجري من حولي. الشيء الأول الذى انتبهت إليه هو صرخات الأصدقاء الذين كانوا يبحثون عن بعضهم البعض في

الماء. كانت السفينة بمثابة مترل لكل البحارة، وارتبط معظمنا بأواصر صداقة قوية ومودة، وفي وقت المحنة كان الجميع يبحثون عن أصدقائهم المقربين.

صيحة واحدة فقط أدهشتني. الرقيب برقان الذي اعتاد فى الماضى الاهتمام بقنطروفيتس وازعاجه، صرخ الآن مثل الأب الذي فقد ابنه:

قنطروفيتس! قنطروفيتس! أين أنت أيها الوغد؟ أجبني!"

لكن بقنطروفيتس لم يجبه.

وفي جو البحث عن المقربين الذي ساد، أردت أيضًا البحث. صحت مرة واحدة: "أريه شفارتس أين أنت؟" ثم سكتُ.

ساعدت صيحتى شخصًا آخر في تحديد موقعي وجاء إلي سابحًا بسرعة.

كان هذا يوسي جرشون. عندما لاحظته وتعرفت عليه كنت سعيدًا جدًا. كان من بلدتي وكان يذكرني إلى حد ما بالتزامي الأخلاقي للعمل بجد أكبر لأبقى على قيد الحياة، على الأقل من أجل عائلتي.

سأل "أنت هنا؟" وبالكاد استطاع إخفاء فرحه.

أجبت:"أجل، يا يوسي! وماذا عنك؟" وشعرت بالأمل مرة أخرى. على الأقل بقي صديق واحد جيد على قيد الحياة. أحتاج إلى العمل بجدية أكبر ...

"أنا على ما يرام. وأنت؟"

"بطنى تؤلمني كثيرًا. وغير ذلك، ليست لدي مشاكل أخرى."

غطتنا الأمواج من حين لآخر لذا كانت هذه المحادثة متقطعة:

"يوسي!"

"نعم."

"لدي طلب صغير."

"قل!"

ترددت للحظه. كنت أخشى أن أطرح مثل هذه الفكرة:

"إذا أصابني مكروه وبقيت أنت على قيد الحياة – لا تخبر والدي بأي شيء.

أخبره فقط أني وقعت فى الأسر". أثَّرت الفكرة في قلب يوسي كثيرًا لأنه استجاب بسرعة كبيرة، تقريبًا بشكل هستيري:

"أستحلفك أن تتصرف بطريقة مماثلة إذا حدث ذلك لي. ليس لديك فكرة ماذا سيحدث لوالديَّ لو عرفا قصتي" قال كلماته الأخيرة بصوت مختنق، ثم أضاف بصوت منكسر:

"أستحلفك!"

قلت "أقسم لك"

وفي تلك اللحظة شعرت بلمسة يده على جسدي من تحت الماء. بحث عن يدي، و لم أفهم معنى ذلك، لكنه سارع في التوضيح:

"أعطني يدك!"

مددت له يدي اليمنى من تحت الماء وضغط عليها بشدة. قال وهو ينظر إلي مباشرة بين الأمواج: "أنا أيضًا أقسم لك". لقد كان هذا العهد الأغرب الذى قطعته. ولقد أصبحنا منذ ذلك الحين، مقربين كثيرًا بقدر الإمكان.

تلاشت الصيحات حولنا ببطء. لا تزال تسمع صرخات غير مفهومة هنا وهناك من أناس في ضائقة. بعض الصرخات كانت موجهة إلى الله. وبسبب الظلام لا يمكنني معرفة من كان يصرخ. واحد منهم فقط تم التعرف عليه من خلال صوته. كان فريشر الذي خرج فجأة عن صمته وهدوءه وبدأ في الإدلاء باعتراف مرير نحو السماء:

"إلهي! إني أعرف. ذلك لأنني لم أصم فى يوم الغفران". ثم قال بعد صمت قصير، كأن لهذا الحوار التخيلي اتجاهان:

"لذا دعني أخرج من هنا. وأعدك بأنني سأبقى متدينًا طوال حياتي."

كما هو الحال في الهستيريا الجماعية، انجرف الجميع في الوعود، وسمع الجميع يناجي ربه. أنا أيضًا أجريت بنفسي حوارًا مع الخالق وعندما أنهيت حديثي بدأت أبحث بنشاط عن حل لوضعي. كان علي أن أجد سترة أفضل. لا أعرف كم من الوقت سأضطر إلى البقاء في الماء، وإلى أي مدى ستصمد قوتي وماذا ستكون نتيجة الألم في بطني؟ وبالتالي فإن الحصول على سترة كاملة وجيِّدة يُعد أمرًا ضروريًا لحياتي في هذا الوقت.

لم يمر وقت طويل على النتيجة الواضحة والفورية: قررت خلع سترة من شخص مات بالفعل. فقد طفى الكثير من القتلى حولي. وبحلول هذا الوقت، غاب القمر ونزل علينا ظلام شبه تام. ولتحديد ما كان يطفو بجوارى، كان لابد لي من الاقتراب. نظرت حولي جيدًا للحصول على سترة سليمة.

اقتربت من أول شخص يطفو بجواري. كان جسد رجل ثلاثيني، قوي البنيان وكبير الحجم. كانت السترة مربوطة بجسده فقط في رباط واحد لذلك تم فكها

بسرعة وبدون جهد كبير، وعلى الفور بعد فكها، أدركت حقيقة أن أحد أطرافها ممزق وتغلغل فيه الكثير من الماء.

زادت لدى الرغبة في معرفة من هذا الرجل؟ تغلّب فضولي على مخاوفي وعلى الضرورة الملحة للحفاظ على حياتي وقادني إلى قرار وهو أن أقلب الميت على ظهره. أول ما رأيته على ضوء النجوم الخافت هو تعبير الطمأنينة الذي كان على وجهه. في البداية واجهت صعوبة في التعرف عليه واعتقدت بالفعل أني لا أعرفه، لكني نظرة محدِّقة أخرى كانت كافية بالنسبة لي. عرفت فيما بعد ما صادمني بشدة وجعلني أتوقف عن البحث عن سترات الموتى؛ فقد تمكنت من التعرف عليه. لقد توفي الملازم أبراهام كوهين والطمأنينة في وجهه. أنا متأكد من ذلك. لا تستطيع أن تخطيء في تفسير هذا التعبير. الذى كان نتيجة روابط الحب المتجددة بين شقيقين؛ هى فقط التى تسبب هذه السعادة. هل هناك لحظات أكثر روعة من هذه تكون فيها الرغبة في الحياة أقوى؟ من ناحية أخرى، هل هناك وقت أفضل من هذا للموت، إذا كان قد فرض عليك بالفعل؟

ولكن ماذا عن أخيه يعقوب الذي بقي على قيد الحياة؟ هو فقط الذي سيعذب ويعذب، كنت أعرف هذا بوضوح! لكن ... هل هو على قيد الحياة؟ لقد حددت هدفًا في رأسي سيكون مهمتي الأولى ألا وهو تحديد مكان شقيقه يعقوب على الفور، والتأكد من أنه لا يعرف شيئًا عن وفاة أبراهام.

لذلك توقفت عن البحث عن سترة نجاة وبدلًا من هذا حاولت التكيف مع وضعى وأن أنظر إلى من حولي وإلى ما إذا كان يعقوب من بينهم؟

كان من المهم جدًا بالنسبة لي العثور على بعض الأشياء العائمة لاستخدامها. ولكن كل ما رأيته كان مجرد موتى من حولي. ربما كنت أعتقد أني الناجي الوحيد حولي. لقد تركني يوسي جرشون منذ بعض الوقت في محاولاته لتحديد موقع قارب النجاة. بدأت أشعر بالوحدة الرهيبة التي حلَّت بي فجأة. أين الجميع من حولي؟ لماذا لا توجد أصوات باستثناء أصوات فردية وبعيدة؟ هل انجرفتُ في اتجاه ما؟

كان هذا مروعا! وقفت الطبيعة وقوتها العظيمة ضد رغبتي القوية في البقاء على قيد الحياة وضد الجهود المشكوك فيها التى ساعدتني في هذا. فقد وقفت بالفعل الأمواج بكامل قوتها في مواجهة المساعدة الهزيلة التى لا تزال أطرافى تمنحها لى، وضد السترة التي كانت ستساعدني، وهددت بفنائي. كانت مواجهة غير عادلة! لكن شيئًا ما خرق المألوف. في البداية كان شخيرًا رقيقا تقريبًا غير مسموع. اعتقدت أنه كان أنينًا آخر أو تأوهًا لرجل جريح. لكن عندما تواصل هذا الشخير بعناد أدركت أن سببه مختلف. عندما انضمت إلينا أشخرة أخرى باستمرار وثبات، أصبحوا فجأة سلسلة كاملة منظمة انضموا إلى لحن أغنية! نعم بدأ شخص ما بالغناء. شخص مجنون بدأ يغني رغم البرد، رغم الأمواج، رغم الظلام!

بدأ هذا الرجل اللعين بالغناء كما لو كان يستفز الطبيعة. كما لو كان ليقول للبحر: "إني أستصغرك".

أول إحساس راودني كان الشعور بالغضب: كيف وجد ذلك الوقح القوة والرغبة في الغناء بينما حياتنا جميعًا وحياته كذلك مرهونة؟ هل يعتقد أننا في

نزهة الآن؟ كيف يمكن لهذا الغبي التجرؤ وأن يرفع صوته بأغنية بينما تهدد الأمواج بابتلاعنا فى كل لحظة؟ لكن لاحقًا، عندما انضم شخص آخر إلى غنائه، تركتُ شعور الغضب وتبدل برغبة قوية ومفاجئة في الانضمام للمغنيين. بينما أحاول أن أبرز فى ذاكرتى الكلمات، انضم شخص آخر إلى الغناء تبعه آخر ثم آخر. حسب الإشارات المتفق عليها، تعاظم الغناء من لحظة إلى أخرى ، حتى من ملأ البحر كله:

"شرم الشيخ،

عدنا إليك مرة أخرى

أنتِ في قلوبنا

فى قلبنا دائما".

جمعت الأغنية المزيد من المنضمين بسرعة متزايدة. وفي بضع لحظات، شارك فى الأغنية كل شخص حى حولنا. وعندما تنتهي أغنية تبدأ على الفور أغنية أخرى بعدها.

غمرتني موجة من الإثارة عندما فكرت في حالنا، أناس على وشك الموت وينطلق الغناء من حناجرهم اللاذعة. اعتقدت أن كل قوى الطبيعة لن تستطيع تحطيمنا. لم تنكسر روح الإنسان على الرغم من الأمواج القوية والظلمة الشديدة والبرد الذي اخترق العظام. وحملت الرياح أغنية البحر القوية فوق الأمواج بعيدًا وهزت البحر كله بعيدًا، وربما وصلت حتى إلى أولئك الذين مكثوا الآن في قاعه. بعد ساعة شعرت باختناق في الحلق نتيجة اتساع المساحة.

وبغض النظر عن المساهمة الضخمة التي قدمتها الأغنية في تخفيف حدة التوتر ورفع الروح المعنوية اكتشفت فيها فائدة إضافية؛ وهى أنها ساعدت في تحديد مكان الأشخاص الأحياء. وفجأة تلاشى شعورى بالوحدة. على الرغم من أنه لم يكن بالقرب مني أى ناجٍ، وكنت لا أزال أسبح وحدي، لأن هناك عناصر في هذه الأغنية منحتنى إحساسًا بالأمان، وأنني لا أقاتل من أجل حياتي وحدي.

رويدًا رويدًا خفَّت الأصوات وتلاشى الغناء. ثم صاح فجأة الشخص الذي بادر بالغناء أول مرة، في صلاة: "اسمع يا إسرائيل" وانضم الجميع إليه. وكذلك أنا لم أتباطأ. رفعت يدي المرهقة على وجهي، وغطيت عينيَّ بأصابعي وصحت في صوت مرتفع:

"اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا إله واحد!"

مغادرة السفينة

وصلت طائرات الاستطلاع بعد حوالي ساعة من الانفجار الكبير. وفي لحظات قليلة أحاطتنا من فوقنا مظلة كثيفة من الطائرات التي ألقت بكميات كبيرة من قذائف الإنارة الواحدة تلو الأخرى. أصبح الليل نهارًا. وأصبح يمكننا بالفعل التعرف على بعضنا البعض في الماء، لنرى من بقي منَّا على قيد الحياة ومن لا. سمعت صيحات التعرف المتبادل وفرحة اللقاء من جميع الجهات. إن محاولة إنقاذ حياتك في ظلام دامس شيء وأن يكون ذلك في ضوء كامل شيء آخر، وطائرات الاستطلاع تحلق فوقنا على ارتفاع متوسط.

منذ لحظة وصولها وهي تلقي بقذائق الإنارة طوال الليل دون توقف. وكل قذيفة تنطفيء تضاء واحدة أخرى مكانها. لم يكتف الطيارون بذلك فقط؛ فقد أُلقى من إحدى الطائرات فجأة شيء أسود كبير فى لحظة وصوله للمياة كبر فجأة وصار شيئًا كبيرًا. كان قارب نجاة صنع في الولايات المتحدة ينتفخ بمجرد لمسه مياه البحر. وبعد ساعات قليلة من وجودي في الماء، حددت مكانه وساعدني أنا وعشرين شخصًا آخر، حتى تم إنقاذنا. ثم ألقي زورقان آخران بأحدهما زجاجة خمر.

.بمجرد نزول القارب الماء، سبح العديد من الناجين نحوه، لكن هبَّت رياح لتحمله بعيدًا و لم يتمكن سوى أحد السابحين في الماء من تحديد مكانه بعد ذلك وإعادته إلى البحارة الذين يسبحون.

غير أن طائرات الاستطلاع لم تتمكن من فعل أي شيء لانتشالنا من البحر باستثناء مواد الإغاثة التى أمدتنا بها من قذائف إنارة وقوارب النجاة التي ألقتها.

كانت مهمة طائرات الاستطلاع فقط التجهيز لوصول المروحيات لاحقًا، حتى تتمكن من تحديد مكاننا بسهولة أكبر.

وكأنها تذكرنا أن الطريق لا يزال طويلًا أمامنا قبل إنقاذنا، وكانت موجة من الزيت الأسود قد غطتنا. "زيت الوقود"، الوقود الذي تدفق من السفينة عندما انفجرت، لم يأت إلينا فجأة. علمنا بقرب وصوله وحاولنا الابتعاد عنه قدر الإمكان، لكنه بدأ يرتفع بسرعة من أعماق البحر إلى سطح الماء وتدفق إلينا في طبقة سوداء كثيفة من الزيت والسولار غطتنا طوال ساعات وجودنا في الماء وحتى بعدها. ولقد باءت كل جهودنا للهروب منه بالفشل. فقد امتد إلينا وتوغل في الأذنين والأنف والفم وفي كل جزء من الجسم مما قلَّل من فرص الخروج من هذا الغرق على قيد الحياة.

وأول رد فعل لموجة النفط الأسود جاء من سترة النجاة الخاص بى؛ فقد انزلقت منى فجأة وتحررت من جسدي حتى قبل أن أدرك أنني كنت مغطى بالكامل بهذا السائل السميك. بقيت الآن بدون سترة، وبالتالي كانت فرصي في النجاة شبه معدومة. فحتى في الأمواج المرتفعة والعميقة، وفي الماء البارد لا يزال من الممكن البقاء على قيد الحياة أثناء السباحة المستمرة والمثابرة، ولكن محاولة السباحة في طبقة سميكة من الزيت، بدون سترة؛ فهذا غير ممكن ولو لفترة قصيرة.

بدأت السباحة كالمجنون نحو سترتي حتى بدأت الرياح تبعدها عنى وهلم جرا. كان تحركها في اللحظات الأولى أسرع من تحركى ما أصابني بذعر شديد. لكن هنا ساعدني الوقود الذى انسكب من السفينة. فكون الزيت كثيفًا وثقيلًا منع

السترة من الانجراف بسرعة شرقًا، وتمكنت بعد جهود كبيرة من إعادته إليَّ، وبصعوبة خارقة تقريبًا تمكنت من الاحتفاظ به على جسدي بعد ذلك.

وصلت آهات الجرحى والمحتضرين إليَّ الآن بشكل خافت. كنت لا أزال متأثرًا وأتنفس بصعوبة من هول الحدث. رأيت وشعرت فقط بمايحيط بى، ولم يكن ما يحيط بى سوى الماء الأسود. وعندما هدأت أدركت حقيقة وجودي وحدي مرة أخرى. وصلت أصوات الناس إليَّ كهمس بعيد بسبب انسداد أذني بالكامل تقريبًا. كما اختلت الرؤية لدي بسبب زيت وقود السفينة، وكل ما فعلته هو محاولة إمساك السترة بإحكام بيدٍ ومن حين لآخر تنظيف عيني من الزيت باليد الأخرى. كانت السباحة والتقدم مهمة صعبة للغاية.

وهكذا أصبحت أسير الأمواج التي زادت من معاناة وحدتي. شعرت بالكثير من التعب يسيطر علي ويهددني بالنعاس. لحسن الحظ، منعنى الماء البارد من الغفوة. كم من الزمن استمر ذلك؟ ساعة، ساعتين؟ وبدأت أبتلع الماء.

كان من الصعب عليّ أن أتنفس من خلال فتحات أنفي التى سدها الزيت واضطررت إلى فتح فمي لأدخل إلى رئتي الأكسجين الذي تحتاجه، ما أدى إلى تدفق زيت السفينة الممزوج بماء البحر إلى معدتى.

بدأت المياة الكثيرة التي ابتلعتها تثقل حركتي وتنفسي، حاولت القيء. أدخلت إصبعًا داخل فمي بعمق، لكنِّي لم أستطع حتى الشعور بالغثيان البسيط فقد حرمني الزيت الأسود من حاسة التذوق. والآن عاد ألم بطني ليضايقني مرة أخرى. بدأت أصرخ بكل ما أوتيت من قوة وأتلوى في الماء في تشنجات من الألم. كان من الواضح أن أحدًا لن يستمع إلى صرخاتي. فكل منهم كان

مشغولًا بمشاكله التي ربما كانت أكبر من مشاكلي. ضحكت من الفكرة لأنه في وقت سابق، وأنا جالس على مقدمة السفينة، قررت محاولة مساعدة أصدقائي في الماء قدر الإمكان. وهنا لا أستطيع حتى أن أساعد نفسي ... ولو أني امتلكت سترة سليمة، لاستطعت تحمل بقية الأمور.

ربما بسبب الألم، وربما بسبب البرد والتعب وربما بسبب كل ذلك بدأت في الهذيان. فرأيت الوقود يحترق بينما كنت أشوى ببطء على سيخ. أشعلت شرارة صغيرة خرجت من السفينة كل الماء. اشتعلت النيران في عشرات أميال مربعة من البحر وقضت على كل من في داخلها. وقد استمتعت بذلك، لقد احترقتُ واستمتعت، ربما كان هذا بسبب التفكير في الحرارة اللطيفة التي أحدثتها النار، ربما من الشوى ... أثناء ذلك تذكرت نكات الطفولة التي كنا نرددها في المدرسة: غرقت سفينة واحترقت. لقي جميع أفراد الطاقم حتفهم ولكن نجا الجميع، كيف يمكن هذا؟!! هنا نعم، الأمر ممكن. هل ستقولون عني مثل هذه النكتة بعد موتي؟

وبعد الحريق جاء الهذيان حول أسماك القرش. فجأة هاجمتني أسماك القرش الجائعة والمفترسة من جميع الجهات؛ فأسماك القرش تنجذب إلى رائحة الدم والدم كثير هنا لهذا جاءت. رأيت نفسي أقاتل بجنون لأخرج الأسنان الرهيبة لسمكة قرش عنيدة غُرست في خصيتي، وفي نفس الوقت أحاول الابتعاد عن النار التي كانت تجتاح الجزء العلوي من جسدي. هدَّأت آلامي قليلا، ولكن حلَّ محلها شعورٌ رهيبٌ بالجوع نتيجة ابتلاع الزيت وماء البحر بالتأكيد. فقد ابتلعت كميات كبيرة، وطعمها المالح جعلني أرغب بقوة في وضع طعام أو شراب في فمي لإبعاد هذا الطعم. تذكرت وجبتي الأخيرة. كان الغداء حوالى الساعة

١٢:٣٠ والساعة الآن ٢١:٠٠ على الأقل. فكرت في المزيد من الصواريخ. ماذا لو أرسل المصريون وابلًا آخر؟ هذه المرة يمكنهم الانحراف ميل كامل. فشرارة صاروخ صغيرة في الماء تكفى لقتل جميع الناجين الذين يسبحون فور انفجارها. لقتلهم؟ لشيِّهم، وهى الكلمة الأنسب! جميع الأفراد قد نجوا.

بدأت أفكر في الموت. لم أنسج قط كلمات الموت والخلاص معًا. لكن في تلك اللحظة كانت بالنسبة لى شيئًا واحدًا؛ فالموت سيكون خلاصي من كل هذه العذابات. فكرت في الموت، كنت أنتظره ليخرجني من هنا، سيلُفُّني جيدًا ويأخذني في هاوية البحر. سيكون هذا هو الخلاص فلن أتضور جوعًا ولن أتألم ولن أشعر بالبرد ولن تزعجني السترة بعد الآن، وأي شخص يمكنه استخدامها لينجو ... لكن عليك تحذيره مسبقًا بأن يستخدمها فقط كسترة إضافية. لو كان بإمكاني فقط لصق ملاحظة عليها بأحرف كبيرة "تحذير! متزلقة!"

تركني الهذيان وعاد إليَّ بشكل متقطع. الطائرات بالأعلى التي كانت حتى هذه اللحظة بعيدة عني مسافة كبيرة وكان ضجيجها غير مسموع تقريبًا — بدت لي فجأة كطائرات نفاثة وكان ضجيجها مروعًا. ما هي إلا طائرات "ميج" جاءت لمهاجمتنا. سوف تنقض علينا هذه المرة وتمطرنا بالرصاص الساخن الملتهب ما سيحل مشكلة البرد على الأقل.

يا له من شعور رائع! ترتجف في الماء مثل الورقة المتمايلة وتصطك أسنانك بعضها ببعض وأنت عاجز كلك، ثم فجأة تتساقط عليك شظايا صغيرة من السماء وحرارة المعدن ... نجا جميع أفراد الطاقم ...

الوحدة ساعدت التعب على تحطيمي تقريبًا. ولم أستطع الاحتفاظ بالسترة على جسدي أكثر من ذلك. هل يمكن تبديل الأيدي؟! في البداية كانت هذه طريقة جيدة: يدٌ واحدة تربط السترة بالجسم حتى لا يتزلق والأخرى تستقر على الوجه أو تمسحه، لكن حتى هذا له حدود. تأتي اللحظة وتشعر بأن اليد أيضًا لا يمكن أن تؤدي وظيفتها بشكل صحيح.

لقد وجدت طريقة أفضل من الطريقة السابقة: وضعت يدًا بين رقبتي وبين سترة النجاة. صعَّبت هذه الطريقة عليَّ التقاط أنفاسي، التي لم تعد منتظمة، ولكنها سهَّلت عليَّ حمل السترة على جسدي دون أي جهد تقريبًا. انقلبت للسباحة الخلفية. كان من الصعب أن أتنفس هكذا، لكن الوضع مع إمالة رقبتي إلى الأعلى، منح جسدي بعض التحرر.

سمحت للأمواج أن تهزني. كان إيقاعها رتيبًا. أبحرت أفكاري على بعد مئات الأميال من هنا. من يدري ماذا يحدث في المترل الآن؟ بالتأكيد لم تصلهم أخبارنا بعد. متى سيعلمون؟ وعندما سيتم إبلاغهم أين سأكون أنا؟ في الحقيقة، كنت غير مبالٍ تمامًا بوضعي. لم أهتم كيف سينتهي الأمر وفى النهاية سينتهى بالفعل.

نظرت إلى الأعلى، كانت السماء مثل السقف الضخم الأسود المغطى بقنابل الإضاءة. توهج الرماد الهامس من موقد منطفىء. برز بريقها الساطع مقارنة بسواد السماء. في العديد من الأماكن نثرت ثريات صغيرة وأرسل ضوء خافت من بطن طيور ضخمة. كل ثريا من هذا القبيل تتمايل في النسيم وتلاقى بعضها

البعض. ظهر لي فجأة وجه صديق لي من قرية الشباب الزراعية التي درست بها: تعجبت متسائلا: "ما الذي تفعله هنا؟"

"ما علاقة الزراعة بالبحر؟" سمعت سؤاله.

قلت: "إنهما يرتبطان ببعضهما البعض".

"كيف؟"

"ببساطة: البحر يخلق الغيوم التي تنزل المطر الذي يسقي الأرض."

هزَّ رأسه وأنا ضحكت:

"هل تفهم؟ لقد جئت إلى هنا لمراقبة هذه الأعمال حتى تتمكن أنت من زراعة أرضك".

اختفى وجه صديقي وضربت الماء بقوة:

صرخت: "لحظة! تعال إلى هنا، أيها الأحمق!. عليك أن تساعدني في إخراج هذا الزيت اللعين وإلا ستروي أرضك منه". لكنه اختفى وظل تعبير السخرية يتدفق على وجهه، و يتردد صدى سؤاله في الفضاء. لا أستطيع إبعاد النفط وحدي، فكرت، يا لها من كارثة! تخيل: تساقط قطرات زيت على رؤوس الناس في الشارع وعلى أغصان الأشجار وفي غابة أشجار الكافور. حتى الطيور تموت عندما تريد أن تروي عطشها. جاءت أمي وهي تتنقل بساقيها الثقيلتين، تحمل صرَّة كبيرة، وفتحتها. قالت وهي تعطيني بطانية صوفية: "خذ، الجو بارد هذا الموسم". أخذت البطانية. كيف عرفت أن تحضر لي أكثر شيء أحتاجه؟ ابتسمت لنفسي. هؤلاء الأمهات لديهن حواس لن نعرفها أبدًا. لكن البطانية

جعلت تنفسي أثقل و لم تساعد جسدي على الدفء. كانت العلامات واضحة: لقد أصبت بالملاريا.

وقف فوقي جندي مصري يحمل بندقية في يده، ملامحه قبيحة، وقدماه مفتوحتان وبندقيته مصوبة نحوي. صحت فيه: "مهلا! . ابتعد عن هنا! دعني أتحدث مع أمي في هدوء!" لكن أمى قد ذهبت. رأيت صورتها تبتعد. أمسكت بيدها اليمنى ورقة بنية سميكة وملفوفة كانت تلف بها بطانية الصوف مسبقًا.

ناديتها "جهزوا لى الحمام".

عندها فقط سمحت للجندي المصري أن يعترضنى بسكينه.

لا أعرف كم من الوقت بقيت على هذا النحو. بالتأكيد أكثر من ساعتين. أصبح بلع الزيت ووضعي الغريب في الماء أمرًا روتينيًا. امتلأت معدتي بالكامل و لم أعد أتحسس بطني كي ألاحظ الانتفاخ العظيم الذى وقع بها.

وبينما كان رأسي يتراجع إلى الوراء في محاولة لإدخال الهواء لفمى، اصطدمت يدي بجسم عائم. كان رد فعلي الأول هو ارتداد فوري. ثم جاء الفضول. أدركت فورًا حقيقة أن الجثة كانت في الواقع شخصًا حيًا! وجهت رأسي إليه، وجاء السؤال." هل أنت حى؟"

"نعم"

"من أنت؟"

"كيرزون سكرتير السفينة".

"أمازلت متماسكا؟"

"بالكاد. هذا الزيت يدفعني للجنون."

كانت المحادثة متقطعة. كل موجة حملتنا تسببت في توقفها. أيضا هو، بسبب وضعه المماثل لوضعى فكانت رأسه على سترة النجاة، لم ينظر إليّ لذلك دار حديثنا ونحن نشاهد النجوم المتلألئة في السماء.

"ماذا عنك؟ أنت لا تمسك السترة جيدًا."

"نعم، لقد اقتُلع الرباطان منها جراء صدمة الصاروخ، وينفلت مني طول الوقت."

"خذ سترة شخص ميت".

"حاولت."

"حسنا ..."

لم أنجح فى هذا. سترات الموتى مثقوبة.

تنهد "آه . السرير أفضل ..."

خفف لقائى بكيرزون بعض الشيء من ألمي وخلصنى من آلام الوحدة. لم أعد أشعر حتى بالبرد وكان الجوع بعيدًا عني. استطعت الآن النظر إلى النجوم المنتشرة فوقي مثل سجادة جميلة متلألأة. كان الليل فى الغالب منتشر بها مما أظهرها جيدًا حتى من خلال قذائف الإنارة. وكان القمر قد غاب منذ وقت.

استمرت قذائف الإنارة في السطوع فوقنا واحدة تلو الأخرى. لقد انتبهت بالفعل لاستمرار اشتعالها ما بين ست وثماني دقائق. أعتقد أن أحدها استمر عشر دقائق كاملة! النجوم التي كانت فوق الضوء، ذكرتني بـــ "ليالي الطبيعة" التى قضيتها مع صديقة قديمة، لقد تذكرت للتو أننا كنا نخرج ليلا متعانقين على مقعد منعزل أو فى غابة ما لمشاهدة النجوم. حاولت أن أتذكر في أى مكان

آخر قضيت معها الوقت... هل فقط في الغابات؟ هل في الليل فقط؟ تذكرت السباحة معًا لمسافات طويلة على شاطئ الكرمل، وعندما كنا نبتعد كثيرًا عن الشاطئ ويصيبنا التعب؛ نقوم بتشبيك أرجلنا الواحد تلو الآخر وهكذا نرتاح لبعض الوقت.

ناديته "كيرزون" وأنا أصرخ تقريبًا وجعلني حماسي أستدير جانبًا في الماء، مما عرّض سترتي الخاصة للخطر مرة أخرى.

قال: "أنا هنا. ما الأمر؟".

"هل تريد الصمود بشكل أفضل في الماء؟"

"بالتأكيد."

قلت "دعنا نشابك أرجلنا ، انظر ... سيكون أسهل ..."

بدأت أتحرك بيدي الحرة حتى أصبحت قدمي أمام قدمه، ثم مددت بحذر القدم إلى الأسفل حتى التصقت كفوفها بأردافه. لقد فهم على الفور الوضع وقلّده. ولأن أرجلنا أثقل من الجزء العلوي من الجسم يساهم الجمع بينهما في تحسين طفو صدرنا ورأسنا، وبسبب الزاوية التي تم إنشاؤها انحنى الجزء السفلي للأسفل بينما ارتفع الجزء العلوي قليلاً. لم يكن طفوًا حقيقيًا، لكنه ساعدنا الآن على رؤية بعضنا البعض بشكل أفضل بينما جهدنا للطفو فوق الماء كان أقل بكثير.

"كيف تشعر؟"

"رائع. هذا الوضع يساعد".

"حسنًا . هل أؤلمك؟"

"كلا ، هذا حسنٌ."

بقينا في هذا الوضع ما يقرب من ساعة. استطعنا التحدث دون انقطاع تقريبًا. الموجة التى حملتنا، حملتنا معًا. خلال كل هذا الوقت، أخبرني كيرزون عن نفسه. هو يعيش في حيفا، وله أخ وأخت، والده يعاني من مرض في القلب. كل ما كان يقلقه الآن هو والده المريض الذي قد تصيبه أزمة تتسبب في وفاته إذا اكتشف الأمر. حاولت تهدئته. نسيت آلامي ومعاناتى وحاولت أن تكون كل كلمة تخرج من فمي لتهدئته.

قلت له: "انظر! إذا كنا بالفعل في الماء ونسبح، فهذه علامة جيدة. كل ما علينا فعله هو الاستمرار في السباحة وانتظار المروحيات". أجاب بتمعن: "نعم، السؤال هو ماذا يحدث في إسرائيل الآن؟"

فكرت: ما الذي يحدث في إسرائيل الآن؟ وهل علم الجميع بالأمر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا تفعل عائلتي الآن؟ فإذا كان الأمر قد عُلم، فهم بالتأكيد يبكون ويتألمون، وسيطرحون سؤالا كبيرًا وخانقا: هل ابنهم البكر بين الناجين؟ وإذا كانوا لم يعلموا بالأمر بعد؛ فهم يشاهدون الآن فيلمًا جيدًا أو يغطُّون في نومهم.

قال كيرزون "تخيل، إنهم يشاهدون فيلم ليلة السبت الآن! أين هم وأين نحن ...؟"

"نحن نصنع الفيلم".

تنهد "نعم، لكن ألَّا يعرف والدي ... فقط ليس هذا."

شيئان أثارا في داخلي رغبة متجددة وقوية للبقاء على قيد الحياة والنجاة. أحدهما كان عائلتي إذا مت، فستكون هذه ضربة قوية لهم ولست متأكدًا أنها يمكنها التغلب عليها. يجب أن يتم إنقاذى على الأقل من أجلها.

والشيء الثاني كان شيئًا حقيقيًا، ليس شيئًا واحدًا بل العديد من الأشياء السوداء. ظهرت الوحوش لأول مرة كنقاط صغيرة في سماء الليل ثم نَمَت وسارت حتى اتخذت شكل مروحيات. جاءت بضوضاء كبيرة وبدأت مباشرة فى التمشيط والإنقاذ بنشاط. أدركت أنه حتى يصلوا إلي فإن الأمر مجرد مسألة وقت. أثار هذا في داخلي قوة متجددة ورغبة متزايدة في الخلاص. تركنى كيرزون وبدأ السباحة باتجاه وصول المروحيات.

لكنني كنت سعيدًا بمقدم المروحيات مبكرًا. لأننا صرنا سود بسبب الزيت الذي غطَّانا ولحقيقة أن كثيرين منَّا لم يكن لديهم مصدر إضاءة في سترات النجاة. ولقد واجه طيارو المروحيات صعوبة في تحديد موقعنا على خلفية سواد المياه. حتى الأضواء القوية المثبتة في مقدمة المروحية لم تساعد كثيرًا. علاوة على ذلك فقد كانوا في هذه المرحلة بعيدين عني مسافة كبيرة ينتشلون الناجين بعيدًا عن البحر.

كان علي إيجاد حلًا فوريًا للوضع الجديد؛ حيث تم رفع الناجين الأوائل بالفعل وأصبح الإنقاذ حقيقيًا، كل ما كان عليَّ فعله هو التماسك حتى تأتي المروحيات إليَّ. فقط التماسك! بدأت في الضرب على الماء بقوة. سوف تتسبب الضربات في رغوة على الماء لتظهرني لطيار المروحية لكنني أدركت على الفور عدم جدوى هذا الجهد البدني الزائد؛ فبسبب الزيت الوقود لم يصنع الماء رغوة.

لذلك واصلت السباحة. الهدف الدقيق لم يكن واضحًا – التقدم إلى هدف ما، لإحماء الجسم وربما لرؤية المزيد من الأشخاص ولأكون في صحبتهم. فلن يجد رجال الإنقاذ صعوبة في تمييز مجموعة من الناس ولكنهم سيجدون صعوبة في تحديد ناجٍ واحد يسبح بمفرده.

سبحت بيد واحدة وساقاي المتعبتان، سبحت ببطء. متر بعد متر، لم يسمح لي الزيت وجسدي المتعب بالتحرك بشكل أسرع. التقيت بعد عشر دقائق بمجموعة أولى. وهى مجموعة تتكون من حوالي خمسة عشر شخصًا تسبح معًا كل منهم يسبح بيد ويمسك بشيء عائم باليد الأخرى. اعتقدت أنه لن يكون من الصعب علي إيجاد مكان. سيكون ذلك راحة حقيقية، ستمسك يد واحدة بشيء عائم والأخرى ستمسك بسترة النجاة. ومع ذلك، عندما اقتربت، شعرت بخيبة أمل فلم يكن الشيء العائم سوى مرتبة رقيقة من المطاط كانت تستخدم في السابق كوسيلة لتنجيد أرجوحة نوم لشخص واحد. وتستخدم الآن بمثابة قارب نجاة مرتجل لخمسة عشر شخصًا! كانت الكثافة من حوله كبيرة ومريعة. في البداية رفضت أخذ قطعة أخرى من الإسفنج المغطى بالقماش، قد أكون آخر قشة تكسر ظهرها. لكن وجهني التعب الشديد بخلاف ذلك. اقتربت من أحد أركان المرتبة وأرسلت يد مترددة. أدركت على الفور حقيقة أنه لن يكون من السهل الوصول إليها؛ فعدد الأشخاص من حولها لا يسمح حتى بإدخال إصبع.

سبحت حولها مرة واحدة، ثم مرتين، لكن أن تجد مكانًا ليد واحدة عليها كان أمرًا عزيزًا للغاية وكل من يحتفظ بمكان يتمسك به جيدًا، لذلك لا يمكنني حتى المحاولة.

كان الناس من حولها هادئين بشكل رائع. أمسك كل شخص بركنه وانعزل في تأملاته وفي نفسه. فقط الأنين الخافت والصراخ الذي كان يسمع من وقت لآخر يدل على أن هذه المرتبة يسكنها أناس - يعيشون ويتنفسون!

بدأت اليأس يدب في. لا بد لي من الحصول على قسط من الراحة! فببساطة يجب أن أمنح عظامي بعض الراحة وليكن ما يكون. أرسلت يدى مرة أخرى ونجحت هذه المرة. أمسكت بكل القوة المتبقية في أصابعي بقطعة صغيرة جدًا من الفراش البائس وبدأ بعض "أصحاب السيطرة" في الاستياء.

لأقل من دقيقتين صمدت في هذه المجموعة. وبسبب الضغط الهائل على هذا الإسفنج الناعم بدأت بعض أركانها في التمزق، وهكذا وجدت نفسي أنا أيضًا مثل الأشخاص الآخرين، ممسكًا بيدي بشريط صغير من الإسفنج قد تمزق.

رميته بعيدًا في حالة من الغضب. لا يوجد شيء واحد هنا يمكن التشبث به لبضع دقائق ، تباً؟!

كانت عملية إنقاذ المروحيات فوقنا رائعة في كفاءتها ولكنها أيضا محبطة. مرت فوقى أكثر من مرة واحدة مبشرة بالخير، تهز الماء حولها وتصنع موجات عالية تحيط بنا. لكن، بسبب الظلام لم تكن قادرةً على رصدي فترتفع عائدة للبحث عن ناجين في مكان آخر. وبمرور الوقت، أصبح هذا الموقف محبطًا ومزعجًا. فى كل مرة تقترب مني فيها مروحية يملؤني الأمل بأنه حان وقت إنقاذي وستنتهي أخيرًا مصاعبي. لكن المروحية كانت تقترب حتى عدة أمتار فوقي، تبحث قليلاً حولي ثم ترتفع مرة أخرى لتتحول إلى مكان آخر. استمرت هذه اللعبة القاسية لساعات طويلة.

مرات كنت ألوح بيدي بقوة وأصرخ بكل قوتي. حتى أنني تمكنت ذات مرة من التصفير لكن لم يلحظني أي من ركاب المروحية. حزنت لأن الصفارات اقتلعت من سترة النجاة فى تلك الليلة الملعونة، اللعنة! كانت صفاراتي ضعيفة. استطاع الضجيج الكبير المصاحب لحركة المروحية إسكات صفارات مائة شخص معًا، رغم أن الصافرة المرفقة بكل سترة نجاة كانت ذات نغمات عالية للغاية.

وبعد عدة محاولات للصفير والتلويح باليد والصراخ تعبت. قررت أن كل ما علي فعله هو محاولة التماسك. اقترب مني شخص ما أثناء السباحة. لم أتعرف عليه. من الذي يمكن تحديده تلك الليلة اللعينة، تباً؟

"من أنت؟" سألني وبعد أن أجبت سألني: "بماذا تشعر؟"

قلت بمرارة "جيد .. لدرجة الاستمتاع".

"وماذا عن السترة؟"

"حسنًا. لقد اقتلعت أربطتها فقط"

شجّعني قائلًا: "تماسك!". ثم تحرك نحو مصاب آخر.

بعد أن تركني سألت نفسى من هذا الرجل الغريب الذي كان ينتقل من واحد إلى آخر ومهتم بمصيره. لم أعرفه حتى من صوته. علمت لاحقًا فقط أنه كان الملازم ناتان ماتوكى من فصيلة طوربيد الغواصات.

بخلاف هذا "اللقاء" لم أكن أعرفه من قبل، لم أسمع اسمه على الطوابق ولم أشعر بوجوده، لكن وجوده كان محسوسًا في الماء.

لم يبرز ماتوكى في العمل اليومي. لقد قام بعمله بهدوء وتواضع. عظمته كانت محسوسة في وقت الأزمات. ليس على مقدمة السفينة قبل الانفجار وليس أثناء المغادرة والإخلاء بل في الماء. انتقل بقوة وحيوية من ناج إلى آخر يزود أحدهم بسترة نجاة ويدعم كل واحد حتى يطمئن، ويشجع ويبث روح الحياة في البحارة المرهقين والمعذبين الذين حاولوا بما تبقى لديهم من قوة الاستمرار والتنفس وإعطاء الأمل لأي شخص يصادفه في طريقه. قام بعمله لوقت طويل دون سترة نجاة، لأنه أعطى سترته للآخرين. ابتكر "دائرة الناجين" وهذه فكرته الأصلية والرائعة: لقد ربط الناجين الذين لم يكن لديهم سترة نجاة بأولئك الذين امتلكوا سترات سليمة وبالتالي شكلوا دائرة مؤلفة من أحد الناجين بسترة وبجواره آخر بدون سترة، وهكذا نجد ناج بدون سترة بين اثنين بسترة وحياته آمنة.

وبعد أن انتهى من هذا العمل، بدأ فى عمل آخر لا يقل أهمية: لقد نظم "الغناء العام" وذلك لرفع الروح المعنوية. قام ماتوكى بعمل كل هذا رغم أنه مصاب فى ظهره وكانت ساقه تنزف نتيجة ضربة قوية تلقاها أثناء طيرانه من فوق سطح السفينة في الانفجار الكبير الذي حدث للسفينة عندما غادرناها.

تسبب الزيت الذي غطانا في كثير من الصعوبات أثناء مكوثنا في الماء. فقد حد من حركتنا وألحق الأذى بمعدتنا حيث ابتلعنا كميات كبيرة منه، ما سبب انزلاق أحزمة النجاة، والأسوأ من ذلك كله – أثقل أنفاسنا حيث أغلق فتحتي الأنف بشكل محكم، وأصبح التنفس عن طريق الفم ضرورة وهو الأمر الذى تسبب في زيادة تناول هذا السائل. لكن كان فيه ميزة واحدة على الأقل: أنه خلق طبقة رقيقة عازلة بين الجسم والماء، طبقة رقيقة ودافئة كانت عازلة من

البرد. على الرغم من أن هذا لا يمكن أن يكون بديلًا جيدًا للبطانية أو المدفئة المترلية، ثم في ظل الظروف الحالية، في الماء التي كانت درجة حرارتها منخفضة، كانت هذه الطبقة الواقية ذات فائدة كبيرة.

ومع ذلك، عندما يكون الشخص في مثل هذه الحرارة لعدة ساعات، ومع وجود هذه الطبقة أيضًا لا يصبح البرد مزعجًا ومتعبًا فحسب؛ بل يصبح كذلك مسألة حياة وموت. حيث تعمل الدورة الدموية بشكل أبطأ ولا تمد أجزاء الجسم المختلفة بالأكسجين اللازم، ويصبح النوم في الماء خطرًا حقيقيًا.

كان هذا ما شعرت به بعد حوالي أربع أو خمس ساعات من وجودي في الماء. وتوصلت إلى نتيجة قاطعة مفادها أن التبول فى الماء سيكون مضيعة مروعة في الوقت الذي يمكن أن يفيدني فيه هذا السائل الساخن.

سرعان ما وجدت نفسى أتبول على أجزاء مختلفة من جسدي. منذ ذلك الحين بدأت توجيه تدفق البول الذي دفعته جيدًا. وكلما شعرت بالحاجة إلى التبول كنت أتبول على يدي وجسدي ورجلي. كان الهدف عدم التجمد وكرست بالتأكيد الوسائل، وحبس السوائل باستمرار. كانت مثانتي تمتلئ بانتظام بما يكفي لجعلها تعمل بشكل شبه مستمر من التدفئة الذاتية.

مرة بعد مرة، كل ربع ساعة ولمدة ساعة، كنت أمد يدي إلى الجزء السفلى لجسدي لتدفأته. لا أعرف ماذا يقول عن ذلك علم الطب، لكن تجربتي تظهر أن متوسط درجة حرارة جسدي لم ينخفض بالسرعة التي كنت أعرفها قبل وصولي لهذا القرار.

استمرت المروحيات في إحباطي. وكان ما ساهم كثيرًا في رفع معنوياتي أنى كنت بالفعل داخل مركز مجموعة من البحارة الذين يسبحون، ولم ترفع معنوياتى الجهود الكثيرة التى بذلها الطيارون فوقنا في تحديد مكاننا. فقد كانوا بعيدين عني مسافة طويلة وانتشلوا الناجين في الطرف الآخر من المربع الحي الذى كوّناه في الماء.

الإنقاذ

ازداد الوضع سوءًا وأمضيت عدة ساعات في الماء ويبدو أن إنقاذي الآن بعيد المنال أكثر مما سبق. جاءت المروحيات وذهبت وفشلت في تحديد موقعي، استمرت آلام بطني وصرخت عظامي المتعبة من أجل الراحة. كانت أكبر أمنية لي بعد أن أمضيت ساعات طويلة في الماء هي أن أخطو على شيء صلب. لقد خُلِقَت القدمان لذلك لا كي تهتز في الفراغ. لم يتبق لدي من الإرادة لتثبيت سترة النجاة المتمردة. بالنسبة لكميات الزيت الزائدة التي ابتلعتها بالفعل لم يعد هناك متسع في معدتي التي امتلأت. كنت أبتلع ماءً أسودًا وعلى الفور ألفظ بعضه مرة أخرى في البحر في ردة فعل لاإرادية.

رويدًا رويدًا بدأ اليأس يتغلب على الأمل، وتركت الرغبة في العيش مكانها مرة أخرى لعدم المبالاة. فبدأت أشعر بعدم مبالاة حتى تجاه الموت. كنت أعرف أنه لكى "أنتهي" كان علي أن أقوم بعمل واحد فقط؛ وهو تحرير سترة النجاة والباقي سيفعله البحر. لكنني اعتقدت أن مثل هذا الفعل يشبه الانتحار و لم أكن من المتعاطفين كثيرًا مع المنتحرين. اعتقدت أني سأموت، ولكن ليس بمبادرة مني. ربما تترلني موجة كبيرة إلى الهاوية، وربما كمية إضافية من النفط تسد القصبة الهوائية وتخنقني ... وربما يكون مجرد موت بطيء ويمكنني أخيرًا أن أجد نهاية لعذابي وحرية لعظامي.

دفعتني رغبتي في الموت إلى التفكير مرة أخرى في عائلتي: ماذا سيحدث لهم؟

كيف سيتغلبون على مثل هذه الصدمة؟ كنت أعرف المكانة التي أشغلها في قلب الجميع: أمي وأبي وأخي ستكون الكارثة أصعب من أن تحتمل. أنا متأكد

من أثر الجرح الذى سأتركه خلفي، سيتألمون طيلة حياتهم. ستكون النتيجة واضحة: قد "أقتل" معى عائلة بأكملها معي. وبخت نفسي بصوت مرتفع. "من أجل راحتك الشخصية، أنت على استعداد للإضرار بخمسة أشخاص هم الأقرب" وبذلك توصلت فى هذه المرة إلى اتخاذ القرار الصارم ببذل مجهود أكبر.

فكرت، محظورٌ علي، محظورٌ علي أن أموت.

بعد بضع دقائق وجدت نفسي أتحرك بنشاط كبير. ومرة أخرى الوجهة غير معروفة، ما عليك سوى السباحة والسباحة بغض النظر عن المكان. حيث تساعد السباحة على إحماء الجسم البارد. ستدفعني نحو مكان يرونى فيه جيدًا.

محاولتي الأخرى للتقيؤ لم تثمر عن شيء. صرفت السباحة انتباهي عن آلام المعدة وألم بطنى. التقيت بمجموعة كبيرة جدًا ربما ثلاثين شخصًا سبحوا حول قارب نجاة ألقته إحدى الطائرات. حتى لو لم يكن لي مكان بجوار القارب، فإن تواجدى داخل مجموعة كبيرة سيسهل تحديد مكانى. والأهم من ذلك كله أن القائد أيضًا كان ضمن هذه المجموعة، وكان مصابًا ومتعبًا، تملكته فجأة مظاهر الشيخوخة، لكنه ممتلئ بدفء الأبوة. كلمات التشجيع التي كانت على لسانه لم تنته أبدًا. وعلى الرغم من إصابته الشديدة في ظهره، إلا أنه كرَّس الكثير من طاقته ونشاطه لمرؤوسيه. كان حبه لجنوده من الأمور المشهورة وظهر الآن في كامل قوته. لاحظ القائد اقترابي البطيء من القارب:

سألني قبل أن أتحدث معه "من أنت؟". أجبته: "موشيه ليفي من فصيلة الاستكشاف والملاحة والاتصال، ملأتني فرحة جديدة، في الواقع، فمجرد ذكر فصيلتى كان إحساسًا بالعودة إلى المدمرة، إلى الفريق .

"كيف حالك؟ هل أنت مصاب؟"

"كلا ، لدي آلام في البطن فقط."

"هل يمكنك تحمل الآلام ؟"

"أعتقد."

"حسنًا. ابق معنا. يجب أن ترصدنا طائرات الهليكوبتر قريبًا جدًا."

كان القارب متوسط الحجم ويمكن أن يحمل حوالي ستة جرحى داخله، ولكن يمكن مساعدة عدد كبير من الناجين من الخارج. الحبل الذى ربط حوله في شكل حلقات جمع حوله أكثر من خمسة عشر رجلا. كان من الصعب للغاية تحديد الأشخاص بعد أن تلطخت وجوههم بطبقة سوداء وسميكة من وقود السفينة. كان مظهر الجميع متشابه: شعر أسود كالفحم التصق بالجبهة والوجه.

كان أحد المقابض الموجودة على القارب خالية. سبحت تجاهه وأخيرًا وجدت فيه راحتي. وبسبب الإرهاق الشديد لم أتمكن أن أمسك به بكف يدي بالكامل، لذلك قررت ربط يدي اليمنى بالحبل. وهذا ما فعلته.

قمت بمد معصمي الأمامي بحركة دائرية حتى صار محشورًا وملاصقًا لجدار القارب. كل ما كان عليَّ فعله الآن هو الاستمرار في أن أضم بيدي اليسرى السترة المتمردة والانتظار.

تحسنت حالتي. كان لدي بعض الوقت للنظر حولي ومحاولة التعرف على الرجال من خلال أصواتهم. ومع ذلك، لم تُسمع أصوات كثيرة هناك. فكل شخص كان مشغولا في مصيبته ومحاولة الخروج من هذا الغرق على قيد الحياة. وباستثناء أنين وآهات المصابين بجروح خطيرة لم يسمع صوت آخر سوى

صوت القائد، الذى أمدنا بكلمات التشجيع. صوت واحد تغلب على أصوات الآخرين وكان من الصعب تجاهله.

"أنا أحتضر أ .. نا أحـــ...تضر!"

لا أعرف ماذا يستطيع القائد أن يفعل من أجله في تلك اللحظات وفي ذلك الوضع. فالإمكانية الوحيدة للصعود إلى قارب النجاة غير متاحة تلقائيًا بسبب الاكتظاظ الكبير والضغط الهائل عليه.

"أيها القائد ، أنا أحتضر، أيها القائد "

حاول القائد تهدئته. تحدث إليه بود ووجه كل انتباهه طوال الوقت للطائرات المروحية:

"انظر يا فينجولد كم هى قريبة. تماسك! بعد قليل سنخرج من هنا."

"أنت تقول لى هذا ... طوال الوقت ... حسنًا ... أيها القائد ليس لدي قوة أكثر."

صاح القائد: "انظروا إلى السماء! الجيش الإسرائيلي كله هنا معنا الآن! لم يدخر أي جهد. أى جهد!

لكن فينجولد لم يهدأ وأصبح صوته أعلى وأكثر حزمًا:

"أيها القائد أنا أموت! أيها القائد! أيها القائد! أنا أموت"

نظر إليه القائد بضجر:

"اهدأ يا فينجولد! اهدأ! أنت بخير، سوف تعيش."

"كلا ...أنا أحتـــ...ضر، أنا أحتـــ...ضر !"

"كن هادئًا يا فينجولد! أنت تؤذي نفسك بهذه الطريقة. كن هادئًا!"

قال القائد الكلمات الأخيرة بحزم شديد.

لكن فينجولد أصر:

أ...نا أمـــو..ت!

تركت مكاني للحظة واقتربت منه. لقد أحببته للغاية. كان شابًا رائعًا وطيب القلب ولا مثيل له. تذكرت طبيعته الهادئة وموافقته على أي عمل يسند إليه على متن السفينة. تذكرت أيضًا الحقيقة المخيفة أن فينجولد كان يمكن أن يتم تسريحه من الجيش الإسرائيلي قبل نحو شهر عندما انتهت خدمته، لكنه استجاب لطلب السلطات وتطوع لشهرين آخرين.

على الرغم من أن فينجولد قوي وضخم إلا أنه لم يستخدم قوته الجسدية الهائلة. المرة الوحيدة التي فعل فيها ذلك عندما عانقني بشدة لدرجة أن تألمت عظامي وذلك عندما حاول إقناعي بأن أشاركه شطيرة اشتراها من البوفية؛ فعندما حان دوري فى الشراء نفذت الشطائر من البوفية. نظرت إليه الآن وإلى عجزه وفكرت مرة أخرى في ضآلة الإنسان في مواجهة قوى الطبيعة الأعظم منه. كان وجهه معذبًا. كانت سترته مربوطة به بإحكام. بهذه الطريقة لن نحتاج إلى أي جهد للبقاء طافين فوق الماء. السترة مصنوعة بحيث إذا تم ربطها حسب التعليمات، فسينقذ المصاب الفاقد للوعي إذا ما كانت رأسه دائمًا فوق الماء.

كان رأس فينجولد مائلاً لأعلى. توجهت إليه برفق "فينجولد! حاول الصمود! انظر إلى أي مدى هم قريبون!"

تأوه فينجولد وأجاب: "كلا أيها القائد، إننا هالكون!"

في المقابل، واصلت المروحيات عملها دون توقف. كانوا ينتشلون ناجين من أماكن كثيرة. فرادى ومجموعات صغيرة. ومرت من فوقنا عدة مرات دون أن ترانا، الأمر الذي خيب أملنا مجددًا في كل مرة.

بدأت حبال القارب التي ربطت يديّ تقطع جسدي.

كل هزة موجة اخترقت يدي بألم حاد، وأحيانًا كنت أصرخ من الألم، لكنني كنت أعرف أن هذا هو الحل الوحيد لوضعي. بدأت أفكر في أصدقائي. أين أريه شفارتس ويوسي جرشون؟ كنت واثقًا أن أريه نجا من كل هذا الأمر. إنه ليس الشخص الذي يستسلم بسهولة. فحتى ملاك الموت لن يستطيع مقاومة ابتسامته. كنت سعيدًا لأنه لم يصب فى أول وابل من الصواريخ، وإذا سقط في الماء، فمن المؤكد أنه سيخرج منها فهو سباح ماهر.

كما أننى غير قلق بشأن يوسي جرشون. فإذا ما بقي على قيد الحياة بعد كل الهجمات؛ فستكون لديه فرصة جيدة. وربما يكون موجودًا فى هذه اللحظة على متن إحدى المروحيات؟

فكرت أيضًا في قنطروفيتس وبرقان، وفى فريشر وتسفيقا، وصَبَان، والرائد كسبى وحتى موندي. من على قيد الحياة فى هذه اللحظة؟ من سيعيش فيما بعد؟ ومن ستفيض روحه في تلك اللحظات؟

نظرت إلى السماء السوداء. ومن خلال قذائف الإنارة تمكنت من رؤية النجوم تتلألأ. تسببت هزات الأمواج فى الهذيان وكأن السماء تتحرك معنا.

واصلت المروحيات التحليق بإصرار ومثابرة غير متناهية. ظهرت صور وأجزاء، صور فجأة داخل الإطار الأسود الكبير الذي أغلق عليَّ من الأعلى.

اصطف الناس في طابور طويل ومعهم صينية في أيديهم للحصول على طعامهم. وفى مكان هبط نسر على فريسته.

ابتسمت لي جدتي. هي مبتسمة دائما. وأنا ابتسمت لها. نظرتى لم تحد عن وجهها النبيل. فجأة، وبدون سبب على الإطلاق، بدأ كلانا في الضحك، ضحك عميق وحقيقي. حاولنا القيام بذلك بهدوء حتى لا نوقظ والدي النائم بجوارنا. لقد عانى دائمًا من نوبات ضحكنا. نظرت إليها وكان وجهي جادًا. من هذه المرأة؟ ماذا تفعل هنا على أرض ملعب كرة السلة؟ سلمني أريه مدرب كتائب الشباب الكرة الكبيرة بتحذيره الروتينى من تعثر محتمل على الأرض الزلقة، فضحكت. يا له من مدرب غريب. شاربه بارز دائمًا. تركت الكرة التي بدأت تقفز من تلقاء نفسها وذهبت إلى ركن القاعة، أردت أن أشعل موقد الزيت، لكن شخصًا ما وبخنى. شعرت بالبرد ولم أستسلم حتى شعرت بيد "حنان" الصارمة. ذلك المتدرب المناوب الذي أبعدني من هناك. قربت فنجان الشاي من شفتي. ارتجفت يدي وانسكب الشراب على قميصي. شعرت بالدفء اللطيف الذي انتشر في جميع أنحاء جسدي. أردت كوبًا آخر من الشاي. أردت ذلك الدفء مرة أخرى.

بدأت الرؤية لدي تكون ضبابية، وصار سمعي الذى كان ثقيلا متعطلا مثل حاسة الشم. حتى أنني توقفت عن الشعور برائحة الوقود. كدت أغيب عن الوعي وأهوي فقاومت بشدة. زادت شدة البرودة من الرغبة في النوم. كنت في حالة حرب ضد النوم ما يقرب من ساعتين. كنت أنظر إلى مروحية بعيدة، وأصلّي لكى ترصدنى هذه المرة، وألعن وأغضب وهى تمر من فوقى. آخر شيء يتبادر إلى الذهن هو أن تنقذنى سفينة تابعة لسلاح البحرية ...

في الواقع ، هذا ما حدث.

بينما كنا نتأرجح بين الأمواج، نبتلع الزيت الأسود ونلفظه، سُمع فى السماء صوت ضجيج خافت لمحركات. كان القائد أول من بشرنا:

صرخ بصوت عال: "يا رفاق، وصلت البحرية!، أعتقد أن هذه هي سفن طوربيد تابعة لنا".

قال شخص ما متشائم "ربما تكون للمصريين؟".

وأصر القائد وتابع: "لا! غير ممكن! فطائراتنا في الأعلى"،

"استعدوا للصعود على متن السفن، أيها السادة! أنصت يا فينجولد! سيكونون هنا خلال دقائق!"

في الواقع، في غضون وقت قصير استطعنا أن نرى ظلالين أسودين يتحركان باتجاهنا. كان إبحارهما بطيئًا، لكن وجهتهما وهدفهما واضحين بالتأكيد، من مسافة يمكننا أن نرى بحارة يقفون على سطح السفينة ويلوحون لنا.

سمعت صيحات من جميع الجهات: "وصلت السفن! لقد وصلت السفن!". سلاح طيراننا شيء و"أفراد عائلتنا" بحارتنا شيء آخر تمامًا. كانت الفرحة العامة حول القارب كبيرة، وحتى الجرحى، باستثناء فينجولد، الذي نزلت به الطمأنينة واللامبالاة، شاركوا فى الفرحة.

وصلت السفن وعلى مسافة خمسين متر منا توقفت هناك.

لم أفهم معنى هذا الأمر. كنت متأكدًا أنهم سيقتربون ويرسلون سلالم وحبال وينتشلوننا. كنت على يقين من أن إنقاذى سيستغرق دقائق ولم يخطر ببالي

مطلقاً أن الأمر سيمتد إلى نصف ساعة وأكثر! نصف ساعة كانت أصعب من كل الساعات الطويلة التي سبقتها!

قامت السفن بالمناورة في مكانها و لم تقترب. بدأ العديد من الناجين السباحة إليها، لكنهم تلقوا تحذيرًا من المنقذين الذين كانوا على متن السفن: "لا تقتربوا!"

تملكني الغضب. لم تكن دوافع قباطنة السفن واضحة بالنسبة لي:

صرخت "ماذا يحدث بحق الجحيم؟".

أضاف شخص ما بجوارى. "الأوغاد!"

لكن السفن، كما لو كانت من منطلق الغضب، لم تقترب. ركض البحارة على الطوابق ذهابًا وإيابًا و لم يفعلوا شيئًا لإنقاذنا. حيَّرنا هذا الأمر. سألت نفسي. في ذلك الوقت لم نفهم أن تلك السفن تعمل بمحركات قوية ومراوحها قادرة على تمزيق أي شخص يقترب منها إلى أشلاء صغيرة.

كان تقدمها البطيء نحونا وتوقفها بعيد عنا لمسافة بسبب إجراءات احترازية صارمة للغاية. لا يمكن معرفة حجم دائرة الناجين السابحين، وفي مثل هذه الليلة ليس من السهل تحديد الناجين الذى تغطيهم طبقة سوداء من الوقود، وحتى أكثر الخطوات حذرًا يمكن أن تنتهي بكارثة كبيرة. لذلك فقد قام قباطنة السفينة بعمل أمر بسيط للغاية؛ لقد حاولوا الاقتراب إلينا قدر المستطاع بدون محرك حتى لا يؤذوننا.

انتهت محاولات مناورة السفينتين عندما أصبحتا على مسافة حوالي عشرين مترا منَّا. ثم توقفتا وبدأتا في تحميل الناجين. تم إنزال قاربين مطاطيين "زودياك" للمساعدة في مهمة الانتشال المكثف.

استقر نظري الآن على جانب السفن، حيث ظهرت النقوش بشكل بارز الكتابة: ط -٢٠٤ ط – ٢٠٦، أرقام سفن أسطولنا. وفجأة سُلِّط علينا ضوء ساطع. كانت تلك مروحية حددت موقعنا. نزلت ببطء، وشكلت شفراتها قوة كبيرة، مما جعلني أرتجف أكثر. كان علي أن أجمع ما تبقى لدي من قوة لاستمر في التشبث بحبال القارب. صنع الهواء الناتج عن شفرات المروحية فجوة كبيرة في الماء. تدلَّى سلم طويل من الحبال من تجويف الطائرة وتسلقه بعض الناجين لأعلى. وبعد انتشال حوالي ستة ملاحين بدأت الطائرة ترتفع مخلفةً ورائها بحرًا هائجًا وأمواجًا عاصفة.

نظرت إلى فينجولد مرة أخرى، لم يعد يصرخ، فقط تحركت شفتاه بضعف. تركت حبال قارب النجاة واقتربت منه.

ناديت بتردد "فينجولد".

لم يرد علي. لقد استلقى بهدوء على السترة وسمح للأمواج أن تهزه.

حاولت مرة أخرى فينجولد: "تعال!، سأساعدك في الوصول إلى السفن.

أ.. نا أحتـــ .. ضر أ..نا أمـــو...ت، كانت إجابته ضعيفة للغاية.

فجأة توقف بجانبنا زورق مطاطي. انحنى رجلان قويان نحونا ومدَّا أيديهما. تغير شيء ما بداخلي فجأة. قدر كبير من الغضب واشتدت المرارة وظهرت مهددة بالانفجار في صرخة عظيمة.

صرخت عليهم "خذوه، إنه يحتضر!".

"اصعد أنت أيضا!".

"سأصل إلى السفن بمفردي".

في هذه الأثناء، قاما بإصعاد فينجولد، الذي بدأ فجأة بالصراخ مرة أخرى:

"أنا أموت!"

ومدا لي أيديهما مرة أخرى: "اصعد أيها الشاب، سنأخذك إلى هناك!"

نظرت إلى فينجولد بنظرة وداع أخيرة. أيقنت أنه لن يبقى على قيد الحياة أكثر من ساعة واحدة. كانت حالته خطيرة للغاية.

فجأة، دون أن أفهم السبب، بدأت في الابتعاد عن القارب والسباحة فى البحر الأسود وأنا أصرخ بكل قوتي. وفي الوقت نفسه، ودون أن أفهم لماذا غيرت الاتجاه فجأة، عدت مرة أخرى إلى القارب المطاطي. حاول الرجال مساعدتي في الصعود وفشوا عدة مرات ربما بسبب الزيت الذي كان يغطيني. تخلصت من سترة النجاة وبدأت في التجديف نحو زورق الطوربيد بينما تركت ورائي رجلين مذهولين على القارب المطاطي.

وصلت إلى طـــ ٢٠٤، شاركت هذه السفينة معنا في معركة الطوربيدات الأخيرة وظهرت العلامات الخارجية لإصابة الشظايا واضحة. بدت تلك المعركة فجأة وكأنها بعيدة جدًا. غير واقعية نهائيًا.

وفى الأسفل، بجانب سلم الحبل المتدلي من الجانب الأيمن لسفينة الطوربيد تجمع آخر الناجين. انتظرت بصبر. وبعد بضع دقائق وصلت إلى درجة السلم الأولى. تملكنى الحزن والاكتئاب مرة واحدة. كما تملكتنى قوة غير واضحة في

تلك اللحظة. أمسكت درجة السلم لكن جسدي رفض الصعود. حاول أحدهم مساعدتي من الخلف لكنني دفعته بشدة. وإلى اليوم لا أفهم تصرفى هذا. فجأة لم أرد أن يتم إنقاذى. كانت لدي رغبة غريبة في البكاء والعودة إلى البحر ومواصلة السباحة. ضغط شيء ثقيل على حلقي مهددًا بخنقني. كل ما أردته هو الصراخ بصوت عالٍ وأتعذب أكثر وأكثر في الأمواج والبرد. أردت أن أصرخ، أن أضرب شخص ما بقوة. مرة أخرى أردت الموت.

ربت أحدهم على ظهري. فوجهت رأسي نحوه:

"ماذا عن فينجولد؟"

"إنه فوق بالفعل. لقد صعد!"

رداً على ذلك، تركت الحبل وعدت إلى الماء.

صرخت : "فينجولد!، فينجولد! ..."

أمسَكَت يد قوية بكتفي، قادتني إلى السلم مرة أخرى. سمعت أحدهم يقول لي :"فينجولد على السفينة الثانية!".

بدأت أتسلق. مد لى شخص ما على سفينة الطوربيد يده وساعدنى للصعود على سطح السفينة. كان وسيمًا وظهر عليه القلق والتوتر. وجهنى إلى بطن السفينة وعاد لمساعدة المزيد من الناجين. لم أتقدم. بقيت على سطح السفينة. استلقت بجوار قدمى اليسرى جثة عارية، لم تكن هناك إمكانية للتعرف عليها. لكن لم يكن هناك أيضا ضرورة لذلك. عرفت على وجه اليقين لمن هذه الجثة. لون شعرها مثل الجسم كله كانت سوداء مثل الفحم، وترك موقعها انطباعًا بأن صاحبها قد فاضت روحه ليس من وقت طويل.

انحنيت نحوها وأدرتها على ظهرها. انحنيت لحظة طويلة هناك وحدقت في الجسد الملقى أمامي. على الرغم من احتجاجات رجال الإنقاذ، حاولت تنظيف الزيت الذي غطى وجهه لكنني لم أستطع لأن يدي ممتلئة بالزيت. في هذه اللحظة بالذات تم تشكيل شخصيتي إلى الأبد فقد أقسمت أن أكون متسامحًا وطيب القلب. مثل فينجولد ومثل الآخرين، مثل صديقي الأشقر الذي استقبلني على متن السفينة في اليوم الأول بالابتسامة التي كنت في أمس الحاجة إليها.

توفي أريه شفارتس وعلى وجهه ابتسامة. كان يبتسم دائمًا ذلك الشقي. رفعتني يد ثقيلة إلى أعلى وساعدتني بلطف شديد للوقوف على قدمي. قال لي الرجل: "تعال!". "تعال!. ادخل!. الجو بارد هنا على سطح السفينة." دفعني بلطف شديد ولكن بثبات إلى داخل السفينة ولم يسمح لي بأن ألتفت إلى الخلف. توقفت عند السلم الداخلي المؤدي إلى جوف السفينة والتفت إلى المنقذ:

قلت له بهدوء: "يمكنك الذهاب، أنا أعرف الطريق"

أشار المنقذ إلى الملاح المنتظر في الأسفل وصعد الأخير بسرعة وساعدني على النزول. قادني آخر إلى غرفة جلوس صغيرة بها ناجين كثيرين انتظروا فيها ملفوفين بالبطاطين. سلمني بطانية من الصوف العسكري وساعدني فى لف جسدي الذى يتساقط منه الماء. لم أنظر في اتجاه الناجين الآخرين. لم يعد يعنيني أى شخص. كنت في حالة من الإرهاق والشعور بالمرارة. جلست على سرير خشبي صغير ووضعت رأسي بين راحتَي.

لفت انتباهي الضجيج الرتيب والمستمر لمروحية تحلق فوقنا. كيف يمكن أن تكون الضوضاء ثابتة أثناء تحركنا نحن والمروحية؟ أُعطيت الإجابة على الفور،

وطُلب منا الصعود على سطح السفينة. حلقت المروحية فوقنا وتم إصعاد الناجين الذين كانوا على متن السفينة.

سألني شخص يقف بجواري "كم الساعة؟" وكانت الإجابة "٣:٣٠"، إذا كانت كذلك فقد مكثت في الماء ثماني ساعات وربما أكثر. الساعة ١٠:١٩ مساءً بالأمس ودعنا سفينتنا. لقد مرت أكثر من ثماني ساعات.

الآن فقط استطعت إدراك حقيقة أن كل ما كنت أرتديه من ملابس عبارة عن ملابس داخلية وقميصًا وجورب. حلقت المروحية فوق سطح السفينة على بعد أمتار قليلة فقط. كان حبل النجاة المتدلي من جوفها نحونا قادرًا على حمل اثنين فى كل مرة .

لمس يدي شخص ما على ظهر السفينة. نظرت إليه فشحب وجهى. كان يعقوب كوهين. تعرفت عليه بسهولة. سألني بتردد "موشيه، هل رأيت أخي؟". كان الانتباه والتوتر واضحين في وجهه جيدا.

كذبت على الفور :"كلا ، لم أره"

تمتم بحزن "أنا قلق ...".

ذكَّرته "لكنكما كنتما معًا عند مقدمة السفينة".

"صحيح، لكننا فقدنا بعضنا البعض في الصاروخ الثالث".

قلت له بحزن "أتمنى أن يكون بخير يا يعقوب" وابتعدت عنه بسرعة نحو الحبل. فإذا ما بقيت لحظة أخرى بجانبه فستخوننى تعبيرات وجهي فتكشف عن الحقيقة. في هذه المرحلة لم يكن بحاجة إلى ضربة أخرى من هذا القبيل.

الرياح القوية التي أحدثتها شفرات المروحية ألصقتني جيدًا بسطح السفينة. واصلت بحذر، خطوة بخطوة، حتى أصبحت مربوطًا جيدًا بحبل الإنقاذ.

فوق، في الجزء الآخر من الحبل، أمسك بقوة أحد الضباط الذين استضفناهم قبل يومين على المدمرة. وخلال لحظات معدودة كنا داخل المروحية حيث كانت وجهتنا نقطة تجمع للضحايا على شاطيء "رمَّانة".

وصلنا إلى "رمانة" حوالي الساعة ٤:٠٠ صباحًا حيث كانت تنتظرنا مجموعة من الجنود والقادة والأطباء الذين قاموا بالفرز الأولي للجرحى الذين وصلوا. سادت هناك ضجة كبيرة. ومن خلال زجاجات الشراب الفارغة التي كانت مبعثرة هناك خمنت أن هذه النقطة تعمل منذ عدة ساعات. مما يعنى نجاة الكثير من الجنود بالفعل في الساعة الثالثة أو الرابعة من الهجوم.

فور نزولي من المروحية خضعت لاختبارات عاجلة عند طبيب ينتظر قرب الباب. وكأنني في فيلم متحرك، استقبلني جنديان قدما لي معطفًا سميكًا ودافئًا وبعدها مباشرة محطة تسجيل الناجين. وشملت هذه المحطة شخصين. كان أحدهما أيضًا أحد الناجين: الملازم ثان مرمري. كان يقف هناك، أسود ومبتل، ويساعد شخصًا آخر يرتدي زي العمل الباهت، في التعرف على الناجين الذين وصلوا.

نظر إليّ الملازم ثان مرمري عندما اقتربت ورمش بعينيه في محاولة للتعرف علي. أخبرته قبل أن يسأل "أنا موشيه ليفي". صاح مرمري وهو يربت على كتفي:"موشيكو". ثم قال للرجل الذي أمامه:

"سجِّل! موشيه ليفي".

الخاتمة

كان التمزق في الأمعاء نتيجة للانفجارات تحت الماء السبب المباشر في التزامي الفراش لمدة أسبوعين تقريبًا في مستشفى "أسَّاف هاروفيه"، وهذا ما عانى منه معظم الناجين من المدمرة "إيلات"، حتى وإن لم يكن الجميع بحاجة لدخول المستشفى.

خلال هذا الوقت، منحتنا الإقامة فى المستشفى الفرصة للتوازن والحصول عن كثب على إجابات للأسئلة حول من مات ومن نجا ومن لا يزال معلقًا بين هذا وذاك.

قُتل سبعة وأربعون رجلًا من رجال السفينة في هذا الحادث إلا أن الاستنتاجات المستخلصة والدروس المستفادة من ذلك هو شأن المؤرخين. بقي لنا، نحن الناجون من السفينة، أن نذعن لحقائق الحياة الجديدة.

فترة إقامتي في المستشفى مسجلة في صفحات تاريخي على أنها الفترة الأكثر اضطرابًا وإحباطًا التى عشتها في حياتي؛ حيث اتضح لي هناك أن يعقوب كوهين، الأخ الثانى، فاضت روحه على طاولة العمليات في المستشفى الذي وصل إليه فور نزوله من المروحية نتيجة فقدان الدم بشكل كبير بسبب تمزق أعضائه الداخلية. كما علمت هناك أن آفي قنطروفيتس لن يذهب إلى دورة الإبحار، وكان علي أن أودع الرائد كسبى الصارم، الذي حمل في صدره قلب ملاك، والرقيب رامي صَبَان، الهادئ والمنطوي، وفينجولد طيب القلب، وصديق عمري أريه شفارتس وآخرين كثيرين. وهناك، بين جدران المستشفى، تم أيضًا

احتراق الجدار الصلب الذي وقف في طريقي إلى قلب صديقتي. ودَّعت هناك بحزن مغامرتي الكئيبة.

والتقيت في دار النقاهة بعكا، حيث أقمنا في وقت لاحق، بالرقيب كلايمونت (والذي يعرفه القليل باسمه الحقيقي "دفاش ليمون" - عسل الليمون)، نزل من السفينة قبل يومين من غرقها ليتعافى من الأنفلونزا التي أصابته وفي الواقع ربما أنقذت حياته. لقد اهتم كأب مخلص بجميع احتياجاتنا، وهناك أيضًا دعانا إلى احتفال لتسلم ميدالية حرب يونية ١٩٦٧ على نفس المنصة العسكرية فى المكان الذى كانت ترسو فيه سفينتنا.

لم يتغيب عن هذا الحفل أي من أفراد الطاقم الناجين، باستثناء هؤلاء، الذين لا يزالون يصارعون من أجل حياتهم على طاولة العمليات. كان غريبًا وحزينًا بعض الشيء رؤية المدمرة "يافا" بدون توأمها بجانبها.

في نهاية الحفل توجهت إليها. إلى خالتنا اليتيمة إلى سفينة البحرية "يافا". وكان حماسي قبيل اللقاء واضحًا تمامًا على قدميَّ. فقد كانت خطواتي بطيئة، مرتبكة، تتفحص الأرضية التي تخطو عليها. وصل انفعالى إلى ذروته على سلم السفينة. هناك ارتجفت ركبتاي. كان علي التمسك بشدة في حبال السلم حتى لا أتعثر.

سرت على طول الممرات، سرت على الطوابق، صعدت السلالم الداخلية إلى قمرة القيادة ومواقع المدافع الرشاشة. كان كل شيء مشابهًا بشكل ملحوظ. كل شيء أحيا ذكرى. لكن الجزء الأكثر حزنًا كان الدخول إلى غرفتنا المشتركة ... بالفعل وقفت في المدخل صامتًا، مثل أول يوم لي في المدمرة

"إيلات"، عندما وصلت مرتبكًا ولم أكن أعرف إلى أين أتجه. كما في ذلك الحين، كنت أنتظر التعليقات الساخرة من المتواجدين في الغرفة، لكنهم لم يأتوا. وجدت نظرة متفهمة وواعية. حمدت الله في قلبي أنهم لم يفتحوا أفواههم بأسئلة تضايقني.

سرت عبر الأراجيح. هنا رقد فينجولد، وهنا لعب أريه مع يوسي جرشون في نرد الحظ، على هذه الأرجوحة الشبكية، اعتاد قنطروفيتس طي ملاءاته النظيفة وأمامه يرتب بولسكي خزانة أمتعته.

بدأ كل شيء يعود ببطء.

لمست كتفي يد فالتفتُّ. إنه رقيب السفينة بلا شك:

سأل بصرامة عسكرية "هل أنت جندي من حيفا؟".

للحظة علق لساني في حنكى، من أين عرف؟ سارع أحد الجنود للرد بدلا مني وبذلك قدم تفسيرًا فوريًا للرقيب.

"لا أيها الرقيب. يجب أن يأتي شخص آخر".

لا يسعني إلا الابتسام، نعم. يجب أن يأتي شخص ما من تلك القاعدة. وعلى وجه التحديد اليوم!

غادرت الغرفة. حملتني قدماى بسرعة إلى سلم السفينة ومن هناك إلى الخارج. أدى الاندفاع غير الواضح إلى أن وجهت نظري تجاه بوابة المدخل.

نظرة شوق أخرى، ومضة ذاكرة أخرى، وأنا على المنصة، أخطو بسرعة باتجاه مخرج الميناء.

رأيت من مسافة بعيدة. جندي نحيف، طويل القامة يضع قبعته على رأسه بعناية وحقيبة على ظهره. كانت خطواته بطيئة ومترددة. لم يكن هناك شك فى أنه يتوجه للمدمرة "يافا".

توقفت عند أحد أحجار حاجز الأمواج التي شكلت المنصة. أردت أن أنظر إليه حتى صعوده إلى المدمرة. توقف بجوارى، وخلع حقيبته ونظر للحظة طويلة إلى كتلة سوداء بارزة فى الماء. كنت على استعداد لأقسم بأنه تمر عليه لحظات صعبة من الصراع.

مسح الجندي جبينه من العرق الذي غطاه، ولاحظنى فسأل متأملا: "هل هذه هى سفينة البحرية "يافا"؟

نظرت إليه. عيونه المتأملة تغيرت نظرتها. فصارت نطرة خوف، شك، حزن. أدرك على الفور أن سؤاله كان غير ضروري على الإطلاق.

قلت بكل جدية: "أخشى أنه لا يوجد خيار آخر".

هزَّ رأسه.

تمتم: "نعم".

بعد ذلك حمل حقيبته واستأنف سيره. هذه المرة كانت خطواته أسرع. وحادة أكثر.

تابعته بنظرى لحظة طويلة أخرى حتى تضاءل بين أبعاد المدمرة التى وصل إليها.

عندها فقط قمت من مكانى وبدأت المشي على المنصة مرة أخرى. كنت أعرف ما يمكن توقعه له. لم أشعر بالغيرة منه على الإطلاق.

على من تقع مسئولية الغرق؟

منذ أن تم نشر الطبعة الأولى، سُئلت مرة أخرى: من، فى رأيى، المسئول عن غرق المدمرة "إيلات" ومن يجب أن ننسب إليه مسئولية التقصير؟ عندما يُطلب مني القيام بذلك، قد يتملكنى الزهو. لكن لا تتيح لى الأدوات الهزيلة التي أمتلكها وتحقيقاتى المحدودة – مثل الدور الصغير الذي قمت به على متن المدمرة – أن أكون موثوقًا لهذا الأمر.

لكن الهروب من مواجهة قضية خطيرة كتلك يُعدُّ أمرًا سيئًا، منذ أن كتبت كتابًا عن ذلك، قرأت بعناية كل مادة منشورة حول هذا الموضوع تقريبًا، ولقد قمت بإلقاء محاضرات حوله منذ ثلاثة عقود وأنا من سُئلت عنه. لذلك سوف أتناول هذه القضية بحذر شديد وبكل تواضع أثناء طرح الأمور وبصيغة "يقولون". إذا تم إعطاء الانطباع أنني نجحت فى أن أوضح قليلاً للقارئ وأننى أجبت عن بعض التساؤلات، فلن يكون هذا في نهاية الأمر أكثر من وجهة نظري الشخصية ومن ثمرة استنتاجاتي، التي وجَّهتها، ربما بدون دراية أو معرفة.

في الأوضاع التي نشأت وفي الظروف التي أحاطت بها لم تستطع المدمرة "إيلات" وطاقمها الهروب من مصيرهم المرير.

عندما طافت بكامل شموخها أمام منصات إطلاق صواريخ المصريين، طافت بالدروع التي كانت لديها. أى أنها تسلحت بوسيلة الحماية المناسبة ضد إطلاق صواريخ. لقد تم تصنيعها فى بداية الحرب العالمية الثانية وفق الاحتياجات والتكنولوجيا التي كانت معروفة في تلك الأيام. هذا فى حين أن البحرية المصرية

مجهزة بأحدث الابتكارات التكنولوجية بالقرن العشرين وبكمية السفن القتالية التي تجاوزت عدد ما كان لدى البحرية الإسرائيلية آنذاك.

خلقت هاتان الميزتان، من حيث الجودة والكمية اختلالًا مذهلًا في التوازن بين القوتين وكانت على حساب البحرية الإسرائيلية بشكل عام والمدمرة "إيلات" بشكل خاص. ليس هناك ضرورة لإجهاد عقل القارئ في التفاصيل اللوجستية التي خلقت هذه الفجوة. لذلك، يكفي أن أقول أن علاقات القوى عشية الغرق تشبه، تقريبًا، حالة الظبي الخائف الذى يختبر حياته أمام قطيع من اللبوءات الجائعات. من هذا نتعلم أن مصر – ألد أعدائنا في ذلك الحين – كان لديها القدرة على تدمير السفينة التى ترفع العلم الإسرائيلي.

بدأت جولات المدمرتين الإسرائيليتين "إيلات" و"يافا" أمام شواطئ شمال سيناء فور انتهاء حرب يونية ١٩٦٧. حيث أصدر الأمر بهذه الجولات وزير الدفاع آنذاك، موشيه ديان، باعتبارها "إظهارًا للسيادة". وكان أهم بند في مثل هذه المهمة هو أن يرفع علم دولة إسرائيل وعلم البحرية على متن المدمرة "إيلات". فكانت هذه الأعلام للمصريين المهزومين بعد حرب يونية ١٩٦٧ بمثابة تذكير يومي مؤلم وتحدي لخسارتهم الفادحة في الحرب وفى معركة الطوربيدات، قبل بضعة أشهر.

ولقد فاقت هذه الإهانة الشديدة للكرامة قدرتهم على الاحتمال. لذلك، أصبح عندنا هنا مزيجٌ قاتلٌ من رغبة قوية في الانتقام والقدرة التي تكون نتيجتها مضمونة مسبقًا. فقط لامبالاة القادة المصريين للفرصة الذهبية التي حصلت في طريقهم، أو الإحجام عن توجيه ضربة موجعة لإسرائيل، يمكن أن يكون قد منع

الهجوم. لكن المصريين لم يكونوا غير مبالين و خوفهم من رد الفعل الإسرائيلي لم يكن موجودًا.

علاوة على ذلك، أثبت المصريون أنهم عدوٌ متطورٌ كثيرا في طريقة تحضير أطقمهم وسفنهم الصاروخية لمهاجمة المدمرة "إيلات". لقد استخدموا وسائل الخداع والدهاء التى أربكت أفضل حيلنا. كتب "عبده مباشر" صحفي مصري كبير ومؤلف لكتاب "إغراق إيلات" أن عشية الغرق نُقلت تعليمات مضللة على الترددات بأن المصريين قد علموا أن المخابرات الإسرائيلية كانت تتصنت عليهم.

هذا بينما تم إعطاء التعليمات الحقيقية عن طريق مبعوثين أو عن طريق الخطوط الأرضية. كما يجب أن نضيف إلى ذلك فشل الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، الذى تحدث عنه قائد المدمرة، المقدم الراحل يتسحاق شوشان في إحدى المقابلات معه؛ حيث قال إنه بعد يوم واحد فقط من الإغراق، وربما من ذلة لسان شايكي جفيش، الذي كان قائد المنطقة الجنوبية، فوجيء أنه كان من الممكن معرفة، صراحة من البرقيتين اللتين أرسلتهما المخابرات العسكرية، "أن المصريين على وشك القيام بعملية في بورسعيد"؛ حيث كانوا يجمعون بيانات قتالية عن المدمرة لإغراقها.

وفي مقابلة أدلى بها قائد المدمرة إلى الصحفي يوسي ميلمان من صحيفة "هآرتس" في مارس ٢٠٠٥، تم الاستماع إلى المقدم [احتياط] شوشان حاسمًا بشأن إمكانية إنقاذ السفينة والطاقم لو علمنا بتلك البرقيات. فلم يتم إرسال

البرقيات إلى البحرية، ليس هذا فحسب؛ بل أيضا لم تتسبب في أي إنذار هناك. (لذلك دفع ضابطا الاستخبارات العسكرية ثمن ذلك فيما بعد).

هذا من منطلق التقييم الذي ساد حينها بين مسئولي المخابرات ووفقًا له: إذا تعرض المصريون للإذلال بدرجة كافية، "سينكمشون من الخوف"، كما قال قائد البحرية فى مقابلة، "ولن يجرؤوا على رفع رؤوسهم بعد الهزيمة المخزية التي تعرضوا لها في حرب يونية ١٩٦٧."

بل أكثر من ذلك هم لا يريدون أن يكشفوا أمام الغرب مميزات صاروخ بحر- بحر الأحدث طراز "ستيكس" الذي أحدث ثورة في نظرية المعارك البحرية في العالم وكان الورقة الرابحة للروس في ذلك الحين. كل هذا لإغراق مدمرة عفا عليها الدهر وغير مهمة. بالإضافة إلى ذلك، يعتقد هؤلاء المسئولون أن مصر تفتقر إلى المعرفة المطلوبة في تشغيل سفن الصواريخ الجديدة. وتبين أن ذلك التفكير الذي كان سائدًا في الماضي أنه خطأ فادح.

نقطة أخرى جديرة بالذكر هي التصريح الذي أدلى به قائد المدمرة نفسه في مواجهة مع قائد البحرية أثناء عملية الغرق، اللواء [احتياط] شلومو أرئيل، والتى حدثت في كيبوتس عين شيمر بعد عشرين عاما. فقد قال قائد المدمرة "إيلات" إن شعبة العمليات بسلاح البحرية تجاهلت المعلومات التى أرسلتها السفينة نفسها في المنطقة بالوسائل التي كانت متاحة لديها والتي سلمتها إلى القيادة في نهاية كل رحلة إبحار. هذا على الرغم من مطالبته المتكررة بأخذ ما يتم إرساليه الأمر بجدية أكبر. ووفقًا لكلام قائد المدمرة: فقد واجه جدارًا من اللامبالاة وعدم الاكتراث. وكان الاهتمام ينصب على سفن الصواريخ (التي كانت في

طور الإعداد) على حساب المدمرة إيلات، وقال مضيفًا: "كان الشعور أنهم يستثمرون في المستقبل على حساب الحاضر". وبالتالي، لم تحظ المعلومات المهمة التي نقلها بأي اهتمام، على الرغم من أن المسئولين رفيعى المستوى في سلاح البحرية كانوا يدركون عدم وجود مساواة فى القوة بين المدمرة الإسرائيلية والأسطول المصرى. وتناول هذا الأمر "أريه مرمري" الذي كان ضابطًا في سفينة البحرية "إيلات" وقت الغرق، في مقال بارع كتبه في صحيفة "هآرتس": "علمت قيادة البحرية بوجود سفن الصواريخ المصرية في بورسعيد، لكنها لم تدرك أهميتها ووزنها كتهديد، أو الأسوأ أنها دفنت رأسها في الرمال". وأضاف:" كان سوء تقدير قيادة البحرية سبب الكارثة".

في نفس المواجهة، قال قائد المدمرة المقدم [احتياط] يتسحاق شوشان: "إنه بالإضافة إلى عدم الاكتراث الذى عاملته به القيادة العليا للبحرية، فقد سحبوا منه أيضًا - قبل الرحلة الأخيرة للمدمرة - طاقم مهم من رجال المخابرات (مقتبس) كان موجودًا هناك والذى كان يستطيع أن يلتقط بنفسه البرقيتين المذكورتين و لم يكن يحتاج إلى عناصر خارجية للتحذير من نية المصريين".

كما يوجد فشل أيضًا في تعريف مهمة المدمرة "إيلات". كان أحد استنتاجات لجنة التحقيق العسكرية برئاسة الجنرال "حاييم بارليف" - حينها، نائب رئيس الأركان العامة - هو أن سبب الكارثة على المدمرة هو تعريف الجولات التي تم القيام بها أمام الشواطئ المصرية المعادية بأنها "روتينية". هذا بدلًا من تعريفها على أنها "عملياتية". كتب بارليف هذا في استنتاجات التقرير وعاد وأشار إلى ذلك في مقابلة متعددة المشاركين - عن غرق المدمرة- في صحيفة "مونيتين" في الذكرى العشرين للغرق.

كانت هناك إخفاقات في وظيفة المدمرة أيضًا في مجال الاتصال الداخلي العسكري والفروع أو بينهما البعض.

وقال قائد المدمرة "إيلات" في نفس المواجهة في "عين شمر" إنه علم بعد أربعة عشر عامًا، أنه لا يوجد، باستثناء سلاح البحرية، أى مسئول عسكري ذي صلة على علم بوجود الدوريات: لا الاستخبارات الحربية ولا شعبة العمليات ولا القوات الجوية. فأجابه عن ذلك قائد البحرية أن شعبة العمليات علمت وكان عليه هو أن يشارك المعلومات مع القيادة الجنوبية ومختلف أسلحة الجيش الإسرائيلي. وأكد كلام قائد المدمرة طيارو المروحيات، على سبيل المثال، الذين انطلقوا في الجو عندما تم العلم بالكارثة وصرحوا في مؤتمر "ناجون ومنقذون" عُقد في "بيت الجندى" في حيفا بعد ١٧ عامًا من الكارثة، أنهم لم يعرفوا شيئًا عن وجود المدمرة في المنطقة ولم يفهموا شيئًا عنها وعن عدد الأشخاص المشاركين. قيل لهم: "انطلق في الجو وسنبلغك بمعلومات جديدة".

فضلًا عن عدم وجود اتصال لأكثر من ساعة بين القيادة البحرية والمدمرة – عندما تعرضت لهجوم صاروخي مروِّع – ولم يثر هذا قلق القائد هناك. على الرغم من صراخنا لبضع ثوان قبل سقوط الصاروخ ولم نتلق أي رد.

وفي تعليمات الاتصال للسفن في البحر/القيادة، لم يتم تعريف الحالة التي غابت فيها السفينة عن الاتصال بأنها حالة طوارئ لمدة ساعة أو أكثر وإلا لقام الجيش الإسرائيلى بتشغيل كل منظومة الإنقاذ بأكملها قبلها بنصف ساعة على الأقل. حتى الجانب المصري تعجب من الصمت الذى ساد بعد الغرق وفسروه على أنه اعتبارات رقابية. وكتب "عبده مباشر" عن هذا: "استمر الصمت

الإسرائيلي ٣ ساعات (الصحفي المصري غير دقيق) ثم تم نشر أول برقية من تل أبيب تؤكد وجود معركة بحرية وإلحاق أضرار بالمدمرة".

كما عزز كلام قائد المدمرة أيضا العميد [احتياط] يهودا دانون، الذي كان حينها طبيب كتيبة في سيناء. وحكى في نفس المؤتمر أن أحد مراقبي الأمم المتحدة الذين التقى بهم في نادي الضباط أوضح له أن المصريين أبلغوه بأنهم أغرقوا مدمرة إسرائيلية. فاتصل الطبيب الشاب على الفور بقائده فأجابه: لا نعلم شيئًا عن مدمرتنا في المنطقة. وربما يكون كلام المصريين تفاخر لا أساس له، وهو على الأكثر استمرارًا للخيال الشرقى الذى أظهره المصريون أثناء الحرب. بكلمات أخرى: النشاط البحري، على بعد مئات الكيلومترات من الميناء الرئيسي، غير معروف لجميع وحدات الجيش الإسرائيلي الأخرى.

كما حدثت إخفاقات أخرى في مجال العمليات وانعكست في وجود مراسيم الدوريات والسرعة الثابتة التي جعلت من السهل على المصريين جمع بيانات قتالية دقيقة عن المدمرة. وفي مواجهة "عين شيمر" اتهم قائد البحرية اللواء "شلومو أريئيل" قائد المدمرة بأن مسئولية الحفاظ على الروتين تقع على عاتقه؛ لكونه القائد الميداني والمسؤول عن دراسة المسألة. فرد قائد المدمرة بالقول إنه حرص كل ساعة على الإبلاغ عن مكان تواجد المدمرة، كي تعلم القيادة دائمًا بمكان تواجدها الفعلى.

كانت هناك مواطن خلل حتى في المناطق التي يبدو أنها لا تذكر. على سبيل المثال في المسائل الإدارية: لقي شقيقان في المدمرة نفس المصير في ذلك اليوم

وقُتلا كلاهما. أو في المجال اللوجيستي: أحزمة النجاة غير سليمة، التدريب البحري / الجوي قليل (ظهرت نتائجها في الميدان في لحظة الحقيقة) والمزيد ...

سأجانب الحقيقة إذا لم أتطرق أيضًا إلى الجانب الاستراتيجي فى كل هذه القضية المأساوية، وهي التعليمات محل الخلاف التى أصدرها كما ذكرنا وزير الدفاع حول وجود الجولات البحرية بغرض إظهار السيادة الإسرائيلية. أراد موشيه ديان ذلك رغم أنه كان على علم بحالة السفن والخطر الذي تتعرض له من الجانب المصري. وكان المنطق من وراء التعليمات سياسيًا بالطبع: "إذا لم أكن هناك، سيكون هناك شخص آخر"، وإظهار السيادة هو، في الواقع ، مقولة سياسية. وقد أقر بذلك اللواء [احتياط] شلومو أريئيل بعد ٢٠ عامًا: "كانت هناك سياسة تسببت في الكارثة، وأضاف أنه كان هناك خطأ في وجهة نظر القيادة السياسية العليا وهيئة الأركان. وأنا أشاركهم في ذلك"

وفى هذا الشأن قال ضابط استخبارات كبير في مقابلة مع جريدة "مونيتين": "لم أعلق أهمية على مفهوم قديم منذ عصر نيلسون يهدف إلى استعراض العلم. هذه عملية عسكرية لا قيمة لها. ومن الناحية المخابراتية عرفنا كل ما نحتاج لمعرفته عن البحرية المصرية في بورسعيد. ثم تبين لنا فيما بعد أنه غير صحيح.

علاوة على ذلك سواء من كتاب "عبده مباشر" وسواء من شهادات أخرى اتضح أن فى الساعة ١١:٠٠ من صباح يوم الغرق توجهت من رصيف بورسعيد – التي خلت من البشر – سفن الـــ"كومار" لإطلاق صواريخها على المدمرة "إيلات". معززة بحراسة وحدات عسكرية. وحركة النقل الوحيدة المسجلة في شوارعها كانت حركة عسكرية. ولكن اختفى كل شيء عن أنظار مخابراتنا.

الخلاصة[٢٥]

يبدو أن الأشياء تتحدث عن نفسها، وإذا كان مطلوبًا مع ذلك توجيه إصبع الاتهام تجاه شخص ما، أود أن أشير بشكل قاطع إلى سمة واحدة في الشخصية الإسرائيلية، التي لم ترتعش تجاه وزراء ولا أبطال؛ ألا وهى الثقة المفرطة بالنفس والغطرسة الزائدة. نفس الثقافة "القريبة" المألوفة للغاية. وكل ما يزيد عن الحد يضر.

"والسماء لا تصفو إلا بعاصفة"، على حد تعبير شكسبير. كانت كارثة المدمرة "إيلات" نقطة تحول مهمة للغاية في تاريخ البحرية الإسرائيلية. كان هذا انكسارًا لا مثيل له وصفعة على الوجه تردد صداها لسنوات عديدة.

والدروس المستفادة والاستنتاجات المطبقة في مثل هذا الوقت القصير لا مثيل لها وكانت جرس إنذار لكل الجيش الإسرائيلى. ولقد كتب سول بلو في كتابه "هندرسون ملك المطر" قائلًا إن خلفية المرآة السوداء تشبه الموت والتي بدونها من المستحيل رؤية الواقع. كلما كان التأثير أكثر جرأة، وحقًا كان غرق المدمرة "إيلات" الخلفية السوداء لواضعي السياسات فى الحكومة وفي هيئة الأركان العامة والبحرية، كلما عجلت مأساته من تغيير نظرية سلاح البحرية من سلاح متخلف، عفا عليه الزمن، يقتات على بقايا الطعام، وكان مثالًا للتهكم بين الجيش حتى أصبح في غضون ست سنوات واحدًا من أنجح أسلحتها. تم تحديد الغرض منه، وفتحت الأيادي له، وتم شراء المعدات الحديثة، وتم تحديث الإجراءات، وشهدت العلاقة بين الأذرع تعاونًا جادًا وفوق كل شيء، تم تطوير

---

٢٥ كتب هذا الفصل الختامي للطبعة الثانية.

وسائل الدفاع – تطوير وتطبيق إسرائيلي خالص – لسفنه فى مواجهة تهديد الصواريخ.

وعندما نشبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وجدته جاهزًا ومستعدًا ورد بشكل مناسب وقاتل أساطيل العدو. ففي ١٩٧٣/١٠/٢١، على سبيل المثال، وبالتحديد في الذكرى السنوية السادسة للكارثة، أغرقت قوة بحرية بقيادة العقيد زئيف ألموج (قائد الفيلق فيما بعد) السفن الصاروخية المصرية التى أغرقت المدمرة "إيلات".

تم دفع الفاتورة

قتل ٤٧ فردًا من المدمرة في غرق "إيلات". (لا يزال خمسة عشر منهم في عداد المفقودين) ولا شك أن هذه المأساة كانت بمثابة كارثة وطنية. ولكن في نفس الوقت يمكن القول أيضا وبكل فخر أنه رغم فداحة الخسارة، إلا أنها لم تذهب سدى.

أود أن أشكر جاك (يعقوب) كوهين، صديقي فى الخدمة، ولم نفترق منذ تجنيدنا في سلاح البحرية. عمل جاك ليل نهار ليعيد مجددا تصميم غلاف الكتاب — فهو الذي صممه في الطبعتين السابقتين. فهو يتسم بالدقة مما جعله يعيد كل العمل مرة أخرى، بسبب شارة أو فاصلة لم يلحظها. ولم يتوانَ عن القيام بذلك على الرغم من الصعوبات الكبيرة فى هذا الأمر. لذلك أشكرك يا صديقي من صميم قلبي.

موشيه ليفي

نوفمبر ٢٠١٥

صور

موشه ليفي (المؤلف) بالزي العسكري ١٩٦٧

موشه ليفي (المؤلف) في المستشفى ٢٦ أكتوبر ١٩٦٧

موشه ليفي ويوسي جرشون بعد شهرين من غرق المدمرة "إيلات"

أريه شفارتس قبل شهر من إغراق المدمرة "إيلات"

الناجون من إغراق المدمرة "إيلات"

المدمرة إيلات

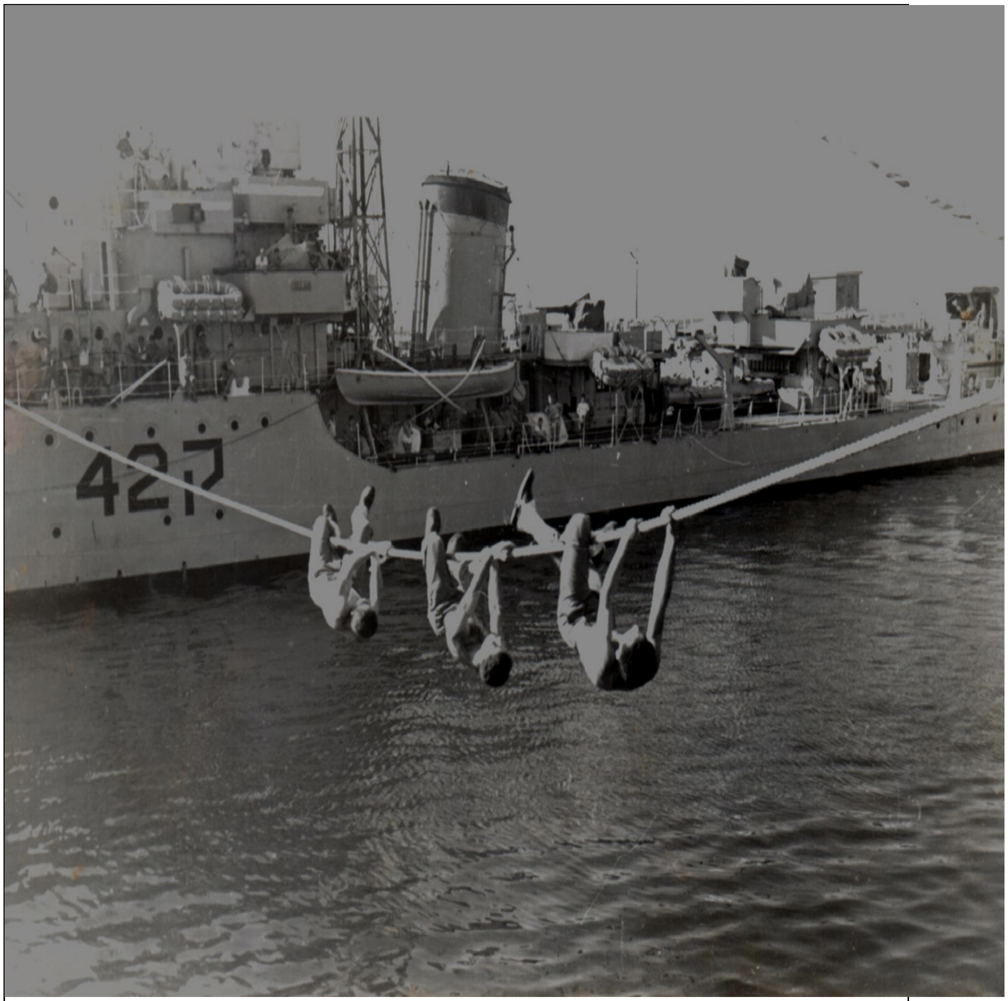

تدريب بحري لنقل الجنود من سفينة إلى سفينة أخرى

المدمرة "إيلات" في عرض البحر

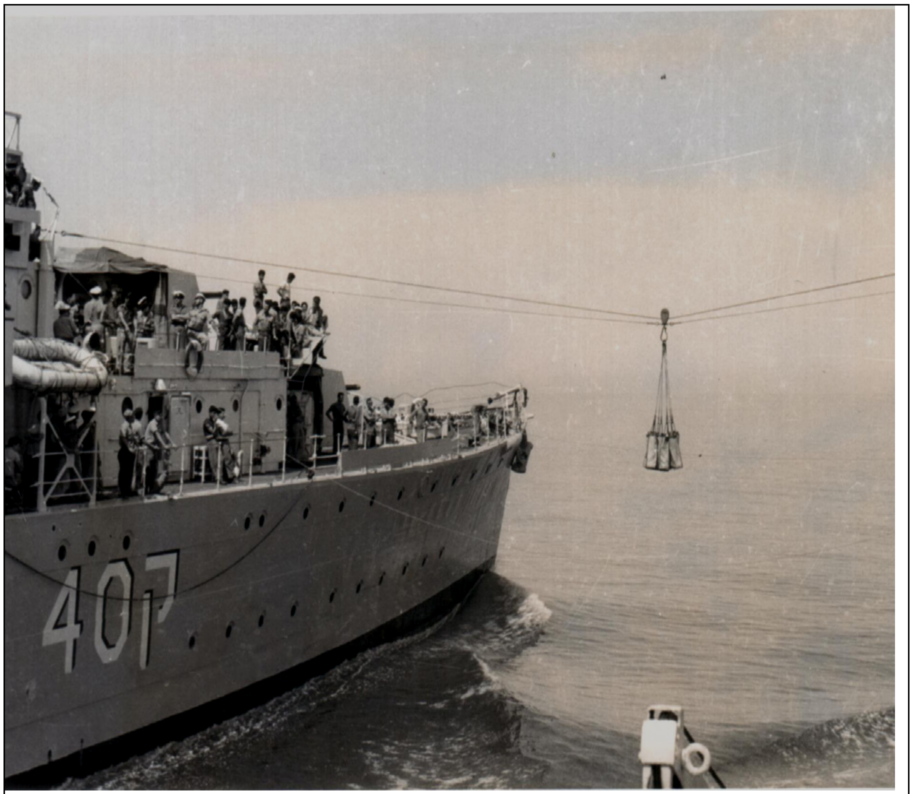

تدريب نقل الإمدادات أثناء الإبحار

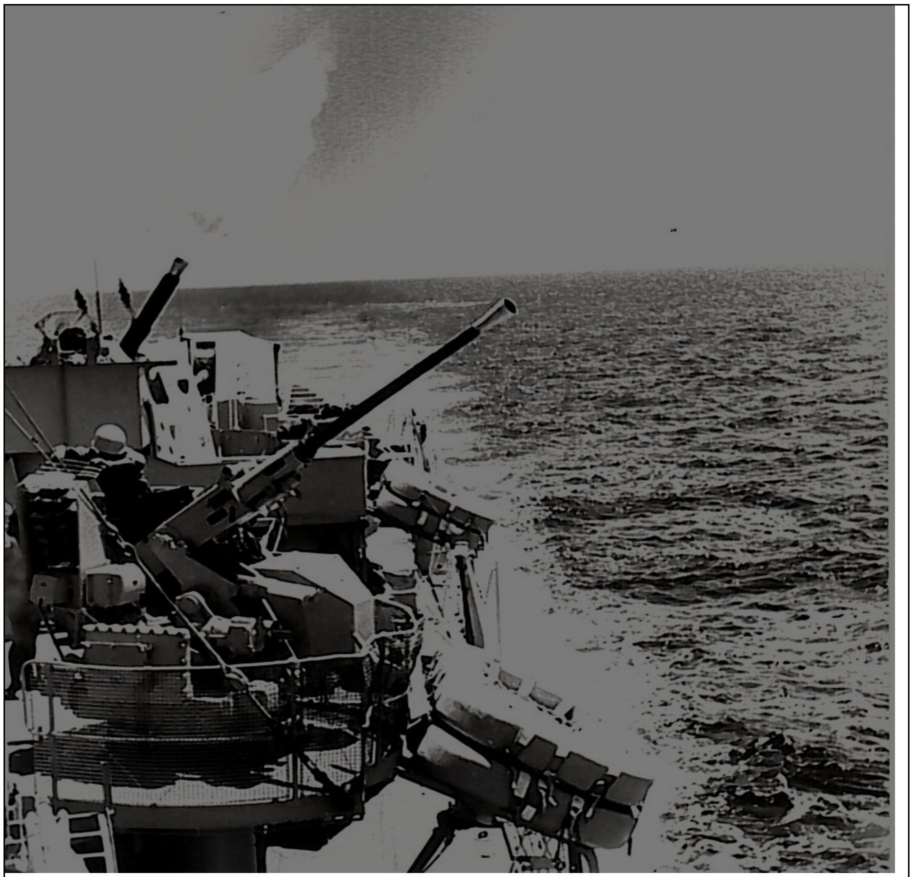

تدريب بمدافع ٤,٥ بوصة

تسلق صاري السفينة أثناء التدريب

المدمرة "إيلات" بصحبة زورق طوربيد

المدمرة إيلات من الجو

قائد القوات البحرية اللواء هارئيل مع قائد المدمرة "إيلات" المقدم يتسحاق شوشان